

تم تنسيق الكتاب

صفحة صفحة

لكن هاته النسخة

المتوفرة ينقص منها

50 صفحة

عبد الله حمادي  
(تحقيق وتقديم وتعليق)

# سيرة المجاهد خير الدين بربروس



دار الفصحة للنشر



سيرة المجاهد  
خير الدين بربروس  
في الجزائر

لمؤلف مجهول

تحقيق وتقديم وتعليق  
الدكتور عبد الله حمادي

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة  
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

© دار القصبة للنشر 2009  
ردمك : 9-817-64-9961-978  
الأيدياع القانوني : 882-2009  
جميع الحقوق محفوظة.

## أ - من إمارة رودس إلى إمارة الجزائر

ولد المجاهد خير الدين بربروس في جزيرة مدللي ( Médil, Médelin, Mitilène ) إحدى جزر اليونان والتي تسمى قديما جزيرة لسبوس حوالي 1483 وتوفي في 953 هجرية الموافق سنة 1546 ميلادية ودفن بجهة بشكطاش على شاطئ البوسفور في المحلّ المعدّ لمرسى الدونانمات العثمانية أو قصره المطلّ على مضيق البوسفور بالأستانة عن عمر يناهز 63 عاما<sup>(1)</sup> ؛ ويقدم لنا المخطوط الذي عكفنا على تحقيقه معلومات دقيقة وضافية عن حياة هذا الرجل الفدّ إذ ورد في الصفحة الأولى من المخطوط قول المؤلف: «... أصل هذين الرجلين - يقصد عروج وخير الدين - من جزائر الروم يقال لها مدللي وذلك لما فتح محمد ( الفاتح ) جزيرة مدللي، أودع فيها عسكريا برسم حراستها، وجعل عليهم رايسا منهم، فبقوا في تلك الجزيرة مدة طويلة، فطلبوا من رايستهم أن يكتب إلى السلطان ويلتمس منه الإذن في نكاح بنات أهل الذمة الكائنات بالجزيرة المذكورة...» ومن بين هؤلاء العسكري رجل يقال له يعقوب ( Sipahi Roumiliot Yakoub d'Yenidjewardar ) ؛ وهو انكشاري أو سباهي من فاردار ؛ والاحتمال الأكثر ترجيحا أنّه مسيحي ارتكب جريمة في موطنه، وحتّى ينجو من العقاب فرّ إلى صفوف جيش العثمانيين واعتنق ديانتهم الإسلامية وبالتالي نجا من العقاب، هذا ما استنتجه كلّ من الباحثين Sander Rang وFerdinand Denis في كتابهما تاريخ الإخوة بربروس. وحسب حاجي خليفة أنّه مرّت من ألبانيا هرب إلى جزيرة مدللي بعد ارتكابه لجرائم يعاقب عليها القانون.

1. أنظر تفاصيل عن حياته في دائرة المعارف الاسلامية المجلد التاسع ص: 64 - 69 .



ولما وافق السلطان محمد الفاتح على طلب الحامية قائلًا لهم: «... من أراد من العسكر أن يتزوَّج فليتزوّج من شاء، ومن أبى من أهل الذمة يُجبر على ذلك»، كان من نصيب يعقوب الهارب من العدالة والمنخرط في الجيش الانكشاري العثماني، الزَّواج من امرأة مسيحية يقال لها Catherine (كاترين)، وهو ما ينسجم مع سياق نصّ المخطوط، وقد تزوّج معها في مدينة Bonava وكانت آنذاك أرملة لأحد القساوسة اليونانيين، وكان لها معه من الأبناء ولدان وبنت، فأُنجبَت من يعقوب أربعة أبناء يؤكّد صاحب هذا المخطوط أنّ ترتيب ولادتهم كان كالتالي: «... تزوّج بنتا من بنات النصارى الذمّيات فرزق أربعة بنين: إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس، وترتيبهم في السنّ على حسب ذكرهم»، وبالتالي ليس صحيحًا من يعتدّ أنّ خير الدين هو أصغرهم.

هكذا جاء الإخوة بربروس إلى الحياة في كنف عائلة مسيحية ومن أمّ كانت زوجة لأحد رجال الدين المسيحيين، ومن أب مرتدّ حديث العهد بالإسلام، وفي محيط معاد لكلّ ما هو إسلاميّ؛ كما شهدت المرحلة صعودًا مثيرًا للزحف الإسلامي على بؤابة أوروبا الشرقية ممثلاً في فتح القسطنطينية على يد محمّد الفاتح عام 1453/857 والذي كانت رغبته تسعى لغزو روما وربط جواده بباب كنيسة بطرس.

يظهر أنّ الأبناء الأربعة اعتنقوا ديانة والدهم الجديدة دون أن تلقى ما يكيانهم من رواسب دينية مسيحية من جانب الأمّ، وكذلك لغويّة لا تمتّ بصلة إلى العربية أو حتّى التركية؛ فالأبناء ثمرة مزيج عرقي وديني ولغوي يتناسب مع محيط تلك الجزر اليونانية التي تعجّ بالصراعات الدينيّة والسياسية.

تقول بعض المصادر إنّ نشأة أبناء يعقوب كانت بجوار جزيرة رودس

Rhodes، وأن فرسان القديس حنّا الأورشليمي الذين ظهروا على مسرح الأحداث آنذاك، ولعبوا دور العدو الشرس ضدّ العثمانيين، وهم الذين طردوا من بيت المقدس من طرف سلطان مصر عام 1251 وكانوا ينشطون آنذاك باسم Hospitaliers Les Frères محاولين على إثر طردهم إيجاد موقع للاستقرار فيه فاحتضنهم بجزيرة قبرص Chypre أميرها هنري الثاني (Henri 2) الذي مكّنه من مدينة ليمازول (Limazol) كملجأ لهم بعد المطاردة وهو ما دفع بقائدهم قيوم دي فيليارات (Guillaume de Villaret) أن ينصبّ نفسه حاميا للجزيرة أو سيّدا عليها، وشرع في التفكير في استقدام أتباعه ومعاونيه، وأخيرا استقرّ المطاف بتنظيمه في جزيرة رودس.

كان هذا التنظيم الديني ظاهريا يمارس أنشطة إنسانية ممثلة في الأعمال الخيرية كإسعاف المحتاجين والمرضى والمشرّدين وإطعام أهل السبيل؛ وكما هو معروف فإنّ جزيرة رودس كانت تابعة للإغريق، وكانت من أهمّ المراسي التجارية والعسكرية، وكذلك من أشهر المحطات التي تتقاطع فيها كلّ سفن العالم المختلفة الجنسيات والأعراق في ذلك الوقت.

لكنّ هذا التنظيم الديني الذي ظاهره التقوى والبرّ والإحسان داخل أتباعه أطماع سعت للاستيلاء على الجزيرة وتملكها وجعلها قاعدة لإمارة موعودة وخاصة أيام قائدهم ريموند دي باي (Raymond du Pay) الذي حكم السيف في رقاب كلّ من هو ليس مسيحيا، فأظهر جبروتا وتعصبا دينيا كان ضحيّته العديد من المسلمين في تلك المناطق المتاخمة لإمارته الدّينية.

للانقضاض على أعداء عقيدتهم والتعرض لإبادة كل مخالف لقناعاتهم الدينية والعنصرية، وأطلقوا على تنظيمهم الوليد اسم «فرسان رودس» (Les Chevaliers de Rhodes) الذي سيتولّى قيادة الحرب المقدّسة (Gerra Santa).

ولما كان ما ينتظرهم من غزو ومغامرات سيكون ساحته البحر، فقد عمدوا إلى تجهيز جيشهم بالعدّة والعتاد اللازمين لخوض عباب البحر ومخاطره، فصار لهم بذلك أسطولا يعرفون به اقتصرته مهمّته على السطو والنّهب والإغارة في البحر، والسواحل والجزر والمرافئ وغيرها من الجهات البحرية.

شرع هذا التنظيم في أولى مهامّه على الإغارة على سواحل شواطئ تركيا العثمانية، وكلّ الجزر المترامية في حوض المتوسط، وتعاظم دور هؤلاء الفرسان القراصنة حتّى بات يشكّل خطرا محدّقا بجسد الخلافة العثمانية، وخنجرا موجّها إلى خصرها مباشرة، كما باتت قاعدتهم رودس محطة لجلب أنظار حماة الصّليب والمغامرين الحاقدين على التمدّد العثماني في أرجاء الأراضي المسيحية، وكذلك على انتشار «الإسلام» وحلوله محلّ الدّين المسيحي في عقر داره، فاستحال بموجب هذا الصراع والتصوّر العدائي الديني حوض المتوسط إلى جزيرة نهب وسلب وسطو مسلّح، وانعدام أمان يبعث على القلق والخوف الدائم، وعدم الاستقرار والفوضى المحدّقة بكلّ الدول والإمارات في ذلك العهد.

لقد تمكّن هذا التنظيم من استعادة جزيرة مدلّي مسقط رأس الإخوة بربروس عام 1501 بدعم مباشر من نداءات البابا إلى كافة الطوائف المسيحية؛ فجند لها جيوش ملك فرنسا وجيوش الملكين الكاثوليكين

إيزابيلا وفرنادو ملكا إسبانيا، وجيوش ملك البرتغال، وكذلك جيوش الجنوبيين، وقد ذكرت بعض المصادر دفاع الأخوين عروج وخير الدين آنذاك على جزيرتهما ضدّ هذا الهجوم المسيحي المنظم، ومشاركتهما، وربما لأول مرة، في الاحتكاك المباشر مع مقتضيات الصراع العالمي الذي كان يتحرّك بخلفية دينية.

ويظهر من خلال هذه التجربة التي عاشها الأخوان أنّهما اختارا الانحياز إلى قناعات والدهما وصارا منذ ذلك التاريخ يحطّبون في حبل الخلافة العثمانية ولو بطريقة غير مباشرة، عن قناعة واختيار، كما باشرا حرفة القرصنة التي تعني اللصوصية البحرية في أقصى تجلياتها؛ ونقول هنا اللصوصية التي تقابلها في اللغات الأجنبية عبارة (Piratrie)؛ وهي السطو في البحر لأغراض خاصّة، وباستقلالية تامّة عن أي إيالة يحتمي بها لصوص البحر (Les Pirates) كما هو الشأن مع فرسان رودس الذين بدءوا ينشطون آنذاك تحت حماية ومباركة البابا وباقي الملوك المسيحيين، ومن هنا يصدق أن نطلق عليهم تسمية «القراصنة» التي تقابلها في اللغات الأجنبية (Les Corsaires)؛ وهي اللصوصية المقنّعة بشرعية قوّة حامية لذلك التنظيم، وإن شئت لصوصية مشروعة<sup>(1)</sup>، وهو ما سيعيش تجربتها الطويلة المجاهد خير الدين بربروس دون إخوته سواء في دفاعه عن الجزائر، أو أثناء قيادته للأساطيل العثمانية؛ وأقول دون إخوته لأنّ كلاً منهم - إسحاق الذي قتل في قلعة بني راشد بالغرب الجزائري وعروج

1. للمزيد حول هذه القضية أنظر الدكتور عبد اله حمادي، مساءلات في الفكر والأدب، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص: 48 - 49، وأنظر كذلك مجلّة المصادر التي يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، عدد 6 مارس 2002 «جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق الأسرى الإسبان» من صفحة: 256 إلى 258.



الذي قتل بدوره بجبل بني يزناسن قرب تلمسان بالغرب الجزائري، والياس الذي قتل في جزيرة رودس - قضوا كما لاحظنا وهم لم يتجاوزوا درجة (Pirate إلى رتبة قرصان Corsaire).

لكن مع وصول السلطان سليمان إلى العرش عام 1520 عرفت الأحداث مسارا مغايرا إذ أظهر في قيادته عزمًا قويا على استئصال شأفة هؤلاء القراصنة من فرسان رودس والمتفّعين بمسوح الرهبان؛ وتقول عنه المصادر أنه كان دائم التذكّر لوصيّة والده السلطان سليم القائلة على لسانه: «حتّى يهدأ الأمر ويستقرّ الحكم لبني عثمان فعليهم بتشديد القبضة على بلغراد وعلى جزيرة رودس»؛ فهذه الوصيّة كانت ضمن الهاجس المركزي للسلطان العثماني الجديد سليمان، وحتّى يحقّق هذه الرّغبة بادر بإحكام الحصار على جزيرة رودس، وتشديد الخناق عليها من أجل استئصالها وإراحة جسم الخلافة المترامي الأطراف من هذه الشوكة المفروزة في كعب الإمبراطورية المهيبة؛ ولما حان موعد الحسم وقف في مقدّمة جيوشه مذكّرا إياهم بمدى خطورة هذا الورم الخبيث الذي ينخر جسم الخلافة، ورأى أن لا شفاء لجسم الخلافة منه سوى باستئصاله من جزيرة رودس، وقد ذكّر كذلك في هذا الخطاب التاريخي بصنيع هذه الحثالة من شذاذ الأفاق وقطّاع الطرق، وأنه ماضٍ في يقينه إلى اجتثاثهم من الأصول حتّى ولو كان ثمن ذلك باهظا لجيوش الإمبراطورية كلّها.

من هذه الخلفية المفعمة بالجهاد والمواجهة بزغ نجم الأخوة إسحاق Ishak وعروّج Aruch أو Orot أو Horruc وكذلك Homich كما ورد في المصادر الأجنبية، وخير الدّين Khize (خضر) والياس؛ فأولهم وكبيرهم إسحاق كان يمارس حرفة التجارة البحرية، في حين كان الثلاثة على عهد السلطان با يزيد الثاني وسليم الأول يمارسون القرصنة البحرية في هيئة

تجار البحر، وفي إحدى مواجهاتهم مع فرسان القديس حنّا الأورشليمي قتل أخوهم إلياس وأسر عروج ولم يتم إطلاق سراحه إلا بمساعي أخيه خير الدين الذي فصل صاحب هذا المخطوط مجريات أحداث خلاصه.

من هنا يمكن استنتاج العديد من الفرضيات التي سيبنى على أساسها مستقبل الأخوة ؛ لقد ذاق عروج طعم الأسر في مقتبل شبابه، وكانت الفترة التي عاشها والتجربة التي مرّ بها سببا مباشرا في تنميته تنمية المقاتل الشرس الذي يكنّ للمسيحيين عداا شديدا لكونه ذاق على أيديهم إهانة الأسر ومختلف أنواع التعذيب، ومن هناك يمكن استخلاص تجربة الإخوين عروج وخير الدين ابتداء من مرورهما بجزيرة رودس، ومعرفة أحوالها، ومعاينة أهدافها كقاعدة متقدمة للدفاع عن الدين المسيحي من طرف فرسان نذرنا أنفسهم للدفاع عن قناعات دينية راسخة في أعماقهم، وكحامية اعتمدت على طالعها الديني قبل غيره من المصالح الدنيوية، كما عايش الأخوة استفحال أمر هذه الإمارة واشتداد عودها إلى درجة بلغت فيه مبلغا يحسب له ألف حساب ؛ فلما لا تكون هذه الخلفية هي الباعث المباشر إلى ما سيؤول إليه مصير حياة الأخوين بربروس في المستقبل؟.

إن الباحث وهو يستقرئ هذه الخلفية لا يسعه سوى التسليم بالمقادير التي رمت بالأخوين في عرض سواحل المتوسط الغربية لترسم لهما مسارا شبيها في مجرياته بمسار فرسان رودس، إذ قدر لهما أن يشيّدا قواعد إمارة عسكرية دينية شبيهة في محتواها بإمارة جزيرة رودس، وبالتحديد في مدينة الجزائر التي دخلها عروج فاتحا قبل وصول أخيه خير الدين عام 1516، ومن هناك جاء احتفاء الجزائريين الدائم بهذا الاسم الأسطوري ليجعلوا منه أبا لكل الجزائريين لحظة شعورهم باليتم والمهانة والانكسار ساعة حضور العدو الإسباني الرابض في قلعة تمنفوس قبالة الجزائر،

فصار عرّوج يعرف في المخيال الشعبي منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا باسم «بابا عرّوج»، وهي كنية أحرزها دون إخوته الذين كافحوا مثله عن الجزائر وقدّموا أرواحهم فداء لها، والأمر ذاته حظي به خير الدين، فيما بعد، الذي لقّب «بربروس» دون إخوته جزاء له على الرّعب الذي أسكنه في قلوب أعدائه طيلة أربعين سنة من جهاد متواصل واحتكاك بالعدوّ دائم، حتّى جعل البابا المسيحي يصدر ما يشبه الفتوى الوارد ذكرها في المخطوط والتي جاءت ضمن السياق التالي: «... فإنّهم لم يقاتلوا خير الدين لمقالة صدرت من البابا، فيما زعموا، أنّه أوصى النّصارى أن لا يقاتلوا بربروس لأنّه لا يتوجّه إلى ناحية إلّا ويظفر بها فيكون المقاتل له ساعيا في هلاكه»، كما أنّ المخيال الشعبي المسيحي لم يتأخّر بدوره، هو الآخر، عن نعت بربروس بصاحب اللّحية الصّهباء المخيفة والمروّع اسمه لأطفالهم وغيرها من القصص الشعبية المثيرة التي انتشرت في ثنايا ما صار يعرف بأدب الأسر (Literatura del Rescate).

### ب - من ابن القاضي إلى الدونكشوط

لقد قيّضت فرصة حضور الأخوين بربروس إلى شواطئ المتوسط إلى شيخ من شيوخ زاوية بمناطق بجاية أن تتسج من حوله الأساطير في مملكته التي تعرف بإمارة كوكو<sup>(1)</sup> : لأنّ جدّ شيخ هذه الإمارة الملقّة في أهداب الجبال هو قاضي بجاية أيام الدّولة الحفصية (627-943 / 1229

1. يقول عنها شوقالبية في سياق حديثه عن ابن القاضي المتمرّد: «... ومهما يكن من الأمر فقد انسحب إلى جباله والتنت حوله قبائل آيت يعبى وآيت بوشايب وآيت فراوسن، وقام بتحصين مملكته مملكة الكوكو التي لم تدم إلّا قليلا حتّى في عصر ازدهارها وفخامة كقرية ريفية يسكنها 1600 نسمة، والتي تجثم على الصخور الوعرة بحيث جعلت الدّفاع عنها سهلا، ولكنها كانت مجهزة بجيش هام قوامه 5000 رجل يحملون سلاحا و1500 حصان وذلك لحفظ النظام في الدّاخل والقيام بعمليات وغزوات خارج القرية». أنظر شوقالبية: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 - 1541)، ترجمة جمال حمادنة، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص: 37

(1526 -) لذا حمل كنيته المهنية وتسمّى بأحمد بن القاضي، والذي ليس لأصله علاقة بابن القاضي صاحب مصنف «درة الحجال...» الذي يعود أصله إلى فاس، لكن أحمد بن القاضي شيخ قبائل بجاية جاءت كنيته من ممارسة جدّهم الغبريني للقضاء شأنه في ذلك شأن معاصره ابن قنفذ القسنطيني الذي يكتنّى بدوره بابن الخطيب نتيجة ممارسة جدّه للخطابة طيلة سنوات؛ فهذا البربري الحكيم والفقيه والد أحمد بن القاضي هو الذي تنبأً بقدم رجل من المشرق على وجهه شامة حسب ما يذكر صاحب هذا المخطوط على لسان ابن القاضي: «... وقد كان أبي، رحمه الله، من أهل الصلاح، والخير ما أخبرني به: أنّ رجلاً يقدم إلى هذه المنطقة في وجهه خال واسمه مركب من ثلاثة أحرف يملك إقليم الجزائر، وهو منصور على من توجه إليه، فإن أردت أن يثبت لك ملكاً قطاًطاً له الرأس وأرخي له العنان، وساعده على جميع ما يريده، وإلاّ فإنّي لا أراك أن تثبت له، ولا مثلك من يثبت لمثله»، فتصح ولده القائد بالتّحالف معه ولا يكون عليه؛ لأنّ هذا القادم تكفّه العناية الربّانية، ومكتوب له التّصر حيثما حلّ؛ فكان أحمد بن القاضي هو السبب المباشر في قدوم الأخوين إلى بجاية، والسبّاق إلى احتضان عروج وتمهيد الطريق له للوصول إلى جزائر بني مزغنة التي كانت ترزح تحت نير تهديدات الملك الكاثوليكي فرناندو الأراغوني Fernando de Aragon المتوفى سنة 1516 ميلادية، والذي أجبر أعيانها بقيادة أميرهم سليم تومي الثعالبي على دفع الجزية وهم صاغرون.

وكانت المقادير قد جعلت من أحمد بن القاضي وخير الدّين خير حليفين، لكنّ أهواء السياسة، وفتن المفرضين من سلاطين بني زيان بتلمسان، وبني حفص بتونس قلبت تلك الصداقة والتحالف المتين إلى عداوة ضارية



انتهت بتمرد أحمد بن القاضي على حليفه محرّر جيجل وبجاية والجزائر وشرشال وتّس وتلمسان ... ؛ متأسيا في خضمّ هذه الأحداث وصيّة والده ؛ فكان مآله أن شقّ عصا الطاعة وانتقض على الجزائر في غفلة من خير الدين وزحف بجموع زاوية الأمازيغ من بجاية وتّري وزو وعزازقة وعات في جزائر بني مزغنة فسادا حتّى ترك فيها الأحاديث والأقاصيص الشنيعة التي أودت به في النّهاية إلى قتله على يد أتباعه ؛

إنّ هذه الشخصية الجزائرية الصميّة، والتي ارتبط اسمها بالإخوة بربروس وبأحداث الجزائر الجسام في مطلع القرن السادس عشر الميلادي لا يمكن إلّا أن تكون في رأيي سوى تلك الشخصية الرّوائية التي استلهمها الأسير الإسباني، والكاتب العالمي، فيما بعد، ميقال دي ثيرباننس Miguel de Cervantes في روايته الخالدة والعجيبة «دون كيشوط»<sup>(1)</sup> دي لا مانتشا Don Quijote de la Mancha والتي يقول فيها ثيرباننس أنّه نقل حكايتها من مخطوط لأحد المغاربة سمّاه بنطقه - الذي تعدّر عليه آنذاك نطق حربي: «القاف» و«الضاد» - Cide Hamete Benengeli، والذي لم تتّضح معالم هوية هذه الشخصية الرّوائية إلى يومنا هذا عند الدّارسين؛<sup>(2)</sup> فالبعض منهم ذهب إلى الاعتقاد أنّها شخصيّة تاريخية حقيقية انتهى به المطاف إلى الهجرة إلى أمريكا الجنوبية، أو العالم الجديد، كما كانت تعرف آنذاك، وقضى نحبه بالبيريرو Peru والبعض يرى أنّها شخصيّة من نسج خيال الكاتب، وفي هذا الصدد يقول النّاقّد اللاتينو-أمريكي Ernesto Gimenez Caballero في كتابه «دون كيشوطي في نظر العالم (وفي نظري)

1. نكتبه دون كيشوط كما هو شائع لكن نطقه الإسباني هو: دون كيشوطي .

2. Al-Andalus revisite aux sources de l'histoire arabe du Don Quichotte. Par Andree Stoll . Ed. I. A 2007 .

«...Segun Cervantes, por propia confesion aseguro ser el segundo autor, arreglador en prosa castellana de un origen árabe traducido por un morisco aljamiado en Toledo a instancias suyas. El autor se llamaba CIDE HAMETE BENENGELI, un hispanomarroqui vecino de la Macha ...Cervantes cita, en su adaptacion castellana del Quijote arábigo treita y siete (37) veces a Cide Hamete Benengeli. Y le descubre como (sabio, encantador y filosofo mahomético) , como (curioso y atento) , (apuntual cronista), o sea (muy preciso y objetivo) , y (flor de los historiadores) y como (arábigo y manchego), ... Para Unamuno, Cide Hamete existio en el corazon de Cervantes y le dedio la historia de Don Quijote. »<sup>(1)</sup>

فهذا النصّ الهام يؤكد أنّ ثيربانتس يعترف بأنّه المؤلف الثاني، أو الذي أعاد صياغة النصّ الأصلي نثرا باللغة القشتالية، أي الإسبانية، معتمدا على أصل عربي ترجمه أحد المورسكيين المدجنين بمدينة طليطلة في حين يسمّى المؤلف الحقيقي «سيدي حميتي بننجلي» أحد إسبان المغرب العربي، والقاطن في زمن الروائي سهوب «لا منتشا» بإسبانيا.

لقد ذكر ثيربانتس في إخراجه لروايته «دون كيشوط» الذي اعتمد النصّ العربي 37 مرّة «سيدي حميتي بننجلي»، وكشف عنه كحكيم وفيلسوف مسلم وكانسان طريف حاذق، وكمؤرّخ حصيف وموضوعي دقيق، وكزهرة المؤرّخين، وكمستعرب ينتمي إلى منطقة «لا منتشا». أمّا بالنسبة للفيلسوف الوجودي الكبير دون أونامونو (Miguel de Unamuno) فإنّ سيدي حميتي بننجلي قد وُجد في قلب ثيربانتس فأهدى له «قصة دون كيشوط». وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ رواية «دون كيخوطي» هي أثر أدبي مدجّن (Mudejar)؛ ولما نذكر هذا المصطلح فنعني به أكثر من مدلوله

1. Ernesto Gimenez Caballero: Don Quijote ante el Mundo (y ante mí), ed. Inter Americana University Press. Puerto Rico, 1979, p: 121, 122.

التاريخي الذي يعني أولئك المسلمون الذين فضلوا العيش تحت السلطة المسيحية الإسبانية بعد سقوط غرناطة عام 1492 ورضوا بما قدر الله وقضى، ومن ناحية أخرى فإن هذا المدلول يعني الاندماج والتفاعل في أقصى تجلياته، وما سينتج عنه من ثقافة تكون كفيلة بإنتاج عمل أدبي رائع مثل رواية «دون كيشوط دي لا منتشا» للكاتب ثيربانتس الذي مكّنته أحداث تاريخ قراصنة الجزائر، والعيش في أجوائها السحرية، من معاينة ومعايشة هذا الوسط «المدجن» من 1575 إلى 1580، وبالتالي فليس غريبا أن يقرّ بتقاسم عمله الأدبي الرائع مع من كانوا سببا في إلهامه مثل هذه الأجواء الغريبة التي تمازجت فيها الأعراق واللغات والديانات والتقاليد والأهداف على أرض يقال لها الجزائر المحروسة، أو دار الجهاد المصعرة لخدّها في وجه أعدائها والطامعين في امتلاكها.

إنني أتصوّر، وربما لأوّل مرّة، أنّ هذه الشخصية التي شرّفها ثيربانتس بالحضور في روايته الخالدة، ومنحها حقّ امتلاك الكلمة الفصل في روايته، لا يمكن أن يكون سوى الحكيم والفقيه المتألّه «سيدي أحمد بن القاضي» شيخ قبائل زواوة الذين تقاسموا مع التّسور مراقبيها ومعاليلها، والذي تنبأ جدّهم<sup>(1)</sup> في يوم ما بمقدّم منقذ الجزائر، وبأنّ مدينة الأحلام المرجوة التي ساهمت في إنجازها مختلف الأعراق والممل والنّحل إبّان القرن السادس عشر الميلادي ستعرف الظهور على غيرها من المدن؛ وبالتالي ليس من الغريب أن تحتفظ الذاكرة الشعبية الجزائرية بالكثير

1. أبو العباس أحمد بن أحمد الفبريني المتوفى (704 / 1304)؛ تنسب أسرة بني الفبرين إلى أحواز «عزازقة» بمنطقة القبائل الكبرى. وربما يكون جدّ أحمد بن القاضي أو والده أبو مهدي عيسى بن أحمد بن محمد الفبريني قاضي الجماعة وعالمها وصالحها وخطيبها والمتوفى سنة 816 هجرية وهو الذي أثنى عليه الشيخ عبد الرحمان الثعالبي. «أنظر عنوان الدرابة فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الفبريني، تحقيق الأستاذ راجح بوناز، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص: 24.

من القصص المثيرة لهذا القائد القبائلي الذي تصافح مع عروج فوق صخور جبال بجاية، وقاد مسيرته إلى جزائر بني مزغنة، وصار ذراعه الأيمن على تخومها الشرقية زمن خير الدين بربروس، وارتد إلى درجة العصيان فاستولى على المحروسة وأذاقها من طعم الويال لمدة تزيد عن خمس سنوات ما لم تنس مذاقه حتى تحول إلى مرويّات شعبية تسير بها الركبّان ويجمعها كاتب كجينيغفر فيما بعد يعرف «بأساطير ملوك كوكو» الذي نشر عام 1944...

كما أن ثيرفانتس الذي عاش زمن استفحال محاكم التفتيش الإسبانية الجائرة كان يدرك ما كان يمثله بطلا بربريا مثل ابن القاضي بالنسبة للمخيال الشعبي الجزائري آنذاك، وكذلك بالنسبة لأطماع الإمبراطورية الإسبانية، ولكل أعداء إمارة بربروس من المسيحيين وعلى رأسهم البابا الذي كثيرا ما راهن على فرسان الصليب أن يبشروه، في يوم ما، بقتلهم لخير الدين وتعليق رأسه على إحدى صواري الأجفان البحرية، لذا لم يتوجس ثيرفانتس خيفة من استحضار مسلم كافر، ومناهض للمسيح والمسيحية في عمله الأدبي الذي طبقت شهرته الآفاق؛ إنه في آخر الأمر إشهار لأحد التجرّئين على هيبة وجبروت سيّد البحار خير الدين بربروس؛ وفي هذا التجرؤ من الأمل الذي ينبئ بنهاية لهذا الذي شهد له بالانتصارات عرّاف بجاية ابن القاضي الجد من قبل أن يصل إلى سواحل الجزائر.

إذا؛ يمكن اعتبار جزائر القرن السادس عشر الميلادي شاهد إثبات على ميلاد رواية عالمية مدهشة، طبقت شهرتها الآفاق منذ صدورها لأول مرة عام 1605، وهي رواية «دون كيشوط دي لا منتشا»، وكذلك شاهد إثبات على ميلاد جمهورية، وأقول جمهورية؛ لأنّ اختيار حاكمها خير



الدين آنذاك كان بإرادة شعبيها ؛ وهي جمهورية مسلحة ذات منهاج ديني، تناضل عن يقين إيماني راسخ ضد قوى الأطماع والهيمنة التي تظهر مرة باسم الصليب، ومرة باسم العداوة العرقية، وأخرى باسم الانتقام لحقب تاريخية عاشتها المنطقة رغم إرادة شعوبها وذلك منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي.

لقد كان في انضمام إمارة الجزائر على عهد خير الدين بربروس كإيالة للخلافة العثمانية إيذانا بالدخول في مرحلة تشبه ما درجت عليه إمارة رودس من قبل ؛ فهؤلاء كان من ورائهم البابا وممالك أوروبا وإماراتها، وخير الدين كان من ورائه الإمبراطورية العثمانية لكن يبقى ما يميز جمهورية خير الدين عن إمارة رودس هو اعتماد إمارته على إرادة شعبية، والتي من خلالها استمد شرعيته أثناء توليه عليها، وقبل أن يكتسبها من الحماية العثمانية، كما أنّ موقعها الجغرافي جعلها تكون - إلى حد ما - بعيدة عن بؤرة الصراع الساخن السياسي والديني في تلك الفترة، يضاف إلى ذلك تمتع إمارته بما يشبه الاستقلال في حرية القرار والممارسة الميدانية، لكن يبقى في الختام القاسم المشترك الواضح بين الإماراتين والمتمثل في مبدأ الحرب الدينية قبل غيرها من الأهداف وكفاية في حد ذاتها من أجل البقاء والهيمنة.

إنّ الجمهورية الدينية والعسكرية التي شيدها الأخوين بربروس في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت بمثابة الإعلان الميكر عن نشأة الدولة الجزائرية الحديثة ؛ لأنّ الفضل في رسم معالمها الجغرافية الثابتة - تقريبا - إلى يومنا هذا يعود إلى نضال خير الدين بربروس وجهاده، وهو الذي جعلها تمتد شرقا إلى مشارف بونة وغربا إلى حدود وجدة، ويعتبر في رأينا المؤسس الأول، أو واضع اللبنة الأولى لميلاد الدولة الجزائرية ؛

وقد يضاف إلى هذه الحقائق التاريخية الكثير من الشواهد الوارد ذكرها في هذا المخطوط، فهي وحدها تشكل شهادة إثبات على احتضان الشعب الجزائري، ممثلاً في سكان الجزائر آنذاك وما جاورها شرقاً وغرباً، لهذا الرجل الفذ الذي يقال له خير الدين بربروس، والذي كان في مستوى المهمة التي من أجلها استنهض من قبل سكان الجزائر، فلم يخيب ظنهم، ولم يقصر في فداء الجزائر بأعلى ما عنده من إخوة، ورجال انتقل بهم نقلة نوعية من اللصوصية البحرية في عرض المتوسط إلى محررين وبناء دولة ثابتة الأركان ومهابة الجانب، أو كما يقول الباحثان: Sander Rang وFerdinand Denis في كتابهما تاريخ الإخوة بربروس:

«... La ville d'Alger s'appelait toujours la victorieuse, et ses annales restaient fermées. Vol; 1, p :11

ويقولان أيضاً:

«...Une ville des pirates insolens, une grande défaite qui avait humilié jadis un empereur. Vol; 1, p: 11

ومن هناك حظيت الجزائر بتسمية المحروسة لأن العناية الإلهية وصلوات الأولياء والصالحين، ودعاء الفقهاء والمتبتلين جعلت الأسطول الذي لا يقهر لشارلكان وفرسان إيطاليا ومالطا، وبركات البابا تتكسر كلها على صخور تمنفوست على مرأى ومسمع من العالم كله في يوم من أيام شهر أكتوبر عام 1541؛ وعلى إثر هذه الحادثة، المعجزة، «... انتشرت بين الناس شائعات وخرافات لا تحصى ولا يعدُّ منها: أنهم شاهدوا جامع سيدي بتكا مُضاء في ليلة المعركة، رغم أن هذا الأخير قد مات منذ عدّة سنوات، كما انتشرت شائعات عجيبة تقول إن الولي دادا كان يتقدم في

البحر ضاربا السفن بعصاه التي رفعت الأمواج والفخار في الماء واحدة تلو الأخرى... وقالوا بأنّ مقابل كلّ صحن كان ينكسر تفرق سفينة، ورغم ما روي من خرافات وأساطير وقصص مثيرة إلا أنّهم لم يستطيعوا تصديق معجزة واحدة، الأكثر إعجازا من كلّ ما تصوّروه، وهي أنّ مدينة الجزائر قد هزمت أكبر جيوش المسيحية»<sup>(1)</sup>

---

1. كورين شوفالييه : الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510 - 1541) ترجمة جمال حمادنة، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص: 99.

## محتوى مخطوط سيرة المجاهد خير الدين بربروس

إنّ هذا المخطوط المجهول المؤلف<sup>(1)</sup> الذي يتعرّض صاحبه لسرد حياة المجاهد خير الدين بربروس، هو وثيقة نادرة تدلّ على أنّ مؤلفه كان على صلة بالأحداث التي عاشها خير الدين وإخوته، لكن ما يجعل مجال التخمين مفتوحاً على مصراعيه هو غياب اسم مؤلفه والذي وعد ناسخ هذا المخطوط في آخره بأنّه سيُمكنُ القُراء من معرفته حين قال في آخر صفحة من المخطوط «... انتهى ما وجد مقيداً والحمد لله، وسوف أذكر تاريخ الكتاب، وأذكر فيه أصل الكاتب بعد هذا إنشاء الله»، لكن لسوء الطالع يبقى هذا الأمل المرجوّ في حكم الغياب إلى يومنا هذا، وهو ما يجعلنا نلجأ إلى بعض القرائن والتّخمينات التي يمكن من خلالها معرفة المرحلة التي وضع فيها هذا المصنّف الهام والنادر.

لقد ورد خلال صفحات المخطوط العديد من الإشارات الدّالة على طبيعة المخطوط ومن أبرز هذه العلامات أنّ المخطوط الذي معنا اليوم يعتمد في أساسه على أصل مفقود قد كتب بلغة غير اللغة العربية بدليل قول مترجم هذا المخطوط «...وأما النّاحية الغربية فلم نر في الكتاب المترجم ما يدلّ على قيامها عليه...» ومثل هذا التّعبير لم نر في الكتاب المترجم ما يحيلنا على مبهمات أخرى لأنّ مدلول الكلام وكأنيّ به يقول: أنّ صاحب هذا المخطوط اعتمد بدوره على كتاب مترجم وليس الأصل، وإلاّ كيف يمكن فهم عبارة «لم نر في الكتاب المترجم ؟ هل يعني يا ترى الكتاب المترجم لسيرة خير الدين أم المترجم من لغته الأصلية ؟، الغالب

1. بعضهم يقول إنه من تصنيف حاجي خليفة أو هو من اهتم بترجمته .



على الظنّ أنّه يقصد الأصل الذي ترجم واعتمده صاحب هذا المخطوط لتقديمه لقراء العربية في لغة عربية وبالتالي يكون نصّ المخطوط الذي تقدّمه اليوم، هو ترجمة لترجمة اعتمدت الأصل المفقود إلى يومنا هذا. لكن بأيّ لغة تمّت صياغة هذا الأصل البعيد نسبيا عن المخطوط الذي معنا ؟ المؤكّد هو أنّها لا يمكن أن تكون اللغة العربية وإلاّ ما احتاج الأمر إلى الترجمة.

لقد ذكر صاحباً تأليف تاريخ بربروس كلّ من: Sander Rang و Denis Ferdinand أنّ كتاب غزوات خير الدين قد ترجم بيد ماهرة، وجاء قولهما كالآتي :

«Quoi qu'il en soit, le Gazwat Arroudj we Khair-ed-din (c'est le titre arabe de la chronique) , a été traduit par une main habile, et les notes nombreuses qui roulent sur la valeur de certaines expressions ou même sur les faits le prouvent d'une manière suffisant <sup>(1)</sup>

إذا فالأمر يتعلّق بالإشارة إلى أصل اعتمده مترجم غزوات عروج وخير الدين، وهذا المترجم ماهر ومتمكن، لكن هذه الترجمة الموقّعة على ماذا كان اعتمادها ؟ وما هي لغة النصّ المعتمد ؟. يظهر أنّها أسئلة تبقى في غياهب المجهول ما لم نحصل على هذه الترجمة أو النصّ الأصلي، ومن هنا يكون المخطوط الذي تقدّمه للقراء العربيين لأوّل مرّة هو ثالث المحطّات بالنسبة إلى أصله ؛ ويمكن أن يكون الأصل بلغة كان يجيدها خير الدين وعروج آنذاك ولعلّهما انتدبا لسرد أخبار غزواتهما أحد الكتاب البارعين في السّير والمغازي وقد أشار المخطوط الذي معنا مرارا إلى دراية عروج بلغة الرّوم أو اللغة «الفرانكا» التي تعتمد في تلك الجزر التي تعكس بؤرة الصّراع الديني الدائر بين مختلف الأطراف المتنازعة آنذاك، فجاء

1. Histoire des Barberousse, vol. 1, p : 9.

في المخطوط: «... وكان عروج عارفا بلسان الرومي، ماهرا فيه، وكان النصارى يجتمعون عليه ويتعجبون من معرفته بلسانهم وإتقانه له»، لكن لا ندري هنا من أين تأتي لهم مصدر العجب؛ فعروج وإخوته من أم مسيحية وأب يوناني ولا شك أنهم ورثوا أبنائهم لغتهم الأصلية، يضاف إلى ذلك أن المحيط الذي عاش فيه الإخوة بربروس هو محيط مسيحي ولغاته أوروبية فمن غير المعقول أن لا يجيدوا بعض هذه اللغات؟ وقد لاحظنا من خلال المخطوط أن خير الدين بالرغم من طول إقامته بالجزائر فإن مخاطباته للملوك والسلاطين ظلت تعتمد اللغة التركية، ومن هنا فالاحتمال أن أصل هذا المخطوط يمكن أن يكون قد كتب بلغة أم أو والد خير الدين وترجم إلى لغة الخلافة، أي اللغة التركية فيما بعد ومنها إلى العربية بعد استقرار خير الدين الطويل بالجزائر وكذلك ابنه الوحيد المذكور في هذا المخطوط الذي يشير إليه بالقول: «... وكان لخير الدين ابن يعرف في زماننا مولاي حسن»؛ فهذا الابن الذي تولى بعده الحكم بالجزائر لم يكن يفصل بينه وبين والده الزمن الطويل، كما أن صاحب هذا المخطوط يؤكد في السياق أن صياغته كانت في زمن مولاي حسن وبالتالي فالمحتمل أن يكون زمن ترجمة هذا المخطوط عن نسخة من الأصل قد تم في حدود أواخر القرن السادس عشر، ومن المحتمل أيضا أن يكون في الفترة التي حكم فيها حسن ابن خير الدين؛ وحسب رأي بعض المؤرخين فإن مولاي حسن قد «تولى منصب البايبراي لأول مرة عام 1544 إلى 1552... وبعد عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر على رأس البايك في أعوام 1557 - 1561 تفاوض مع ولد القاضي أمير كوكو... وفي الولاية الثالثة لحسن بن خير الدين التي بدأها عام 1562 طلب منه السلطان العثماني أن يستعد لمجابهة الإسبان في

الوطنية بباريس عام 1883-1895 والذي ورد فيه ذكر لهذا المخطوط الذي نحن بصدد التقديم له، حيث جاء في صفحة 338 التعريف بالمخطوط من طرف البارون دي سان كالاتي: «سيرة خير الدين».

Vie de Khair al-Din Barberousse. Cet ouvrage (qui n'est pas le même que celui dont la traduction française a été publiée par MM. Sander Rang et Ferdinand Denis, d'après un manuscrit de la Bibliothèque nationale), comme ainsi:

الخبر عن قدوم عروج راييس إلى الجزائر وقدم أخيه خير الدين بعده

Titre ornée d'arabesque de diverses couleur .

Papier. 114 feuiéts. Hauteur, 25 centimètres; largeur, 19 centimètres; 19 lignes par pages. Ms. Du XVI siècle (Supplément 85, 2bis) N° 1878; p :338.

ويظهر أنه فات بارون دي سان أن عنوان المخطوط مثبت في الصفحة الأولى لكنه داخل زخرفة توريقية يتعدّر معها فكّ رموز كتابتها، لكن بالدربة والممارسة ومعرفة أنواع الخطّ العربي يمكن قراءتها ؛ فداخل الزخرفة كتب بخطّ منمّق ومعشّق «هذه سيرة المجاهد خير الدين رحمه الله» وهو العنوان الحقيقي للمخطوط، أو ربّما تفادى البارون دي سان ذكر هذا العنوان لاحتوائه على كلمة «المجاهد» وهي من المصطلحات المنقّرة والمنبوذة بالنسبة للمسيحيين، ولا يمكن أن نستغرب هذا الصّنيع من البارون دي سان فقد سبق وأن عثرنا في هذا المخطوط على ما يشبه عملية التطهير له من اسم «محمد» صلى الله عليه وسلّم كلّما ورد ذكره، وكانت دلالة بقاء «صلى الله عليه وسلّم بمفردها ممّا يبيح على الغرابة والاستهجان لمثل هذا العمل المخلّ بالأمانة العلمية.

وإذا ما عدنا إلى الإحالة التي أوردها البارون دي صان فيظهر أنه فيها تأكيد واضح على وجود مخطوطين: واحد اعتمده الباحثان Sander Rang وFerdinand Denis - ولا أثر له اليوم - في كتابهما المنشور بهذا العنوان الطويل الآتي :

Fondation de la Régence d'Alger. Histoire des Barberousse; chronique arabe du xvi siècle, publié sur un manuscrit de la Bibliothèque royal, avec un appendice et des notes. Expedition de Charles- quint aperçu historique et statistique de port d'Alger orné de deux portraits d'un plan, par Sander Rang, officier Superieur de la Marine, et Ferdinand Denis .Tome 1 et Tome 2 .Paris .J. Angé. Editeur, rue, Guénégand, n°19 et la librairie oriental de Madame Dondey- Dupré. 1837. .

أثناء عودتي لهذين الجزأين وجدتهما يحيلان على ثالث معهما تكفل بترجمة النصّ المخطوط، وكثيرا ما أثبتنا تدخلاته أثناء وضعه لبعض الهوامش التوضيحية، فتجدها تثبت في الهامش ويذكر أمامها (note du traducteur) ممّا يدلّ على استعانتهم بمتّرجم جيّد لغة المخطوط الذي يؤكّد، كما سبق وأن ذكرنا بارون دي صان، على أنّه غير المخطوط الذي نعتمد في هذا التّحقيق والذي وجد هذا الأصل بدوره في المكتبة الملكية القديمة ببارس وبلغة عربية. هذا المترجم هو الذي ورد ذكره في كتاب «كورين شوفالبيه» إذ يذكر: «وفي القرن السادس عشر فإنّ الوثيقتين الوحيدتين اللّتين اعتمدنا عليهما هما: غزوات خير الدّين التي ترجمها «فونيور دوبارادي» ونقّحها ساندر رونغ وفارديناند دانيس ... فالوثيقة الأولى هي وثيقة تاريخية - يقصد سيرة المجاهد خير الدّين - كتبت بأمر من بربروس، والتي هي عبارة عن مدح وإظهار قيمة الجانب

التركي.»<sup>(1)</sup> لا ندري من أين استنتج شوفالييه مثل هذه التّخمينات ؟ من المؤكد أنّها من الأفكار المعشّشة في رأسه بالوراثة، وإلا فمن قال له أنّها كتبت بأمر من ببروس ؟ أو فيها إظهار للجانب التّركي ؟...

يظهر من خلال معاينتنا لكتاب الباحثين السالف الذّكر أنّ مترجمهما قد اعتمد على نسخة خطيّة مكتوبة بالعربية، وأنّها تتشابه إلى حدّ كبير مع النّسخة الخطيّة التي نعتمد عليها في هذا التّحقيق اليوم وإن كانت نسختها يتوقّف سير أحداثها عند صفحة 108 من المخطوط الذي معنا، كما أنّ عمل الباحثين اقتصر على التّوثيق الضّافي الذي جعل من كتابيهما يصدر في مجلّدين ضخمين كان عدد صفحات الجزء الأوّل 346 صفحة، وعدد الجزء الثاني 424 صفحة، وهنا تكمن أهميّة هذا الكتاب الذي نرى أن لا غنى عنه حين يتعلّق الأمر بالبحث عن حياة وسيرة خير الدّين بربروس.

1. كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510 - 1541، ترجمة جمال حمادنة، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص: 6.

ملاحظة: بالمناسبة أسجّل تحفظات كثيرة على هذه التّرجمة التي من بين أخطائها الفادحة على سبيل المثال لا الحصر ذكره في صفحة 10 ... فإنّ سقوط مملكة النازريد «لاندرى ما يقصد بهذا سوى لكونه يجهل أنّ المؤلف يعني «مملكة التّصريين وهي مملكة غرناطة، وقوله في صفحة 33 «بتدخل من الولي المسلم سيدي عبدالرحمان خليفة عالم اللاهوت، والمقصود عالم الدّين أو الفقيه، وصفحة 29 وغيرها حين يسمّي كارا حسن والأصح كدية، وهي كلمة تستعمل في اللسان الدارج عندنا، والخطأ الفادح في صفحة 9 حين يقول إمبراطورية الزيبانيين وإمبراطورية الحفصيين، فهل يقل هذا ؟ منذ متى كانت الدولتان الصغيرتان إمبراطوريتان ؟ أو يذكر في صفحة 19 وهو يتحدّث عن التجمعات السكانية التي كانت تقطن الجزائر والذي من بينهم الوافدين من خارج الجزائر والذي يطلق عليهم «البرانية» وهي كلمة لا تزال تستعمل إلى يومنا هذا فيترجمها «البيبراني»<sup>9</sup>، ودائما عن السكان العرب والذين ذكروا بالفرنسية بصيغة الجمع فيترجمها هذا المترجم الدّخيل عن الترجمة قائلا: «العرب» حتى ينطق حرف S، الدال على الجمع، وغيرها من الهفوات الفادحة التي لا تحصى ولا تعدّ.

## محتوى المخطوط

يأتي هذا المخطوط النادر<sup>(1)</sup>، الذي لا نريد أن نلخصه، ليرسم سيرة أحد المشاهير في عالم البحار في القرن السادس عشر الميلادي، ويؤكد هذا المخطوط على أن الأخوين بربروس هما حقيقة تاريخية كانت فاعلة في أحداث عصرها، ويفرد هذا المخطوط لسيرة وجهاد خير الدين الحيز الأكبر؛ فالكتاب جاء على شكل كتاب تكريمي لصانع الانتصارات المبهرة طوال أربعين سنة من حياته، كلّها انتصارات، وكلّها عمل واجتهاد توجت بإنشاء دولة الجزائر التي صارت تنعت في الحوليات التاريخية «بدار الجهاد» و«بعشّ لصوص البحر» من طرف أعدائها، أو «المدينة الدولة» التي انكسرت على صخرتها الأساطيل الإسبانية وأطماع القراصنة الجنوبيين وغيرهم.

لقد ظهر خير الدين من خلال هذا المخطوط ذلك الرجل المقاتل الذي حنّته التجارب والحكيم الداهية، والمؤمن الخاشع الذي تلهمه فيوضات السماء فيستجيب لنداء الشرع ويلبّي نداء الجهاد حين يستصرخ به الضعفاء من المسلمين المأسورين في أعماق البحار، أو الجزر النائية، أو في أرض الأندلس المسلوقة من طرف محاكم التفتيش؛ فكان حال المورسكيين فيها كما يقول صاحب كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين» المعاصر لأحداث الإبادة: «... ثم ذكرت كيف كان حال المسلمين بين النصارى - يقصد الإسبان - بعد أن أدخلوهم - كرها منهم - في دينهم، وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس؛

1 - يبدو أن الأستاذ نورالدين عبدالقادر قد اعتمد على هذه النسخة لما نشر غزوات خير الدين سنة 1934 في طبعة حجرية رديئة.

إنّ ما ورد في هذا المخطوط، الذي دوّنت أحداثه على أرض الجزائر يكشف عن صفحة من صفحات النضال والجهاد الذي درج عليه الشعب الجزائري منذ فجر التاريخ، وبخاصّة حين تتاح له فرصة القائد الملهم، والدليل الواعي بمقتضى المسؤولية، من هنا، فإنّ هذا المخطوط سيجعل الكثير من الذين سيطلعون عليه يغيّرون الكثير من قناعاتهم، كما أنّ هذا المخطوط سيعرّفهم على شخصية قلّما يوجد الزّمان بأمثالها من حيث الصدق في الجهاد، والإيمان والإخلاص في العمل لوجه الله والأرض التي احتضنته وآوته وأمّرتهم ومكّنته من تحقيق حلمه الذي - ربّما - راوده منذ أن كان يجوب في زورقه المتواضع في مرافئ جزيرة رودس أو مدللي أو غيرها من الأماكن التي لقّنته حبّ البحر وزرقة السماء.

### قراءة شكلية في مخطوط «سيرة المجاهد خير الدين رحمه الله

يوجد هذا المخطوط حاليا في خزانة المخطوطات الشرقية بالمكتبة الملكية بباريس مسجل تحت رقم: 1878، ومذكور كما سبق وأن أشرنا في «كطالوق» المخطوطات الشرقية الذي أعدّه بارون دي صان عام 1883-1895، ويوجد ذكره في صفحة: 338.

نجد ونحن نفتتح هذا المخطوط في الصفحة الأولى بطاقة صغيرة ملصقة كتب عليها بالفرنسية:

Bibliothèque Nationale. (Atelier de reliure) cote: arabe 1878, ouvrage restauré le 12/12/1946. Volume de 114 pages, plus de feuillet «A» préliminaire, 28 juillet 1847.

- وجاء في الصفحة الثانية باللّغة العربية :



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله  
اللهم صلّي وسلّم على سيدنا

- وجاء في الصفحة الثالثة باللغة العربية على الجانب الأيمن :

دخل في ملك الفقير «الروصو» ؟

الترجمان بتاريخ أواسط رمضان عام 1255 هجرية.

على الجانب الأيسر :

الحمد لله دخل في ملك العبد الفقير الرمز له العزّ والتّشريف محمد

بن المرحوم سليمان الشريف وفقه الله آمين.

- الصفحة رقم واحد من المخطوط :

قسّمت هذه الصفحة إلى قسمين: القسم الأعلى جاء في شكل لوحة مزخرفة ومؤطرة بخطوط ملوّنة كتب في إطارها الأعلى: بسم الله الرحمن الرحيم، ثمّ زخرفة مشكّلة دائريا وملوّنة بالأصفر والأخضر والأحمر، وبعدها كتب: صلّي الله على سيدنا محمد وآله في، وهنا يمكن الإشارة أنّ محمدا كتب باللون الأصفر وهو المتبقي الوحيد في المخطوط لأنّ الذين أعادوا النّظر في المخطوط عمدوا إلى محو اسم محمد كلّما ذكر في المخطوط، ولا ندري سبب ذلك ؟.

داخل هذا الإطار المزخرف الذي كان طوله: 18 سم وعرضه 12 سم احتلّت وسطه زخرفة إسلامية تعرف بالتّوريق كتب في جنباتها الملك لله، العزّ لله، إن ينصركم الله، لا غالب لكم، أمّا وسطها الذي جاء على شكل نجمة فقد كتب في وسطه بخطّ أنيق ومزخرف «هذه سيرة المجاهد خير الدين رحمه الله» مع زهرتين على الجانب الأيمن والأيسر، وقد تعدّدت الألوان ما بين أحمر وأصفر ومذهب وأزرق وأبيض تشكّل تحفة فنيّة رائعة ومن هناك تعذّر على بارون دي صان قراءة عنوان الكتاب بداخلها.





أما النصف الثاني من الصفحة فقد بدأ فيه سرد سيرة الأخوين بربروس وضمّ سبعة أسطر لأنّ معدل أسطر المخطوط في كلّ صفحة كان 19 سطرا ابتداء من صفحة 2 إلى صفحة 112 بحيث يكون مجموع أسطر المخطوط المرصوفة بانتظام محكم: 2071 سطرا يضاف إليها 7 أسطر في الصفحة الأولى و11 سطرا في الصفحة 113 الأخيرة حيث ينتج عن ذلك 2089 سطرا الذي هو حجم المخطوط.

أما ما يمكن أن نقوله عن أسلوب المخطوط، ومدى تحكّم مؤلفه في البيان العربي فإنّه لا يرقى إلى مستوى المصنّفات العربية التراثية التي ألّفت زمن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وربّما عذر مترجم الكتاب هذا هو تقيّده بالأصل كمادة المترجمين والتّالي فكلّ حكم، مهما كان صائبا، فإنّه لا ينصفه وهو ما جعل أسلوب البيان العربي في هذا المخطوط يجئ مذبذبا لا يستوفي الشروط المعروفة، وهو ما اتّضح جليّا في الضّعف الأسلوبي واللغوي الذي حفل به هذا المخطوط، وقد يكون ذلك انعكاسا صادقا لمستوى ما آلت إليه الثقافة العربية آنذاك والتي باتت بدون حماية أوراخ يرعاها كما في عصورها السابقة. إنّ القرن السادس عشر الميلادي هو قرن انهيار الحضارة العربية الإسلامية وتراجعها الواضح على مختلف الأصعدة، ومن هناك لا يمكننا أن ننتظر كتابا في التّاريخ يكون في مستوى أسلوب ابن خلدون المرسل أو أسلوب أبو حيّان القرطبي أو حتّى الرّقيق القيرواني.

لقد جاءت سيرة خيرالدين مشابهة لكلّ كتب السّير في التّراث العربي الإسلامي حافلة كغيرها بالمتخيل والعجائبي، ومزج الواقعي بالغبيبي، وهو ما حدا بكلّ من الباحثين Sander Rang وFerdinand Denis أن يعلّقا

بالإجمال على المؤرخين العرب في قولهما : «...La critique lui manque, sans doute, comme à la plupart des auteurs orientaux. Dans le manuscrit, des evennement historiques se succèdent sans que l'auteur les ait divisés, et le récit marche sans interruption.

لكن هذا الكلام مبالغ فيه لأن المخطوط الذي معنا قد جاءت فيه العديد من العناوين، حتّى وإن ألقى بها النّاسخ أو المترجم في الهامش، إلّا أنّها تعبّر عن انتقال الأحداث، ويبقى جهد هذا المترجم واضحا في سعيه الحثيث إلى مجازاة البيان العربي ممّا ينمّ على ثقافة عربية متينة كان يتسلّح بها هذا المترجم العارف بتاريخ عصره وأحداثه المتشابكة، وتطويعه للغة العربية للتحدّث هن موضوع لم يكن من الموضوعات التي سبق للحوليات التاريخية العربية الإسلامية أن تطرّقت إليه ومهّدت السبيل فيه للمتأخّرين، ونعني بذلك موضوع البحر والقرصنة والأسر والاحتكاك المباشر بالتّصاري ومختلف أنواع الأسلحة المستحدثة والغريبة وغيرها.

لقد وّفّق هذا المترجم في بثّ الرّوح العربية الإسلامية في مدوّنته، وأخضها إلى نمط معروف في تاريخ الثقافة العربية ألا وهو أسلوب السّير والمغازي الذي عادة ما يمزج بين الواقعي والتمثيلي قصد بلوغ غاية التّشويق والإثارة لدى المتلقّي ؛ وهي غاية يمكن أن نجزم أن صاحب المخطوط ومترجمه قد بلغاها بامتياز كبير حتّى جعل القارئ وهو يتأمّل في سير الأحداث وكأنّي به يتابعها بصريا وحسّيا ؛ لقد تمكّن من إحراز عنصر التّشويق، وكأنّي بهذه السيرة كتبت لكي تتلى في الساحات داخل ثقافة الحلقة المفتوحة على الآخر، والتي من أهدافها كسر الحاجز الصّوتي

وفسح المجال للمدى البصري المتابع للأحداث والمتعلق بسيرها، مع الحرص على عدم انقطاعه عنها.

لقد حقق هذا المخطوط غايته المنشودة والمتمثلة في ممارسة السرد بأسلوب روائي يعطي للحاكم سلطة التحكم في الأحداث والذهاب بها إلى الهدف المنشود، وهي إقناع القارئ وشده إلى النصّ شدّ معاشة وتفاعل. وآخر ما يمكن أن نقوله عن هذا المخطوط، بالرغم من تعرّضه لخيانة مريبة متمثلة في محو اسم محمد (ص) كلما ورد ذكره، إلا أنه يبقى تحفة، كتب بخط مغربي رائع، ويوجد اليوم في شكل جميل بفضل الصيانة والترميم وعناية المشرفين على مثل هذه الكنوز المحفوظة في قصر المكتبة الملكية ببarris والتي يجد فيها الباحث كلّ أنواع التسهيلات الممكنة والحفاوة التي تليق بأهل العلم والمعرفة.



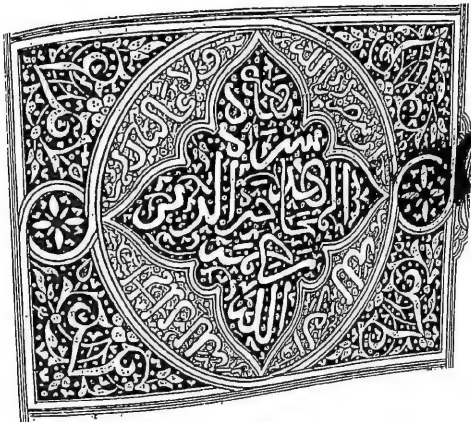
فلما كان صباح يوم الخميس تلخ الى الدار فبالنور ونبه واستشار رجلا كفيفا كثيرا الفصح الى الله  
 حية اخرى وقعدوا حاضرا من اخشاب شجرهم النعنع والاشجار ففعلوا غايها ولم يخطوا الى القرية  
 الا في هبة عليهم في سائر القري وصلوا على غلبهم واقتربوا منهم فثلا وانهم في الهاوية فثلا وانهم في سائر القري وصلوا  
 عندهم الى ان وصلوا الى المنقوشة فقام بها فلما كان في تلك الايام في كثر من الشجر العظام والتم خشاها  
 في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري في القري والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري  
 والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري  
 وعرضا الزبدة والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري  
 في الاماكن والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري

ه اشهر من وجوه في كثر والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري  
 ه اشهر من وجوه في كثر والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري  
 ه اشهر من وجوه في كثر والتم خشاها في ما يصير والجملة بنعمه وخلق الله كثرها من القري









الدفان الأصلي للكتاب  
هذه سيرة المجاهد خير الدين رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم  
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

الخبر عن خروج عروج راييس إلى الجزائر، وخروج أخيه خير الدين بعده، وذكر نُبذ من أخبارهما، وذكر غزوات خير الدين البحرية، وكيفية ذلك على التفصيل.

أصل هذين الرجلين من جزائر الروم يُقال لها مدللي Midilli<sup>(1)</sup> وذلك لما فتح السلطان محمد<sup>(2)</sup> جزيرة مدللي أودع فيها عسكريا برسم حراستها، وجعل عليهم راييسا منهم فبقوا في تلك الجزيرة مدة طويلة، فطلبوا من راييسهم أن يكتب إلى السلطان ويلتمس منه الإذن في نكاح بنات أهل الذمة الكائنات بالجزيرة المذكورة فأنعم لهم رئيسهم بذلك، وكتب إلى السلطان المذكور يستأذنه في ذلك فأجابه السلطان يوافق مَرادهم قائلا: من أراد من العسكر أن يتزوج فليتزوّج من شاء، ومن أبي من أهل الذمة يُجبر على

1. - ولد خير الدين بربروس سنة 1483 ميلادية أيام حكم السلطان بيلازيد Bayazid الثاني والذي جلس على عرش القسطنطينية عام 887 هـ / الموافق 1482 م في جزيرة مدللي المروفة باسمها اللاتيني Midilli (Lesbos ancienne, Métélin). ويقول صاحب كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية، الأستاذ محمد فريد بك المحامي والمنشور في مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر، الطبعة الثانية سنة 1912. وإن أصل خير الدين باشا من أروام جزيرة مدللي إحدى جزائر الروم (اليونان)، ص: 95. وتوفي خير الدين سنة 953 هجرية الموافق سنة 1546 ميلادية ودفن بجهة بشكماش على شاطئ البوسفور في الحقل المعد لمرسى الدونانمات العثمانية. انظر تاريخ الدولة العلية، ص: 100.

2. هو السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح ولد في 26 رجب سنة 833 هـ الموافق 20 أبريل 1429 وهو سابع السلاطين العثمانيين، حاصر القسطنطينية في أوائل أبريل سنة 1453 وأثناء الحصار اكتشف قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد حين حصار القسطنطينية في سنة 52 هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وبعد الفتح بنى له المسجد الجامع، وجرت العادة بعد ذلك أن كل سلطان يتولى يتقلد سيف عثمان الفاتح الأول بهذا المسجد. انظر كتاب: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 58 - 59.

ذلك ؛ وكان من جملة العسكر رجل يُقال له يعقوب<sup>(1)</sup> تزوج بنتا من بنات  
النصارى الذميات فرزق أربعة بنين : إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس<sup>(2)</sup>  
وترتيبهم في السن على حسب ذكرهم ؛ فكان عروج وخير الدين كثيرا ما  
يسافران في البحر ، فأنشأ كل منهما جفنا برسم التجارة ، وكان سفرهما  
غالبا إلى ثلاثة مدين أحدها : سناك (٩) <sup>(3)</sup> والثانية أكرپوز<sup>(4)</sup> والثالثة  
( ) <sup>(5)</sup> فسافر عروج في بعض سفراته إلى طرابلس الشام وحمل معه أخاه  
إلياس ، فلما رجع لقي جفنا من أجنان الكفار الغزاة من جزيرة روطس<sup>(6)</sup>  
فوقع بين الجانبين قتال عظيم واستشهد جماعة من المسلمين من جملتهم  
أخوه إلياس رحمة الله عليه<sup>(7)</sup> ، وطال القتال بينهما ثم آل الأمر إلى غلبة

١. يعقوب راييس رجل مسلم بسيط وطيب وصادق الإيمان (honnête musulman ...) اسمه باللاتينية Sipai Roumiliote Yakoub d'Yenidjewardar كان يمارس تجارة بحرية صغيرة في جزيرة مدلي ومن هناك تعلم أبناءه الأربعة اللغة الأجنبية والإبحار. أنظر كتاب:

Fondation de la Régence d'Alger, Histoire des Barberousse, chronique arabe du VXI<sup>e</sup> siècle, publié sur un manuscrit de la Bibliothèque royale, avec un appendice et des notes. Expedition de Charles-Quint, aperçu historique et statistique de port d'Alger, orné de deux portraits et d'un plan. Par Sander Rang, officier Supérieur de la Marine et Ferdinand Denis. Tome 1 et Tome 2. Paris. J. Angé. Editeur, rue Guénégaud, n: 19. Versailles, même Maison Librairie de l'Evêché, rue Satory, 28 et la librairie Oriental de Madame Dondey - Dupré; 1837. .

٢. - Ishak, Ouroudj (Horruc, Orot, Aruch Homichu) ; Khizr, Ilias)  
هكذا يسمون في اللغة المعروفة آنذاك Franques باللغة

٣. اسم مكان غير مفهوم في المخطوط، ص: 2.

٤. جزيرة إكريبوز (Negrepoint) Ile d'Egripoz). كانت تسمى جزيرة نجريونت وتسمى في كتب الترك أكرپوز مركز مستعمرات البناقة في جزائر الروم وتم فتحها من طرف العثمانيين سنة ١٤٧٠. أنظر، تاريخ الدولة العلية ص: 64.

٥. يياض في المخطوط، ص: 2

٦. جزيرة روطس اليونانية Rhodes هكذا يكتب اسمها في المخطوط، وهي يودس وتقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى يشق اسمها من لفظة (رودين) اليونانية ومعناها الورد، فتحها السلطان سليمان الأول الغازي سنة ١٥٢٢ م وكان بها تمثال عظيم يقال إن ارتفاعه كان يبلغ ثلاثة وثلاثين مترا هدمته الزلازل في القرن الثالث قبل الميلاد، تاريخ الدولة العلية، ص: 66.

٧. يقول مؤلف كتاب تاريخ بربروس Sander Rang et Ferdinand Denis في أحد المعارك التي جرت بين الإخوة بربروس وفرسان التنظيم الصليبي المسمى آنذاك Jean de Saint - les Chevalies de Saint Jérusalem (فرسان القدس حقا الأورشليمي).

الْكُفَّار فاستولوا على المركب وجملة من فيه من المسلمين، ومن جملتهم عروج رايس، فدخلوا بهم جزيرة رودس في بروز عظيم، وشهرة زائدة ... فإننا لله وإننا إليه راجعون.

فأنعم له الرومي بذلك وحمله معه إلى بعض الجزر يقال له «بودرون»<sup>(1)</sup> فقال له خير الدين: أجلس هنا واذهب أنت إلى جزيرة رودس، وتَحِيل على مُلاَقاة أخي ولا تُخبر أحدا بخبري، فإذا ظهر لك وجه الحيلة في خلاصة بمال أو بغيره فاعلمني بذلك. فذهب الرومي إلى الجزيرة ولقي أخاه عروج، وأبلغه سلام أخيه، وأعلمه بما هو عليه من القلق من شأنه فاستبشر بذلك عروج وفرح فرحاً شديداً وقال للرومي: أكتم هذا الأمر وارجع إلى أخي وقل له لا يهتم من حالي فأنا بحول الله وقوته أتَحِيل في خلاصي فليرجع إلى محلّه: وكان عروج عارفاً بلسان الرومي ماهراً فيه<sup>(2)</sup>، وكان التصاري يجتمعون عليه ويتعجبون من معرفته بلسانهم وإتقانه له؛ فتعرّف بكبراء الجزيرة وحصلت بينهما معرفة تامة وألفة من أجل اللسان فرغب منه عروج أن يشتريه من العظيم الذي اشتراه ويخلصه منها. فقال له الكبير المذكور: أفعل إن شاء الله، فتمهّل حتى إذا رأيتني جالسا في دكان كانوا يجتمعون فيه قُمّر علينا كأنك قاضيا حاجة.

فلما علم بجلوسهم في ذلك الدكان، جاز ذاهبا عليهم، فلما رآه ذلك الكبير ذاهبا قال لمن هذا الأسير الذي مرّ علينا الآن؟ فقال أحد العظيمين هو لي، فقال: هل لك أن تبيعه وأبذل لك في ثمنه قيمة وافية فإنه ليس

1. Boudroun (Port de la Caramanie à vingt lieues de Rhodes et vis-a vis de Stanco: Hist. de Barb. Vols :1, p: 4.

2. يلق صاحبها كتاب تاريخ بربروس Sander Rang et Ferdinand Denis قالان:

Aroudj dans ses voyages, avait parfaitement appris la langue franques .. الجزء الأول ص:

4. وقد سبق وأن ذكرنا أنّ أبناء يعقوب كانوا يعرفون هذه اللغة منذ صغرهم.

لي خديم؟ فقال له: إن أدت إلي ألف دينار فأنا أبتاعه منك؟ فاستكثر ذلك، فوَقَّ بينهما الحاضرون بثمان قدره خمسة وعشرون ألف درهم. فرضي بذلك. فقال شريكه الآخر: لا أرضى بذلك، ولكن خذ نصفها ويخلص لي الأسير. فضرب له شريكه مثلاً، وقال له: «شركة في عجل خير من الانفراد ببقرة ( )<sup>(1)</sup>» دعني من هذا الكلام، خذ نصف المال ويخلص لي الأسير. فرضي بذلك شريكه واستقل الآخر بملكية عروج. فوضع عليه قيوداً وجعله في مطمورة وضيق عليه غاية التضيق، وجعل عليه حارساً يحرسه ويتقعد أمره، فذهبت على ذلك الشأن مدة طويلة، فطلب عروج من حارسه أن يذهب به إلى مالكه ليتحدث معه ويفاوضه في خلاصه لتقع المرافضة في ذلك، فذهب به، فلما رآه استفهم الحارس عن سبب مجيئه به، فقال له عروج: أيها المولى ما مرادك بهذا التضيق الذي ضيقت به علي، وأي ذنب لي في ذلك؟ فأجابه: إنما فعلت ذلك لكونك أنك لم تتصف معي وسأضعف عليك العذاب، وأنديقك من ألوانه ما لم يسمع به أحداً فقال له عروج: بأي سبب أيها المولى تعذبني؟ فأجابه قائلاً: إنني سمعت أن أخاك قدِم إلى «بودرون» بمال كثير برسم فديتك فبعثت إليه وثنيته عزمه عن ذلك؛ لأجل ذلك أضعف عليك العذاب. فقال له عروج: ممن سمعت هذا الخبر؟ إنما هو زورٌ وافتراء وإن كان مرادك في بيعي فأنا أشتري منك نفسي بالثمن الذي تريد. ؟

١. يبايض في المخطوط بمادل كالتين. المخطوط، ص 3.

فقال له: أيّ ثمن تبذل في نفسك؟ فأجابه عروج: أبذل لك في نفسي إقليم «الرميلي»<sup>(1)</sup> كله ونصف أنبول<sup>(2)</sup> وذلك قليل في خلاصي من يدك، فلما سمع منه هذه المقالة قال له: يا شيطان التُّرك مع من تتكلم بهذا الكلام، وما الداعي لك حتى تواجهني بهذا الاستهزاء؟ أنظنّ أني لا أعرف شيئا من تكون أنت حتى تبذل لي إقليم الرّميلي ونصف الأناضول؟ هذان البلدان ليس لهما حاكم؟ فحينئذ قال له عروج راس<sup>(3)</sup>: أنت تكلمت معي بكلام لا يعقل، فأجبك بكلام لا يعقل. فقال له القبطان: يا شيطان، أنا كلمتك بكلام لا يعقل حتى يجيبني بمثله؟ فأجابه عروج بأن قال له يا قبطان: أنت أخبرتني بأن أخي أتى بمال كثير، وهو مُقيم بعجيزة «بودرون»، وهذا المال لم يحصل بيدي حتى أخلص نفسي منك به، والناس يقولون في المثال: «السّمك الذي لم يحصل بيدي حتى أخلص نفسي به، والناس يقولون في المثال: «السّمك الذي لم يحصل بيدي حتى أخلص نفسي به، وأنا واحد من جُملة الناس؟ فكيف تكلفني ما لا أطيعه، والناس يقولون في

1. Romélie هو إقليم الرُّوم أي المبود إلى بلاد القارة الأوروبية وهو ما يعرف عند الأتراك العثمانيين «الرُّوم إيلي» هذه الحركة أو التسمية لا تنطبق على بلاد العرب أو انتشار الأتراك في بلادهم لكن «إيلي» تنطبق على بلاد الرُّوم انطلاقا من القسطنطينية إلى الغرب باعتبارها وسيلة من وسائل نشر الإسلام: ففي عهد محمد الفاتح الذي أوصل حدود الإمبراطورية العثمانية غربا إلى الأديباتيكي وشرقا إلى الهضبة الإبرانية واضعا بذلك أسس الحكم العثماني في الأناضول والرُّوم إيلي، ونتيجة لهذا اعتبر محمد الفاتح لدى الكثير من المؤرخين والدارسين بالمؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية، لذا لُقّب بسيد الأرضين: الرُّوم إيلي Romeli والأناضول، والبحرين المتوسط والأسود... أنظر د. الغالي غربي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية في المشرق العربي. 1288 - 1916 نشر ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 2007 ص: 23.

2. كلمة غير مفهومة في المخطوط فهي تبدو أناضول وذلك حسب السياق الوارد. المخطوط، ص: 4.

3. يقول صاحب كتاب بربروس: On nomme Reis indistinctement tous les capitaines de navires et même les patrons de barques. L'importance du Reis depend de celle de bâtiment qu'il commande, sa racon et le double de celle d'un simple matelot, et quelquefois davantage selon sa reputation. Hist. De Barb. Vols, 1, p: 8.

4. في كتاب تاريخ بربروس ورد ترجمة المثال كالآتي: «La mer est remplie de poissons qu'on avait envie de pêcher»



المثال: إنَّ الدَّجاجة إذا مُسِكَت تضطرب وتسعى في خلاص نَفْسِها بذلك،  
أو ليس لي قُوَّة الدَّجاجة؟ وإذا نحن قد وصلنا إلى هذا المقدار الذي تُريده  
منِّي فأنا لست بآبن ملك حتَّى أبذل لك جميع ما تطلب منِّي؟ أنا رايِس من  
رياس البحر أعطيك على قُدري، وهذا المقدار العظيم الذي تكلفْت به عليَّ  
أَلله الذي أمرك به أم هو رأي من عندك؟

فلما سمع اللعين هذه المُرَاجعة منه، غضِبَ غضبا شديدا ودفع في صدره  
وصار يُرمِرمُ كالرَّعد، وأمر ببعثه إلى مَحْبسه وضاعف عليه ما كان فيه  
أولا من العذاب والتضييق؛ وكان في ذلك الزَّمان في مدينة «أضالية»<sup>(١)</sup> أخ  
للسلطان سليم يُقال له بِاللَّسان التُّركي فرفر؛ وكان له اعتناء تام بفقراء  
أسرى المسلمين وتخليصهم من يد الرُّوم؛ فبعث أحد خَوَاص خدامه  
إلى جزيرة رودس يرسم فداء الأسارى على ما جرت به عادته وأعطاه  
مقدار فدية أربعين أسيرا من أسراها، وعيّن له صاحب الجزيرة مركبا  
لإيصالهم إلى بلادهم، وكان من جُملة خَدَمَة المركب عرُوج رايِس تحت  
حُوطَة النّصارى.

فلما كان في أثناء سيرهم في البحر اجتمع عليه النّصارى أهل المركب  
واستمالوه إلى دينهم وراودوه على الرِّدّة والعيادُ بالله.  
وكان رجلا كامل الإيمان صحيح الإسلام، سَالم العقيدة من أهل السُنّة  
والجماعة، فاستشاط من ذلك غضبا، وقَبِحَ دينهم وما هم عليه من الكُفر  
والتثليث وتبرأ من الأديان كلّها إلا دين (٩)<sup>(٢)</sup> بن عبد الله عليه الصلوة  
والسلام.

١. أضالية: 8، p. 1، Hist. De Barb. Vols, I, p. 8.  
2. هناك ظاهرة غريبة في هذا المخطوط الذي تفرّض على ما يبدو إلى عملية تطهير بين قوسين وهو إخضاعه  
إلى عملية حذف إسم محمد (ص) من كامل المخطوط وترك البياض مكانه لكن السياق يؤكد اسم الرسول  
(ص).

فقال له: إن كان نبيك حقا قل له يخلصك من أيدينا؟ فقال لهم: يخلصني من أيديكم إن شاء الله، فاستهزؤا وتمادؤا على ذلك فعند ذلك أخذ في الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله عز وجل في كشف ما حل به من هذه الكروب، وتمادى بهم السير إلى أن دخلوا بعض المراسي فأرسوا بها مزكبيهم وبعثوا أقاربهم برسم صياد السمك فهال عليهم البحر وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم وانشغل كل واحد من أهل المركب بنفسه، فعند ذلك انتهاز الفرصة في خلاص نفسه وحاول كسر القيد الذي عليه فتأتى له ذلك بتقدير العزيز العليم.

قال الله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا»<sup>(1)</sup>، وقال عليه الصلاة والسلام: «اشتدتي أزيمة تنفجر»<sup>(2)</sup> فهذا له أن يلقي نفسه في البحر لينجو بذلك، فألقى نفسه، وساعده الله سبحانه وتعالى على الخلاص فوصل إلى الساحل إلى قرية من قرى النصارى وكانت قرية من ذلك المرسى<sup>(3)</sup>؛ وكان من عادة أهل هذه الجزيرة أنه إذا وصل إليهم أسير من أسرى المسلمين أووه وأخفوه عن الطلب رافة أودعها الله تعالى في قلوبهم، وعناية منه سبحانه تعالى بأسرى المسلمين<sup>(4)</sup>، فقصد إلى دار من دور أهل تلك الجزيرة فاجتمع عليه أهل تلك الدار وتكلموا معه وأجابهم بلسانهم - قد تقدم كان عارفا بلسانهم مجيدا له - فخفف على قلوبهم واستظرفوه فلم يسمحوا بذهابه إلى غيرهم.

1. وفي قوله تعالى: «ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا»، سورة الطلاق، آية: 3.

2. حديث نبوي أنظر ميزان الاعتدال ص: 203 وابن حجر لسان الميزان ج 2 ص: 1214 واللبوني ج 1 ص: 146.

3. كتبت المرسى في المخطوط هكذا، والمرصاء، المخطوط ص: 5.

4. تبدو ظاهرة ناسح أو نحسا لميلايتها من الوقائع من طرف سكان تلك الجزر المتناخمة للخطر الدائم بين المسلمين والنصارى من جهة ولصوص البحر والقرصانة من جهة أخرى، لأن هذه الرحلة قل فيها التسامح إلا ما ندر.

ولما سكن البحر عن أهل المركب، وأقلعت الأمواج عنهم افترقوا عروج من بينهم فلم يجدوه فأخبر رايس المركب وتدبر بعقله وظهر له أنه ذهب إلى تلك الجزيرة التي استقر بها عروج فبعث للطلب في إثره ثلاثة من زعماء<sup>1</sup> أهل المركب : فكان من الغرائب التي أبرزها الدهر أنهم قصدوا الدار التي بها عروج فلما دخلوها وجدوه بها وخيل لهم أن جماعة من المسلمين جالسين في تلك الدار فجعلوا يئبسون على فراره ويلومونه على ذلك.

فقال لهم في محاوراته إياهم: أنا لم أفر وإنما أخذت الإذن من رايس المركب مع من أخذ ووصلت إلى هذه الجزيرة بإذنه، ألم تروني حين نزلت إلى المركب، اذهبوا إلى رايسكم واعلموه بخبري فإن كنت كاذبا فأنا بين يديكم فافعلوا ما شئتم ؟ فبينهم وخلط عليهم ثم قالوا له: من هؤلاء الذين معك ؟ فقال: هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فلما سمعوا ذلك رجعوا إلى مركبهم وذهب عروج قاصداً بلاد المسلمين، وطار خبر خلاصه إلى جزيرة رودس واستفاض بها، فسمع بذلك الرومي الذي بعث أخوه خير الدين لتخليصه فذهب مبشراً أخاه خير الدين بذلك وأعلمه بكيفية ذلك فلم يصدق خير الدين بذلك واستبعد هذا الأمر غاية الاستبعاد، فحينئذ أقسم الرومي بدينه على ما أقسم به فبحث عن ذلك خير الدين فوجده صحيحا، فحمد الله على ذلك واثنى عليه فانتقل خير الدين من «بودرون» ورجع إلى مدينة «مدلي» واشتغل بالتجارة.

رجع خبرنا إلى عروج ؛ ولما قصد في سيره مدينة «أضالية»، فلما وصلها واستقر بها واستراح من وعناء السفر صادف بها رجلاً اسمه

1. جاء في كتاب تاريخ بربروس، ج 1، ص 111 أنه لم يبعث في إثره ثلاثة زعماء بل : Comes ( التوم ) وهم : «les esclaves chargés de ramer dans les galères composaient des Comes qu'on nomme la chiourme, les comes en étaient les conducteurs et les gardiens, les fonctions et le titre de come existe encor dans nos bagnes.

على راييس له جفن يريد به السفر إلى مدينة مصر، فالتمس منه عروج أن يجعله أخذ خَدَمَةَ المركب ويُسافر معه إلى مصر، فأنعم له بذلك لما تفرَّس فيه الجِزَاءَ على رُكُوب البحر، والرُّجَال تحرِصُ على أمثالها. فسافروا إلى مصر<sup>(1)</sup>.

فلَمَّا استَقَرُّوا بها وجدوا مركبا لصاحب مصر<sup>(2)</sup> وكانت في ذلك العهد في يده برسم السفر إلى موضع يقطع منه الخشب<sup>(3)</sup> لإنشاء السِّفْن، فأعطى صاحب مصر عروج مركبا من تلك المراكب يكون رَأيسا فيها ومُقَدِّمًا على جماعتها. فلَمَّا انتهوا إلى ذلك الموضع واستَقَرُّوا به هجم الإفرنج عليهم بحملة وافرة من مراكبهم، فجرفُوا مراكب صاحب مصر وفرَّ المسلمون بأنفسهم كما قَدَّمناه. فَلَقِيَهُ عروج وأعلمه بكيفية أحواله وما وَقَعَ له من الأَسْرِ، وكيف خَلَّصه الله مِنْهُ فَظَهَرَتْ مِنْهُ مَخَالِيلُ النِّجَابَةِ وَسَمَا لَهُ فِيهِ أَصْل، فَأَمَرَ لَهُ بِجَفْنِ فَرِكَبٍ فِيهِ برسم الغزو إلى ناحية رودس فَجَذَرَ مِنْهُ تُجَارُ النَّصَارَى حَذْرًا شَدِيدًا، فَذَهَبُوا إِلَى عَظِيمِ رودس وَرَفَعُوا شِكَاوَهُمْ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: لَا نَقْدِرُ عَلَى السَّفَرِ بِرَسْمِ التِّجَارَةِ مَا دَامَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ عُرُوجُ؛ فَإِنَّهُ قَطَعَ الْمَرَّ عَلَيْنَا، وَبَلَغَ الْخَوْفُ بِهِمْ إِلَى أَنْ هَرَبَ أَهْلُ الْحِرَاسَةِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى سَوَاحِلِهِمْ.

فلَمَّا سَمِعَ رَايِسُ الْجَزِيرَةِ بِهَذَا الْكَلَامِ بَعَثَ فِي إِثْرِهِ عَدَّةَ سَفْنٍ لِيُوقِعَ بِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي بَعْضِ الْمَرَاسِي إِذْ هَجَمَ عَلَيْهِ النَّصَارَى بِمَرَاقِبِهِمْ فَفَرَّ فِي الْبَرِّ مَعَ جَمَلَةٍ وَتَرَكَ لَهُمُ الْأَجْفَانِ وَرَجَعَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى «أَصَالِيَةِ».

1. الأصَحُّ إِلَى الإسْكَندَرِيَةِ.

2. صَاحِبُ مِصْرَ آنَذَاكَ هُوَ مَلِكُ الشَّرْقِ أَبُو نَصْرِ قَنْسُوسُ الْفُودِي الَّذِي بَعَرَفَ بِالشَّرِكْسِيِّ وَالَّذِي قَتَلَ فِي مَرْحِ

دَائِقٍ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ حَلَبٍ مِنْ طَرَفِ السُّلْطَانِ سَلِيمٍ وَذَلِكَ فِي 15 رَجَبٍ عَامِ 922 هـ/ 1514.

3. Hist. de Barb. vol. I, p. 14: «أنشُر... أخذ خُدَّانَ مَرَمَاتِنَا... dans un des golfis de la Caramanie...»

وتمكّنتم من الدّخول علينا فإن كانت لكم طاقة فلم تتكّلون علينا ؟ فوهم الغزاة في قوله وجعلوا ينظرون، فقال: ما لكم تنظرون إليّ قالقول هو ما قلته لكم وما أرادوا غيرها وأنتم أتيتم برسم الجهاد والعدوّ مقابل لكم فأخلصوا نيّكم لله سبحانه وتعالى وتوكّلوا عليه، فقد قال سبحانه وتعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين»<sup>(1)</sup> فحمي القوم عند ذلك ونهضوا لمحاربة عدوهم بالعزائم الوقّادة ورفعوا ألوية الجهاد وقصدوهم غير مكثّرين بهم، ورفعوا أصواتهم بالتكبير ولتقت أجفان المسلمين بأجفان العدو ووقع بينهما قتال عظيم فتصر الله حزبه وأيد أولياءه وأظفرهم بعدو الدين فغنموا أجفان العدو واحتوا عليها بما فيها، فعزم على الرّجوع إلى جزيرة مدلي بهذه الغنيمة ؛ وفي أثناء ذلك وقع بين السلطان سليم<sup>(2)</sup> وبين أخيه فرفر بعض ما يقع بين الملوك من العداوة والمنافسة، فلما قرّب عروج من جزيرة مدلي سمع بما وقع بينهما من الشنآن فخشى على نفسه من السلطان سليم لكونه من أصحاب أخوه فنتى عزمه عن الجزيرة وقصد في سفره مصر، فلما وصلها وجّه إلى سلطانها بهدية عظيمة ممّا احتوى عليه من متاع الروم وما ظفر به من نفائس أموالهم استجلاباً لودّه واستأذن منه أن يقيم ببعض مراسيه حتّى يذهب فصل الشتاء ويتأتّى له السفر في الربيع. فأنعم له بذلك وخيره في أيّ المراسي يريد، وشرط عليه وعلى جماعته أن لا تحصل منهم إذاية

1 - من قوله تعالى: «فلما فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلّا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلّا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين، سورة البقرة، الآية، 249.

2 - هو تاسع سلاطين بني عثمان حكم ما بين (1512 - 1520) أنظر من حوله كتاب: تاريخ الدولة العلية للأستاذ محمد فريد بك، ملحق، ص: 73.

لأخذ. فأقام فصل الشتاء في ذلك إلى أن انصرم ذلك الفصل ودخل فصل الربيع وطاب ركوب البحر فسافر مُتَوَكِّلاً على الله عزَّ وجلَّ مفنم في سفره، ثم ألقته الرِّيح إلى جزيرة جربة<sup>(1)</sup> من ناحية المغرب فأودع تعلقه هنالك وسافر إلى ناحية بلاد التَّصَارِي فَأَنكسَ عَدُو الدِّين نكاية عظيمة وغنم وسبى منهم شيئاً كثيراً.

### دخول عزوج إلى مدينة تونس

ثم دَخَلَ إلى مدينة تونس<sup>(2)</sup> ووجَّه إلى السُّلطان بهديَّة نفيسة ممَّا احتوات عليه يده من غنائم ونفائس أموالهم فقبِلَهَا ووقعت منه أحسن موقع. واستأذنه عَرَّوج بأن يُقيم في بعض مراسي بلادِه فَأُذِنَ له واشترط عليه، كما شرط عليه سلطان مصر؛ ومن جُملة ما اشترط عليه أَنْ يُعطيه خُمس الغنائم التي تحصل بيده من الكُفَّار، فَرَضِي عَرَّوج بذلك.

1. جزيرة جربة هي جزيرة تونسية تقع في الجانب الجنوبي من خارج قابس، قريبة من السواحل الليبية، يفصلها عن البرمضيق لا يتجاوز عرضه عن جنيتها الغربية على ساحل أجيم - الكيلومتري تقطعه الجسور العائمة - والجزيرة كلها تمتد نحو سِتِّين ألف هكتار (600 كلم / مربع. وقد عرفت من أقدم المصوِّد باسم جربة انجز لها من اسم أول قبيلة نزلت بها من قبائل ثاية البربرية ... أنظر كتاب «مؤنس الأحية» في أخبار جربة، تأليف محمد أورااس الجبري تحقيق محمد المروقي وتقديم حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية، تونس، 1960، ص: 31.

2. مدينة تونس - عرفت هذه التسمية على ما هي عليه اليوم أول ما عرفت في فجر الفتح الإسلامي لهذه البقاع بحيث أطلقت على المكان الذي توجد فيه العاصمة التونسية حالياً لأنَّ المسلمين كما يروى لما فتحو إفريقيا كانوا ينزلون بإزاء أو بجذاء صومعة ترشيش ويتأثسون براهب في دير هناك فراحوا يرددون في مجرى حواريهم أنَّ هذه الصومعة تونس، أي تبيت الأنس في قلب من يقيم بجوارها بحيث لا يشعر بالوحدة والقرية. وهناك رواية ثانية تقول بأنَّ العرب الفاتحين أثناء تمكنهم من هذا الوطن كانوا يقضون ليلهم في سماع أصوات الزَّهَّابِ المتجاورة من الكتانس فيستأثسون بها، فقالوا: هذه البقعة تونس بمعنى الأنس، ومما يلاحظ أنَّ الرواية الأولى تتفق مع الثانية على الأنس، لكن ابن ديفار يورد رواية لابن الشياط تقول: أنَّهم وجدوا زيتونة مفردة في موضع المسجد فقالوا: هذه تونس وسمى المسجد بجامع الزيتونة. وذكر غير واحد أنَّ لها خمسة أسماء: ترشيش، وتونس، وقيل تانس، والحضرة، والدرجة العلوية؛ فترشيش اسمها في القديم، وتونس حادثة لها واشتقاقه من الأنس، والحضرة لأنَّها حضرة سلاطين بني حفص، والخضراء لكثرة زيتونها ... أنظر الدكتور عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، نشر دار البعث بـتسطنطينة، الجزائر، سنة 1986، ص: 64-65.

وقد تقدّم أن السلطان سليم وقعت بينه وبين أخيه مُنافسة وتحاسد على الملك فأمر الإسكندر باشا بسطانجي<sup>(1)</sup> أن يُهيئ جُملة من الأجفان ويُسافر بها في تلك النّواحي فلا يقع بيده جفّن من أجفان المسلمين أو من النّصارى إلّا واستولى عليه حرصاً أن يقع أخوه بيده، فسمع بذلك خير الدّين فخاف على نفسه لكون أخيه كان من أتباع فرقر، فعزم على المجيء إلى ناحية المغرب فباع مركبه بخمسة وتسعين عبداً وذهب إلى ناحية يقال لها: بروز<sup>(2)</sup> فباع العبيد هناك، وقد كان عزم أن يذهب إلى ناحية «بلغار» برسم التجارة، فلمّا وصل إلى «بروز» اشترى جفناً صغيراً وحمل فيه من السلعة وذهب إلى بعض النّواحي لبيع تلك السلعة فتأتى له ذلك وباع بجُملة وافرة وصنع بثمنها جفناً على حسب مُقترحه وأودع فيها شيئاً كثيراً من عدّة الخشب التي تُصنع بها الأجفان، وكذلك أودع فيها شيئاً كثيراً من المقاذف وسافر إلى ناحية المغرب فكان من الاتّفاق الغريب أن ألقت الرّيح إلى جزيرة جربة فرفع تلك العدّة إلى الجزيرة وعرضها للبيع، وصادف دخوله إليها أن دخل أخوه عروّج في إثره «وقد يجمع الله الشّيتين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تلاقيا»<sup>(3)</sup> فاجتمع الأخوان واستبشّر كلّ واحد منهما برؤية أخيه، وحَمداً الله على ما تهيأ لهما من ذلك ( )<sup>(4)</sup> دُخول عروّج إلى تلك الجزيرة إنّما هو بسبب فعل رفع نقلته التي أودعها فيها أولاً، لا برسم لقاء أخيه ؛ لأنّه لم يكن له علم به، وهي غريبة من غرائب الدّهر فاتقّ الأخوان أن يذهبا إلى مدينة تونس ويقيما

1. Bostandji-Iskander-Pacha

2. اسم مكان غير مفهوم ولعله جزيرة أكريوز Ile d'Egripoz.

3. البيت للشاعر كثير عزة.

4. يباصر في المخطوط مقدار كلمة أظنها وكثرت المخطوط من: 10.



بها، ثم إن خير الدين باع ذلك الجفن الذي أتى به من إقليم الروم بمائة دينار واشترى جفناً آخر وشحنه بتلك العدة والمجاذف وذهب مُرافقاً أخاه إلى تونس؛ وكان صاحب تونس له رغبة في الغزاة وتشوّق إلى مقامهم عنده وانضمامهم إلى جماعته فتوجّها إليه بهدية عظيمة تليق بأمثاله من الملوك، فقبلها منهما وأكرم نزلهما وبالحفاوة بهما؛ فأقاما بمدينة تونس حتى انصرم فصل الشتاء ودخل فصل الربيع، وقد كانا صنعنا جفنين فاخرين فسافرا بالجميع على رسم عادتهما إلى ناحية بلاد النصراري، فغنموا مراكب الكفّار وشحنوها برجال البحرية، وبعد ثلاثة أيام من أخذهم هذا المركب غنموا مركبا آخر في نهاية العظم موسوقا برا ثم تبادوا في سفرهم فغنموا مركبا آخر موسوقا بأنواع المِلَف<sup>(1)</sup> الملون الذي يُذهب الأبصار، وأنكوا في الكفرة نكاية عظيمة وطار خبرهما في بلاد الكفّار؛ ثم إنهما رجعا بعد عشرين يوما من سفرهما إلى مدينة تونس، بما منحهم الله سبحانه وتعالى من هذه الغنائم، فسُرّ بذلك سلطان تونس سُرورا عظيما؛ وكان من جملة ما نأب كل واحد من الغزاة أربعة شفة من المِلَف ومائة ذراع من البز<sup>(2)</sup> الجيد وتسعة دنائير ذهبيا كبيرا، وهذا الدينار هو المُعَبَّر عنه بلسان الروم «بالظبلون»<sup>(3)</sup> فتمتّع الغزاة بهذه الغنائم وحصل بأيديهم مال كثير وحمدوا الله تعالى على ما أولاهم من هذه النعم. وأمّا الزرع فإنما تصدّقا به على ضُعفاء أهل تونس ولم يأخذا من ثمنه شيئا. فكثُر لهما الدُّعاء بسبب ذلك، ثم إنهما أدركا فصل الشتاء فأقاما هناك

1 - نوع من القماش الفاخر والناعم يليق بمعية القوم.

2. الحرير أو الصّياح.

3. الظبلون. ما زالت العامة عندنا بتسطينية ينطقونه «الديوني» وهو ستمائير ذهبية التي تشكر حروبا تتحلّى به النساء التستطنيات من الواحدة «ديونيق».

إلى أن دخل فصل الربيع فجهّزاً ثلاثة مراكب برسم الغزو وسافرا بمن  
معهما من الغزاة متوكّلين على الله عزّ وجلّ.

فلما كان بعد يوم وليلة من سفرهما لقياً مركبا عظيما من ناحية نابل<sup>(1)</sup>  
ذهبا إلى إسبانيا، دمرها الله، فيها زعيمان من زعماء إسبانيا، ومعهما  
في المركب ثلاثمائة من النصارى ( )<sup>(2)</sup> قريبهم خير الدين وأخوه، رمت  
النصارى بجملة من المدافع فلم يُصيبوا بها شيئا من المراكب وحماهم  
الله من إزائيتهم، ثم اشتدتّ بينهم الحرب ووقع بينهما قتال عظيم لا  
يمكن التعبير عنه، وواصل الغزاة الرمي عليهم بالنشاب حتى دَهِشَ الكفار  
من ذلك، ثم إنّ المسلمين أرادوا أن يهجموا عليهم فمنعهم الكفار من ذلك  
بألتهم الحربية من المكاحل<sup>(3)</sup> وغيرها.

تكرّر ذلك بين المسلمين وبينهم سبع مرّات؛ ثم إنّ المسلمين لاصقوهم  
وربطوا مراكبهم لأجل الهجمة عليهم، فقطع النصارى الحبل الذي ربطوا  
به المركب<sup>(4)</sup>، تكرّر ذلك منهم مرارا إلى أن هجم عليهم الظلام، وقد كان  
حصل للغزاة ضعف من كثرة الحرب، فلما وضع ضوء الصّباح هجموا  
عليهم مرّة أخرى، فلما علم النصارى أنّهم غير ناكبين عنهم أكثروا  
الصّياح والرّعاق<sup>(5)</sup> ليرعبوا بذلك المسلمين، فصمّ المسلمون عليهم  
وصدقوا الله في الهجوم عليهم، فكان من جملة محاورّة النصارى إياهم

1. مدينة تقع على الساحل الشرقي من بلاد تونس.

2. بهاض في المخطوط مقدار كلمة. المخطوط، ص: 11.

3. المكاحل تمنى البنادق.

4. سوف تتكرّر في هذا المخطوط الدقّة التفصيلية في وصف الأحداث ممّا يدلّ على أنّ صاحب الكتاب كان  
مرافقا لحملات الأخوين، وخاصة خير الدين، ومدونا لإنجازاتها البحرية والحربية وهو ما يجعل الاعتقاد  
بأنّ هذا التأليف هو بمثابة يوميات.

5. هو الضّراخ مع البكاء والنّحيب.

أنكم لا طمع لكم فينا ما بقيت فينا عين تبرق، فأجهدوا علينا جهدكم،  
فعند ذلك حمي المسلمون واشتدوا في حروبهم تارة بالمدافع وتارة بالمكاحل  
وتارة بالنشاب إلى أن دخل وقت العصر فكُل الفريقان من الحرب، ثم  
إن الله أفرغ صبره على طائفة المجاهدين وأنزل نصره عليهم فصدقوا  
الله في جهاد عدوه إلى أن طلبوا منهم الأمان، ففنيهم المسلمون وحصلت  
بذلك البشرية لطائفة الغزاة، وأما الكفار فحصل لهم من الأسف والحزن  
مالا مزيد عليه، وكان أول من هجم على مركبهم خير الدين، ثم هجم  
عليهم الغزاة وذلك دليل على شجاعته وإقدامه.

ثم إن خير الدين رجع إلى تونس بهذه الغنيمة العظمى، وبقي أخوه  
عروج في البحر فلم يرع أهل تونس إلا وخير الدين داخل عليهم بربروز  
عظيم وشهرة زائدة وخلفه المركب الذي غنمه، فدهش الناس من فعله،  
وتعجبوا من صنعه وتحققوا أنه لا نظير له في إقدامه وشجاعته، واهتز  
له السلطان وأهل دولته، وانشغل خير الدين بإنزال ما فيها من الذخائر  
والسلع فكان من بين جملة ما فيها: ثمانون بازيا من طيور الطير، وثلاثون  
صمصوما وعشرون من الكلاب السلوقية؛ وكان من عادة أهل تونس أنهم  
يلبسون أسارى الروم ثيابا حسناء وقلائس طولاً<sup>(1)</sup> ففعل بهم خير الدين  
على العادة؛ فأعطى لكل واحد من النصاري كلبا في يده، وألبس خير الدين  
رجاله ثيابا حسناء وأعطى لكل واحد بازيا في يده؛ فبألها من مناسبة  
حيث أعطى كل واحد ما يشاكلة. وكان من جملة ما خرج من المركب أربع  
بنات أكار من فتيات الروم، ولم يشاهد أحسن منهم خلقة، فألبسهن  
ثيابا حسنة تناسب حسنهن وجمالهن؛ وكان لزعيمي النصاري الذين

١. وهو ما يدل على حسن مآلهم لأسرى النصاري.

كانوا في المركب بستان من أحسن النساء خلقه فزينهنّ بزينة تناسبهما ؛  
فأما الأربع بنات فأركبهنّ على البغال، وأما البستان فأركبهنّ على جواد من  
عناق الخيل. وكم من ذخائر ونفائس من الأمتعة وجّهما، فبعث الجميع مع  
أحد خواصّه إلى حضرة السلطان، فكان ترتيب مسيرهم أن قدّم الأسرى  
وخلفهم طائفة الغزاة بألويتهم وطبولهم فكان مرأى عظيمًا ومشهدًا رائعًا.  
فسمع بذلك السلطان ففرح فرحًا شديدًا، وأمر أهل دولته وخاصّة وزرائه  
أن يتوجّهوا للقاء الهدية وللمجيء صحبتها ؛ فذهبوا كما أمر السلطان  
ولقوا القاصد الذي ورد مع الهدية وبالغوا في تعظيمه وإكرامه ورجعوا معه  
كما رسم لهم السلطان.

فلما وصلت الهدية إلى حضرة السلطان وقعت منه أحسن موقع، وشاهد  
منها ما لم يشاهده في أيام دولته، وكثُر ثناؤه على خير الدين وعلى جماعته،  
وقال: هكذا تكون الرجال. فأبلغ القاصد سلام خير الدين إلى السلطان  
ودعاه له يظهر الغيب، وأعلمه بما وقع لهم في هذه الغزوة، فتعجّب السلطان  
من ذلك وحمد الله سبحانه وتعالى على ما منّهم ويسّر لهم من أسباب  
الجهاد. وأما الغزاة الذين وردوا صحبة الهدية فإنّ السلطان خلع على كلّ  
واحد خلعة وجعل على القاصد خلعة تُناسبه وأوصل الدعاء لخير الدين،  
وبعث إلى خير الدين خلعة عظيمة مع القاصد الذي وجّهه صحبة الهدية،  
وتاجًا من تيجان الملك، وأكرم الغزاة الذين وردوا مع الهدية بألفي دينار  
ذهبًا، ووجّه إلى خير الدين مع رسوله كتابًا مُضمّن أنه أطلق يده في أجفانه  
البحرية يختار منها جفنا يليق به ليكون له حظًا من جهاده.

فوصل الرسول إلى خير الدين وأعلمه بما حصل للسلطان من الفرح  
والسرور، وبالكرامات التي أكرمهم بها، فامتثل أمر السلطان إلى باب

البحر واختار من الأجفان أحسنها، وقد كان بعض الرؤساء من رؤساء تونس طلب هذا الجفن من السلطان فلم يسمح له به، فاشتغل خير الدين بعمارتها وبعماره أجفانه المتقدمة.

### خبر عروج

وكان قد حصل له برحلات في البحر المتقدم فتماذى على سفره وهو جريح فطال عليه الأمر، وحصل له ألم شديد من تلك الجراحات فرجع إلى تونس ولقي أخاه بها فأخبره خير الدين بما فعل معه السلطان من الإحسان بحيث أنه صار معه بمنزلة الإبن مع الأب بمدينة تونس، وانشغل عروج بعلاج جراحه إلى أن حصل له البرء منها. وجاء فصل السفر المعهود فاستعدا له على رسم عادتهما وسافرا وقد طار خبرهما في بلاد الكفر، وكانوا قد سمعوا بأسر الزعيمين الذين كانا في المركب المتقدم فحصل لهم حزن عليهما، فاستشار الكفار فيما بينهم وقالوا إن بقي هذا الرجل على ما هو عليه من الغزو ولم تدارك أمره قطع علينا البحر، فهو على ما ترون من قلة جفانه قد فعل بنا هذه الأفاعيل فكيف إذا كثرت أجفانه وصار نحو الخمسة عشر جفنا أو ما يقاربها؟ فعمروا من الأجفان ثمانية وأودعوها من أهل القوة من رجالهم، وأهل المعرفة بالحرب وسافروا إلى ناحية جنوة<sup>(1)</sup>، فسمع خير الدين بهذه العمارة فأراد أن يسافر إليهم.

١. جنوة مدينة قديمة جداً يقال إنها أنشئت سنة 707 قبل الميلاد واستولى عليها الرمانيون سنة 222 قبل الميلاد وظلت تابعة لهم إلى غاية سقوط الدولة الرومانية، ثم تناوبتها أيدي القبائل المتبربرة إلى أن فتحها شارلمان الفرنسي المتوفى سنة 814 م واستقلت في القرن العاشر واتخذت التجارة مهنة وتنافست جمهوريتي بيشة المسماة الآن (بيز) والبندقية المسماة الآن (ففيصيا) وفي القرن الثالث عشر حازت بيشة وتولت عليها ولاشت تجارتها وأخذت منها (كورسيكا) ثم أعطاها ملوك الأروم بالأسنانة قربى، ديرة وغلمطة في ضواحي بيزنطة (القسطنطينية) ومدينة (تانا) ببلاد القرم ومدينة إزمير وغيرها ومن ثم وقعت المرافدة بينها وبرنطة<sup>==</sup>

## خبر غزو خير الدين لبجاية

وقد سمع بأن بجاية<sup>(١)</sup> أخذها النصارى من أيدي المسلمين، فظهر له أن يغزوها بمن معه من جماعة الغزاة، فسافر إلى ناحية بجاية وأرسى بقربها فرأى خمسة عشر جفنا من أجفان الكفار قادمة إلى بجاية، فخرج خير الدين ومن معه من الأجفان إلى البحر طالبا للفُسحة، فظن الكفار أنهم فرّوا منهم فحين توسّط خير الدين البحر جعل يُقلل في السير فاقتربت منه أجفان العدو وطمعت فيهم ورموا عليهم بجملّة مدافعهم، فحين اشتغل الكفار بمعامرة مدافعهم هجم عليهم المسلمون وشغلوهم عن الرمي فدهش الكفار من هجمة المسلمين عليهم.

وكانت جفان المسلمين التي قدم فيها أربعة، فأغرق عرّوج واحدة وأخذ خير الدين واحدة وفرّ الباقيون إلى مرسى بجاية. ثم إن خير الدين بعث الجفن الذي غنمه إلى تونس، ورجعوا إلى المرسى التي كانوا فيها يريدون بذلك انتهاز فرصتهم في عدوّ الدين. فظهر لعرّوج أن ينزل إلى البر بطائفة من الغزاة ليضرب العدو ببجاية فلم يساعده أخوه على تلك لرؤيا كان رآها قبل ذلك، فصمّ عرّوج على ما أراد فآخذ معه خمسين من

== البنادقة بسبب السيادة على البحار وحاربتها وانتصرت عليها مرارا وبقيت سيّدة البحار الشرقية إلى أواخر القرن الرابع عشر ثم أخذت في التقهتر شيئا فشيئا بسبب عدم انتظام أمورها الداخلية وتفرّقت كلمة أهلها فنقدت استقلالها وصارت تدخل تارة في حمى إسبانيا وأخرى في حمى فرنسا وطورا ترجع إلى استقلالها إلى أن احتلها الفرنسيون سنة 1796 وشكّلوها بهيئة جمهورية في السنة التالية وبعد سقوط إمبراطورية نابليون الأول في سنة 1815 ضُمَّت إلى لومبارديا وهي الآن تابعة إلى إيطاليا ... «أنظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص: 60.

١. بجاية مرفأ بشرق الجزائر وقد لعبت المدينة دورا كبيرا في تاريخ الجزائر. وكانت على الخصوص عاصمة دولة بني حمّاد الزيريين (405 - 547 / 1014 - 1152) وقد فشلت جهود بني زيّان كلّها لضّم المدينة لممتلكاتهم.

الغزاة ونزل إلى البر فلقبي مثل عدده من الكفار فاستأصلهم قتلا، ثم دنا من مدينة بجاية. فلما قُرب من حوز<sup>(1)</sup> المدينة رمى عليهم الكُتار فأصيب عروج في ذراعه<sup>(2)</sup> واشتد عليه الأمر بسبب الألم الذي حصل له، فسمع بذلك أخوه فبعث إليه طائفة من الغزاة ليأتوا به، فوصلوا إليه وحملوه إلى أخيه خير الدين؛ فحين وصل إلى أخيه خير الدين ازداد عليه الألم (3) قوي عليه الجراح فاجتمع رأي الأطباء على قطع يده ففعل<sup>(4)</sup> لهم خير الدين على ذلك وقال لهم: حياة أخي خيرا من موته؛ فقطعوا يده فزاد عند ذلك ضعفه، وكاد يشرف على الهلاك، فوصى أخاه وصايا من جملتها أن يكون سفره دائما في جفنه وأن لا يفارقه في هذه السفرة ليكون نظره عليه. فركب معه في جفنه واستتاب أحد جماعته في جفن آخر وسافر إلى ناحية جزيرة الأندلس.

وقد كان الكافر عدو الدين لما استولى على مدينة غرناطة<sup>(5)</sup> وأحوازاها بقي هناك من الأندلسيين<sup>(6)</sup> طوائف كثيرة فصاروا يعبدون الله خفية ولا يجهرون بالأذان ولا بقراءة القرآن خوفا على أنفسهم من عدو الدين<sup>(7)</sup>، فبقي خير الدين في تلك النواحي نحو الثلاثة أشهر ورفع<sup>(8)</sup> منها بعض

1. حوز جمع أحواز ضواحي المدينة.
2. أول حادث يتعرض له عروج فيقطع ذراعه بسببه.
3. بياض مقدار كلمة، المخطوط، ص: 14.
4. هكذا وردت العبارة في المخطوط ولعلها ساعدتهم أو وافقهم على ذلك.
5. المقصود هنا الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابلا ملوك إسبانيا واستيلاؤهما على إمارة غرناطة كان عام 1492.
6. - كاتب هذا المخطوط يكتب دائما «الأندلوس» مما يؤكد أن لهجته مغربية.. فعادة ما ينطق الجزائريون والمغاربة في لهجتهم كلمة الأندلس بالتمديد فيقولون «الأندلوس».
7. - هذه الطائفة من الأندلسيين الذين بقوا في أرض إسبانيا بعد سقوط غرناطة أصبحوا يعرفون في المصادر التاريخية باسم «المورسكيين» Los Moriscos. وأنظر كتاب: المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس للدكتور عبد الله حمادي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر والدار التونسية للنشر 1994.
8. يقصد أنقذ أو نجى من محاكم التفتيش، La Inquisicion. ويظهر أنها بداية السعي من طرف خير الدين

المسلمين، وغنم في أحوازها كثيرا من الكفار، ومن جملة ما غنموا جفنا صغيرا ؛ فبينما هو يوما في سفر إذ بصر سبعة من الأجفان فقصدهم وهجم على واحد منها فأخذوه فوجدوه مملوءا ذخائر وسلعا نفيسة فأرسله إلى تونس وفرّ الباقون إلى بلادهم. ثم إن الجماعة الذين فرّوا شكوا إلى الطاغية<sup>(1)</sup> ما حلّ بهم وما لأقوه من خير الدين ( )<sup>(2)</sup> له هذا الرجل يقطع علينا البحر لا محالة، فاستشاروا فيما بينهم وجعلوا يُدبرون كيف يمكن التخلص منه، وفي أثناء هذا فرغ ( )<sup>(3)</sup> الزّاد على خير الدين وكان بقربهما جزيرة يقال لها منورقة<sup>(4)</sup> فذهب إليها ؛ وكان من عادته أنّه يذهب إليها

بربروس لإتقاذ المورسكين الأندلسيين، وجهاز محاكم التفتيش أقيم بطلب من الملكين الكاثوليكين: إيزابلا وفرناندو، من البابا الكسندر السادس والذي منحهما لقب «الكاثوليكين»؛ فمحكمة التفتيش بإسبانيا أقيمت بمباركة البابا والذي بموجب هذه المحكمة يعود مصير كل المسلمين واليهود تحت رحمة الرقابة الصارمة الدينية. وقد عين البابا أول حاكم عام Inquisitor General لهذا الجهاز الدومنيكي Fray Tomàs de Torquemada الذي اشتهر اسمه واقترب يزق الأرواح على الشبهة الدينية والرفقة واللغوية، وخلفه كل من: الكاردينال ثيزنيروس Cisneros وEl Cardinal Jimenez de Deza الذي لم يتردد في حرق العباد أحياء وكذلك الكتب العربية الإسلامية بما فيها القرآن الكريم في الساحات العامة؛ فهو من أكبر من ارتكب من الجرائم في حق المسلمين الأندلسيين. ويعود للكاردينال ثيزنيروس الفضل في إنشاء جامعة Alcalá de Henares التي كانت قاعدة لحركة النهضة الإسبانية وكذلك مقر الجوسسة الدينية من أجل تطهير إسبانيا من الإسلام واللغة العربية والتقاليد العربية الإسلامية، كما يعود لها الفضل في نشر الإنجيل والترويج له.

1. لقد علق كل من Sander Rang et Ferdinand Denis على عبارة «طاغية» التي عادة ما يصف بها صاحب المخطوط ملوك التّصاري قائلين:

«... Ils nomment les rois chrétiens – Taghiet – c'est-à-dire rebelle à la fois, le seul titre que le roi de Maroc donne encore à plupart des princes européens en leur écrivant. Peu s'en est fallu que nous ayons en la guerre avec le sultan Mohammed, le père de celui qui règne aujourd'hui à Maroc, pour le forcer à donner le titre de Sultan au roi de France. Il voulait bien l'appeler et lui écrire Re de France, mais non pas sultan de France, ce ne fut qu'après plus de trois ans de négociations, qu'il consentit à lui reconnaître ce titre dans sa propre langue. (note de traducteur). Hist. De Barb. Vols. 1, p: 38.

2. بياض في المخطوط مقدار جملة محذوفة، المخطوط، ص: 15.

3. كلمة محذوفة، المخطوط، ص: 15.

4. جزيرة في البحر المتوسط، إسمها بالإسبانية Minorca. وتقع حاليا بإسبانيا وتقع بجوار جزيرة أخرى تسمى Mayorea. وجزيرة مينورقة هي جزيرة تدخل ضمن ما يسمى بجزر البلياريات تقع في غرب المتوسط وتشكل أرخبيلًا يغطي مساحة كبيرة تصل إلى 4900 كلم مربع يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة = = =



وبيع ويشتري مع أهلها ولا يضرهم أحد منهم، فأذركتهم الحمية لأهل دينهم والغيرة لهم لما فعل بهم خير الدين من الأسر والقهر فأرادوا أن يمكروا به والله لا يهدي كيد الخائنين، فأحس بالشر منهم وأقلع عنهم إلى بعض المراسي بقربهم وأقام بها، ثم إن الغزاة نزلوا إلى البحر فوجدوا أثر مرقد الغنم فاستدلوا بذلك على أن الكفار نقلوا غنمهم إلى الجبل، ونظروا إلى الأطراف يمينا وشمالا فظهر لهم بناء في بساتين الجبن وذلك لعظيم من عظماء الكفار، فعزم الغزاة إلى الذهاب إلى ذلك البستان فاستمروا جماعتهم فأمرهم، وجعلوا حارسا منهم على رأس الجبل ينظر إليهم وإلى الأجفان خشية هجوم الكفار على الأجفان، وذهبوا في ثلاثين رجلا إلى ذلك البناء، فعين قريبا منه تحصن في ذلك البناء من كان خارجه من النصارى فوقع بينهم وبين الغزاة قتال عظيم وآل الأمر إلى أخذه بعون الله تعالى وحسن تأييده فوجدوا فيه ثلاثة وأربعين من النصارى، واستولوا على ما فيه من الذخيرة؛ ومن جملة ما وجدوا فيه ثلاثة من الخيل لصاحب ذلك البناء، فركب خير الدين على أحد تلك

=== وتتكون من خمس جزر رئيسية هي: ميورقة ومنورقة وإيبيسا Ibiza وقرمنتيرة Formentera وبقيررة Cabrira هذا بالإضافة إلى حوالي مائة جزيرة صغيرة وكتلة صخرية تتناثر حول الجزر الخمس الكبرى، وتتميز هذه الجزر بموقع استراتيجي خلير بين سواحل شرق إسبانيا وجنوب فرنسا وغرب إيطاليا، وجزر سردينيا وقرسقة وصقلية وسواحل بلاد المغرب الشمالية. لهذا فهي بمثابة حلقة اتصال بحري ومركز صراع دولي وتقطعة للقاء حضاري منذ أقدم العصور... وتقع مدينة الجزائر على بعد 256 كلم إلى الجنوب من هذه الجزر بينما تقع برشلونة إلى الشمال الغربي منها على بعد 160 كلم... أطلق اليونانيون ومن بعدهم الرومان إسم بليارس على هذه الجزر وهي مشتقة من كلمة Ballein (بالين) اليونانية وتعني «ألق أو رمى»، وذلك لبراعة سكانها القدماء في رمي الحجارة بالثقل، وقد أطلق الرومان على كبرى جزر البليارس اسم مجرويقة Majorica أو مجورقة Majora أي الجزيرة الكبرى، وعلى الجزيرة التي تليها في المساحة اسم منوريكا Minorica أو منورقة Minorca أي الجزيرة الصغرى،... /... /... أنظر تفاصيل أكثر وأطلق العرب المسلمون على هذه الجزر أسماء كالجزائر الشرقية أو جزر شرق الأندلس... نشر دار العلم في كتاب الدكتور عصام سالم: «جزر الأندلس المنسية» (التاريخ الإسلامي لجزر البليارس)، نشر دار العلم للملايين، بيروت 1984 ابتداء من ص: 15.

الأفراس وحملوا على الآخرين بقية الأثاث، فعين قربوا الأجفان لقيتهم بقية الأجفان وقالوا له: أيها الرئيس<sup>(1)</sup> ما السبب حتى تخالفنا وتذهب بغيرنا إلى الغزو؟ فأبى أذنيه معك حتى تقابلنا بهذا؟ فلا بد لك أن تذهب بنا كما ذهبت بهم ويكون لنا من الأثر في الجهاد مثل أثرهم؟ فبعث من معهم من الأسارى والأمتعة إلى الجفن وذهب بأربعين من الذين تلقوه ومسك معه أسيرا من النصاري ليدله على الطريق ويريه الموضع.

وقال لذلك النصرائي إن دللتني على موضع نحصل منه غنيمة ننعم لك بالسراح ونردك إلى بلادك، فذهب بهم إلى غابة الزيتون، فجاوزوا تلك الغاية وساروا قليلا إلى أن رأوا نحو المائتين من الكفار جالسين في ناحية ( )<sup>(2)</sup> ولما رأى النصاري الغزاة دخلوا إلى بناء، فقصده المسلمون ذلك البناء وأخذوا في محاربتهم، فرأى بعض الغزاة فأسا مطروحا قرب ذلك فأخذوه واستعانوا به على الهدم، فعين أشرفوا على الدخول إليهم تذكروا أمر أجفانهم وخافوا من هجمة الكفار عليهم فعزموا على الرجوع، فسلكوا طريقا في ذلك البستان فرأوا جماعة من الكفار قاصدين إليهم برسم الحماية لجماعتهم المتحصنين فصاحوا عليهم يا شياطين الترك أين تذهبوا ونحن في طلبكم؟ وكانوا نحو الثلاثة مائة، وكان الغزاة قد أحسوا بمجيئهم، وكان الفرسان منهم نحو الستين والباقيون.

قال خير الدين لجماعته الغزاة: أنتم أردتكم هذا، ولو كان الأمر بيدي ما جئنا إلى هذا المحل، وهكذا عاقبة الطمع، فقالوا له: قد وقع وليس إلا

1. يقول كل من الباحثين Sander Rang et Ferdinand Denis إن كلمة رئيس تنفي ..on nomme Reis indistinctement tous les capitaines de navires et même les patrons. L'importance du Reis depend de celle de batiment qu'il commande, sa raçon et le double de celle d'un simple matelot, et quelquefois davantage selon sa réputation. Hist. De Barb. Vols. 1, p: 8.

2. هناك بياض في المخطوط مقدار كلمة. المخطوط، ص: 16.

مقاتلتهم حتى ينصرونا الله عليهم ونموت على آخرنا، فكبر الغزاة وأرادوا الهجوم عليهم، فلما رأى خير الدين كثرة الكفار وهم قاصدون إلى باب البستان قال لجماعته: إن من الرأي السديد أن نجلس لهم خلف الباب ونمنعهم من الدخول إلينا، فوقع اتفاقهم على ذلك، فلما اجتمع الكفار بباب البستان كبر المسلمون تكبيرة واحدة وهجموا عليهم فرأوا من حرب المسلمين ما لا قبل لهم به، فلم يسهّم إلا الفرار، ففروا بين أيديهم، فذهب المسلمون في إثرهم يقتلون ويأسرون وأسروا رايستهم، ورجعوا إلى أجنافهم بهذه الغنيمة، وهذه عادة الله تعالى مع من أخلص في جهاده من عباده؛ فحين وصل خير الدين إلى أجنافه وأمن على نفسه وجماعته استخبر النصاري المأسورين، وقال لهم: ما كان مرادكم أن تفعلوا بي حين أرسيت على جزيرتكم ميثورة؟<sup>(١)</sup> فإنه بلغني أنكم كنتم عازمين على المكر بنا من غير إذابة تقدمت منا إليكم، فما كان مرادكم أن تفعلوا بنا؟ فقالوا له: كان مرادنا أن نبعث ثلاثة عشر جفنا كأنهم خارجون برسم السفر، ونخرج لك عسكريا من البر فلا يبقون منكم أحدا فألهمك الله من الخلاص منا فكانت لك الكرة علينا، فقال لهم خير الدين: يا ملاعين أما تعلمون أن الغزو قبيح في جميع الملل؟ فقد أوقعكم الله في البئر التي حفرتموها لنا، وهذه عاقبة كل غادر.

ثم إن خير الدين أمر بعض الكتاب يكتب كتابا على لسانه مضمونه: «أنكم خنتم العهد وغدرتم بنا من غير سبب تقدم منا إليكم فأمكننا الله من رقابكم وأموالكم فانظروا ما صار؟ فما أنا صاعقة أرسلني الله إليكم وسترون عن قريب ما يحل بكم فأنا لا أنتهي عنكم حتى أدل رقابكم

١. سبق التعريف بهذه الجزيرة.

وأستعبد حرائركم، واستخدم بنااتكم وأحتوي على سائر بلادكم بعون الله تعالى». ثم إنه ختم الكتاب وجعله في عنق فرس من تلك الأفراس التي بها، وأرسله في الجزيرة ليقع بيد الكفار، ثم إنه ركب في أجفانه وسار إلى بعض المراسي وأرأسى بها. وكان مراد خير الدين أنه إذا اجتاز به بعض سفن<sup>(1)</sup> من بأحواز تلك المرسى.

وكان خير الدين سمع أن سفينة كبيرة من سفن «الجنوبيين» بصدد الخروج فكان يتشوّف إليها لتقع بيده، ولا يتعرّض للأجفان الصغار التي تمرّ به.

وكانت تلك السفينة لم يُساعدھا ریح، وصادف ذلك أن فرغ الزاد على خير الدين وجماعته من الغزاة، فرأى من الرأى السديد أن يعود إلى مدينة تونس، فصمّم العزم على الرجوع فصادف في طريقه أربعة من الأجفان فاستولى عليهم فوجد فيهم زادا كثيرا، وسلعة كثيرة وأسیر جماعة منهم وبعضهم هرب في البحر في بعض القوارب، والبعض ألقى بنفسه في البحر فهلك، وقد كان النصارى، دمرهم الله، عمّروا نحوثمان مائه سفينة بالعدّة برسم لقاء خير الدين والاستيلاء عليه، فأرسلوا ببعض المراسي حتّى يتكامل عددهم، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم النصارى الفارين من خير الدين في القوارب، وشكوا إليهم ما حلّ بهم، وكيف استولى عليهم، فقام زعيم النصارى وقعد من أجل ذلك، وأقلع عن تلك المرسى قاصداً خير الدين وجماعته من الغزاة المجاهدين، وأقسم اللعين أنّه لا يُفارقہ إلا بعد الاستيلاء عليه، فتصدّى لغارتهم أحفان المسلمین حين لاح ضوء الصباح، فلمّا رأى المسلمون لم<sup>(2)</sup> لهم لكثرتهم، وذهبوا إلى بعض

1. كلام غير مفهوم يظهر كأنه جنوة ويعدّها كلمة غير مقروءة. المخطوط، ص: 17.  
2. كلمة غير مفهومة وتنبو، أن لا ملاقة.

النواحي قال النصارى فيما بينهم: ألا ترون إلى شياطين التُّرك كيف هربوا منّا فلا بدّ لنا أن نذهب في إثرهم فضمّموا على أتباعهم ؛ فلمّا أدركوهم ورأى خير الدين أن لا محيد له عنهم توكل على الله وعطف عليهم فوقع بينهم حرب عظيمة تارة بالمدافع وتارة بالمكاحل وتارة بالنشاب إلى أن أنزل الله صبره على الغزاة فكان من إقدام خير الدين وجماعته أن قصد الجفن الذي هو لكبير النصارى وربطوه بجفنفهم وهجم عليه هو وجماعته فاستولى عليه ونكس راية الكُفر ونصب راية الإسلام<sup>(١)</sup>. فلمّا رأى ذلك بقية النصارى دهشوا وعزموا على الفرار ؛ ثم إن جماعة الغزاة لما رأوا عزم الكُفار على الفرار فطلقوا بلسان واحد: الله الله، وذهب اثنان من الأجفان في إثرهم: وكان خير الدين رفع أسرى الرّوم إلى جفنه وجعل عشرة من أصحابه في جفنفهم يرسم حراستها، وألح الأجفان في طلب بقية أجفان النصارى، فلمّا رأى أهل الأجفان من النصارى انقطاع الجفنين عن خير الدين عطفوا عليهما وكانت أجفان النصارى سبعة، وجعلوا جماعة كل جفن من الغزاة في الطبقة السفلى منه ورفّع أسباب الجفنين إلى مراكزهم.

وكان خير الدين قد تبع الجفنين بمن معه، فلمّا رأى ما وقع على الجفنين من النكبة، وكيف استولى الكُفار عليهما ثار به أقوامه وحزمه ودخلته الحمية لجماعة المسلمين الحائرين. فلمّا أبصر الكُفار خير الدين في إثرهم علموا أنهم لا طاقة لهم به فقرّوا بين يديه وتركوا له الجفن فاستولى على الجفنين من أيدي الكُفار وأخرج المسلمين ممّا كانوا فيه من الاعتقال. فلمّا رأوا ذلك بهتوا من شجاعة خير الدين وأقوامه وتضاعف حبه في قلوبهم ( )<sup>(٢)</sup> لقد هلك في هذه الحرب جماعة كثيرة من المسلمين أكرمهم الله بالشهادة وفازوا بالحظّ الوافر من الأجر والسعادة.

١. لا ندرى كيف كان شكل راية خير الدين في ذلك الوقت، وقيل أن يصبح تحت الإيالة العثمانية ٩.

٢. بياض مقدار كلمة، المخطوط، ص: ١٨.

فلما جاء فصل الربيع اشتاق الغزاة إلى الغزو<sup>(1)</sup>، وحنوا إلى جهاد الكفار<sup>(2)</sup> كان خير الدين استخلص لنفسه سبعة أجفان وسبعة أجفان لباقي الناس، فسافر في أربعة عشر جفنا، فبقي مدة في البحر لم يُصادف أحداً من الكفار فأنتهى به السير إلى أن أرسى على بعض جزرهم وأنزل الغزاة في البر فتوجهوا إلى حصن للكفار هنالك وأحاطوا به من كل ناحية، وشرعوا في قتالهم إلى أن يسر الله عليهم فتحه وغنموا جميع من فيه من الكفار، فوجدوا فيه ألفاً وثمانمائة كافر، فوزعوا الأسرى على خدمة الأجفان على اختلاف أنواعها، وأما البنون والبنات فقسّمهم على الغزاة؛ ثم إن الأسارى طلبوا من خير الدين الفداء وتوافقوا معه على ألف دينار من النحاس مطبوعة لكل واحد منهم، فقبض منهم ذلك المال المقرر وسرّحهم إلى جزيرتهم وخرج مسافراً بعد إقامته مدة في تلك الجزيرة، فظهر له جفن من أجفان العدو فقرّر الجفن أمامه يطلب الخلاص لنفسه وتبعه خير الدين إلى أن حال بينهما الظلام فغاب عنه ولم يدر أين ذهب، فأمر خير الدين بمشعل في جفنه ليقفوا أثره بقية أجفانه في الظلام كما هي عادة أهل البحر.

وكان في تلك الناحية أربعة أجفان للعدو، فلما رأوا قتيل الجفن تبعوهم ظناً منهم أنه من جملة أجفانهم، فكان كالباحث على حتفه والجادع<sup>(3)</sup> لأنفه، فلما لاح ضوء الصباح نظر خير الدين إلى أجفان العدو بقربهم فصمم نحوهم، فلما رأوا أنه غير تاركهم لا محالة، وقد تحققوا

1. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدولة العلية: «... واستمر عروج وخير الدين في حرفتهما وهي أسر مراكب

المسيحيين التجارية وأخذ كافة ما بها من البضائع وبيع ركايبها وملأ حياها بصفة رقيق». ص: 95.

2. بياض مقدار كلمة، المخطوط، ص: 19.

3. القاطع لأنفه.

أنه خير الدين ألقى الله الرُّعب في قلوبهم وثبَّطهم على القتال، فلما قُرب منهم وأراد الهجوم عليهم طلبوا منه الأمان فاستولى عليهم، فوجد هذه الأجفان مملوءة شدائد الملف<sup>(1)</sup>، وكان عدتها ألف شدة.

وكانت هذه الأجفان ذاهبة إلى بلاد الإفرنج، ففرح خير الدين بهذه الغنيمة العظيمة، وحمد الله على ما منحه من الظفر بعدد الدين، ثم رجع بهذه الغنيمة إلى حضرة تونس، فأعطى الخمس لصاحب الحضرة كما تقرّر بينهم<sup>(2)</sup>، وحصل للسلطان فرح عظيم بذلك وتضاعفت رغبتهم في خير الدين وجماعة الغزاة. (3)

فإنه صادفه أخوه عروج صباح تلك الليلة التي فرّ فيها ؛ وكان عروج مُنفرداً عن خير الدين في هذا الوقت، فاستولى عليه، وكان ذلك الجفن وسقه<sup>(4)</sup> لوحاً، ثم استمرّ في سفره إلى أن وصل إلى مرسى يُقال لها «بلونية» فوجد فيها أربعة أجفان للعدو فاستولى عليها بعد قتال وقع بينهم. ثم رجع إلى حضرة تونس فرأى ما هبّأ الله له ولأخيه من الظفر بعدد الدين فحمد الله كلّ منهما على ذلك فأدّوا خمس تلك المغنم إلى السلطان<sup>(5)</sup> وقسموا ما فيها على الغزاة، واستغنى جميع الغزاة من تلك المغنم التي لا يُحيط بها الحصر.

وكان في مدينة تونس بعض الرؤساء اسمه محي الدين فأهديا له ذلك اللوح.

1. لفائف من التماش الرقيق الذي يسمى الملف.

2. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدولة العلية: ... وكان خير الدين وأخ له يدعى (أوروج) يشتغلان بحرفة

التراصين ببحر الروم ثم أسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس من: 95.

3. سطر محذوف من المخطوط، المخطوط، ص: 20.

4. شعلته أو حمولته.

5. سلطان تونس محمد الحفصي آنذاك.

- أوّل هديّة بعث بها خير الدين وعروج إلى السلطان الأعظم سليم :  
ثم إنّ خير الدين وأخاه عروج صنعا هديّة عظيمة من نفائس الأموال  
التي غنمها من الكفار ووجهها إلى السلطان الأعظم سليم<sup>(1)</sup> كلّ واحد  
من وزرائه وخاصّيته هديّة على قدره صُعبه محي الدين رايس المذكور آنفاً.  
فوصل بالهديّة إلى حضرة «إسلام بُول» فاستحسن السلطان وخاصّته هذه  
الهديّة وبالعوا في الثناء على خير الدين وأخيه عروج ودعوا لهما بالتأييد  
والنصر على أعداء الله الكفرة، وأجابهما السلطان بكتاب مُضفّنه الدّعاء  
لهما والشّكر على هديتهما ووجّه لهما صُعبه محي الدين رايس جفنين  
بمجادينها وشعثها برجال البحر العارفين بأحوال البحر والسفر فيه،  
مكافأة لهما على هديتهما.

وكان خير الدين وأخوه عروج عزموا على السّفر إلى ناحية سبتة<sup>(2)</sup>  
وأحوازها من بلاد الأندلس فسافر في عشرة أجنان غزوّة فوصلوا إلى  
ناحية بجاية<sup>(3)</sup> فأرسيا في بعض المراسي هنالك، فسمع بقُدومهما أهل

1. هو السلطان سليم الأول الغازي الملقب بياوراي القاطع من أعماله حصاره لعدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد المعجم بطريقته سرّية ثم أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ويقال إن عددهم كان يبلغ نحو الأربعين ألفاً وهذه المذبحة كالمذبحة التي حصلت بباريس سنة 980 الموافق 24 أغسطس سنة 1572 المشهورة في التاريخ بمذبحة سان برتلمي وسار بجيشه إلى بلاد الشام قاصداً وادي النيل وكان قتلصوه الغوري استعد أيضاً لمحاربتة فتتابل الجيشان بقرب حلب الشهباء في بلاد الشام قاصداً وادي النيل وكان قتلصوه الغوري وقتل سنة 922 الموافق سنة 1516 وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدائن حمص ودمشق وعين بها ولاية من طرفه وقابل بها من العلماء فأحسن وفادتهم وفرق الإنعامات على المساجد وأمر بترميم الجامع الأموي بدمشق ولما صلّى السلطان الجمعة به أضاف الخطيب عند ما دعا له هذه العبارة (خادم الحرمين الشريفين) وهي مستعملة في الخطبة إلى الآن وتوفي في 9 شوال سنة 926 الموافق 22 سبتمبر 1520 في السنة التاسعة من حكمه والحادية والخمسين من عمره إذ كانت ولادته في سنة 875. تاريخ الدولة العلية. ص: 73 - 78.
2. سبتة تقع على الساحل الشمالي المغرب الأقصى وهي تابعة حالياً لإسبانيا شأنها في ذلك شأن مليلية Ceuta y Melilla.
3. بجاية بكسر الباء الموحدة وفتح الجيم ثم أنف مثناة وهاء. هي مدينة بالقطر الجزائري على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، والمدينة بنيت على شكل مدرّج فوق المنحدرات السفلية بجبل مغروية، ==



تلك الناحية من العلماء والصلحاء والأشياخ فبعثوا إلى خير الدين وأخيه كتابا يشكرونها على ما يسر الله لهما من غزوتهما الكبيرة وفتوحاتهما الشهيرة قائلين لهما في ذلك الكتاب: «إن الله تعالى تكفل بنصركما حيثما توجهتما لم تنكسر لكما راية قط في الجهاد، فكيف تدعوننا في أيدي العدو الكافر لا نعبد الله إلا على خيفة، ولا نقدر على إشهار ديننا وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم؟»<sup>(1)</sup> وتضرعوا لهما غاية التضرع في ذلك الكتاب<sup>(2)</sup> واستشفعوا لهما بالنبي صلى الله عليه وسلم.

== (وتعني عبارة قوراية باللغة الوندالية الجبل) يرتفع عن سطح البحر بنحو 600 م ؛ كلمة بجاية اسم أطلق على المدينة في تاريخ غير معلوم ولله متأخر العهد عن كلمة «صلداي» الفينيقيّة، أو «سلدايا»، وأطلق الفرنسيون عليها اسم «بوجي Bougie» أي الشمعة ؛ ولعل هذا الاسم قد اشتق من شجرة أهلها بتجارة الشمع أو بجاية (بثاق معقوفة) فأطلق هذا الاسم على المدينة وسُميت به وينطق بها القبائل الآن بجايت بثاق معقودة وناء في آخرها، وهذا الرأي الأخير لتأويل اسم بجاية هو الرأي الصحيح لأن البربر قد تمودوا أن يطلقوا اسم أول قبيلة تنزل بموقع ما على ذلك الموقع نفسه. كانت بجاية في القديم تدعى سداي في العهد الفينيقي واتخذها الرومان قاعدة هامة واستعملها الوندال عاصمة لهم في عهد جنسريق عام 439 ميلادية ثم دخلت تحت الحكم الإسلامي في حدود 708 ميلادية وصار لها شأن عظيم في عهد رابع سلاطين بني حمّاد الناصر بن عتّاس (460 / 1067) بأن صارت عاصمة إمارة الحمّاديين (405 - 547 / 1014 - 1153). وفي العهد الأخير قبل مجيء الأتراك دخلت بجاية تحت حكم الدولة الحفصية (1284 - 1368) وكان أهل بجاية يتعاطون القرصنة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وبداية القرن الخامس عشر... أنظر تفاصيل أكثر في كتاب بعنوان الدراية فيمن عُرِف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس أحمد بن أحمد الشُّبريني، تحقيق الأستاذ راجح بونار، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 20 - 24.

1. يظهر من خلال هذه المراسلة الأولى بين الأخوين عروج وخير الدين وأهل بجاية أنهم اعتبروا الأخوين مسلمين.
2. تقول بعض المراجع إن الوفد الذي أنصل بعروج قرب بجاية والذي من بينهم الشيخ البربري كما ورد في هذا المخطوط والذي هو الشيخ أحمد بن القاضي شيخ قبائل زواوة وقائدهم، والذي نبعث من شجرة عائلة أبي العباس الشُّبريني صاحب كتاب «عنوان الدراية فيمن عُرِف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» ؛ والذي كان يعمل قاضيا لدى آخر أمراء بجاية التابعة آنذاك للسلطنة الحفصية (627 - 943 / 1229 - 1526) ؛ وكان قدم عروج عليهم في حدود 1511 بعد احتلال الإسبان لبجاية عام 1510، كما تقول المصادر. أنظر كتاب كورين شوفالبييه: ثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 26 - 27.

فلما وصل الكتاب دخلتهما الحميّة لدين الإسلام وأثنيا عزمهما على قصد سبّة فقربا من ساحل بجاية<sup>(1)</sup> وكان قرب ذلك الساحل بناء للكافر برسم حراسته فحاربوا أهله واستولوا عليهم فوجدوا فيه نحو المائة كافر. وكان هنالك جملة من المسلمين يُعطون الخراج للنصارى لضعفهم عن القتال ففعلوا هنالك برسم الحراسة وتقدّما ببقية عسكرهما إلى بجاية بعدما أدخلوا جفنتهما الكبير الوادي، فلما قربوا من بعض حصونهما وقع بينهم وبين ذلك الحصن قتال عظيم، ودام القتال بينهما ثلاثة أيام، فقي اليوم الرابع هجم المسلمون عليهم، فلما رأى الكمّار ذلك طلبوا الأمان من جماعة الغزاة فلم يسمح لهم بذلك فاستأصلوهم قتلا وأسرا، وكان جملة النصارى الذين حصلوا بأيديهم خمسمائة وأباحوا للمسلمين الكائنين بتلك الأحواز من البرابرة<sup>(2)</sup> جميع أسباب ذلك الحصن وما احتوى عليه من الذخائر. فلما رأى بقية تلك النّاحية ما منح الله تعالى لعروج وأخيه خير الدين من هذا الفتح العظيم قدّم عليهم نحو العشرين من البربر<sup>(3)</sup> فقصّد

1. بجاية مدينة تقع على الساحل الشرقي من أرض الجزائر وكانت تحت الاحتلال الإسباني والجنوي أيام الأخوين عروج وخير الدين بعد ما كانت تابعة للدولة الحفصية واحتلّها الإسبان سنة 1510 وتصدّى لمقاومتهم كما يقول شوقالبية موبعد سقوط بجاية عام 1510 تزعم القبائل قصد الوقوف في وجه الغزاة. ولما جاء عروج إلى بجاية التحق به ابن القاضي وأصبح خليفه له وعلى إثر ذلك تولدت صداقة متينة بينهما والتي سيكون لها أثر إيجابي على عروج بحيث أنّ هذا الأخير سيقيم بعدها جمة مدينة بجاية من جهة البحر بينما تهاجمها جيوش ابن القاضي المكونة من آلاف الرجال من ناحية البر. ص: 27. وجاء في كتاب: *Histoire de Barberousse*

حول موضوع احتلال الإسبان لبجاية ما يلي: «Pierre Navarre reunit aussitôt les vesseaux qu'il commandait déjà à ceux que Jérôme Vianelli lui amena à Ivic, et après avoir rapidement organisé son armée il mi à la voile pour Bougie le 1 janvier 1510, Vol: 2, p: 123.

وقيل هذا التّاريخ كما نعلم كان احتلال وهران من طرف الملك الإسباني فرديناند بعمعة ومباركة الكاردينال خيمينيث دي ثيزنيروس EL Cardinal Cisneros .  
2. المقصود السكان الأصليين بتلك النّواحي من بجاية والذين أغلبيهم برابرة أمازيغ كانوا تحت إمرة أحمد بن القاضي، ومن هذه القبائل على سبيل المثال: قبيلة الغبريني وقبائل آيت يحيى وقبائل آيت بوشايب، وآيت فراوسن ... أنظر شوقالبية، ص: 37.  
3. كلمة غير مفهومة في المخطوط، المخطوط، ص: 22.

اجميع مدينة بجاية برسم فتحها فأقاموا على حصارها أربعة وعشرين يوما، ووقع في هذه المدة من القتال والتضييق على الكفار أمر عظيم لا يسهه تونس رسولا برسم إعانتهم بالبارود وغيره من آلات الحرب. فذهب إليه داء الحسد، والعياذ بالله، ودخلته أفكار سوء ونزغات شيطانية فامتنع من إسعافهما بما طلباه<sup>(1)</sup>، فسمع بذلك المجاهدان خير الدين وأخوه فتغيرت قلوبهما عليه، وحق لهما ذلك؛ وكان المدد قد أتى على الكفار من رايس بلادهم وعدتهم أربعة عشر ألفا فتعذر عليهما فتحها بعدما بذلا غاية مجهودهما، ولكل أجل كتاب، فرجعا إلى أجدانتهما المخلفة بالواد الكبير فوجدا الماء قد نضب عليهما فلم يقدرّا على إخراجهما فأحرقوها خشية استيلاء الكفار عليها وحمل الغزاة الخمسين المخلفين في البناء وسافرا إلى ناحية جيجل<sup>(2)</sup> بمن معهما من الغزاة وجماعة الأسارى، وعدة الأسارى ستمائة، وقد كانا بعثا إلى جيجل ثلاثة من الأجدان ليحدها عدة إن طرأ

1. من هنا سبداً العدواة الدائمة بين سلطان الحفصيين وخير الدين والذي يبدو أنّ السلطان الحفصي توجس خيفة من أطماع خير الدين وخاصة بعد أن سيطر هذا الأخير على الجزائر وامتدت أطماعه إلى تلمسان وكل الأراضي التي يوجد عليها الاحتلال الإسباني، ويقول شوقالييه في كتابه ثلاثون سنة ... ومن جهة أخرى فإن سلطان تونس قد تخلى عن الإخوة بربروس حسداً على الانتصارات التي حققها الإخوة بربروس، ولجأ عروج وإخوانه بعد ذلك إلى جيجل حيث قام بطرد الجنوبيين منها وأسس مملكة صغيرة والتحق به أكثر من 20.000 من الأهالي البربر وقدموا له خدماتهم لتخليص البلاد من الكفار. ص: 26.
2. مدينة تقع على الساحل الشرقي من أرض الجزائر لا يعرف بالضبط أصل تسميتها ولا متى تم تأسيسها. وبعض المصادر ترجع تأسيسها للفينيقيين، وغير معروف مدلول اسمها أو لماذا سميت بها الاسم؟ فقد اختلف الباحثون في أصل تسمية «جيجل» أو «إيقليلي» Igilgili هالبعض يدعي أنها تسمية محلية كتامة نسبة إلى قبيلة كتامة الأمازيغية، لأنها قريبة من النطق المحلي الأمازيغي، لأن المنطقة كانت مأهولة بالسكان بدليل المحطة الأثرية المنتشرة في هضبة بني قايد، وبدليل نطقها أيضاً وكتابتها قبل العهد الإسلامي إذ كان الرومان يكتبونها «إيقليلي» حسب النقوش الأثرية المحفوظة بمتحف سيرتا بتسطنطينة والتي تعود إلى العهد الروماني. أما البعض الآخر فيرجع أصلها إلى مدينة «لققليلة» والفلسطينية والتي هاجر ملكها إنشاء العهد الفينيقي إلى مدينة جيجل فأطلق عليها تسمية المدينة التي هاجر منها ... أنظر تاريخ منطقة جيجل قديماً وحديثاً للأستاذ محمد خنوف، منشورات الأنيس / الجزائر، ص: 34-35.

عليهما حادث من حوادث الدهر كما وقع لهما. فلما وصلها أقام عروج راييس بها وسافر خير الدين بثلاثة أجناف إلى مدينة تونس، فلما وصلها اشترى أربعة فصار جملة أجنافه سبعة وكان لأهل تونس سبعة : فأراد أهل تلك الأجناف مرافقته في الأجناف تيمناً لأنه ما توجه قط إلى ناحية إلا وفتح الله عليه<sup>(1)</sup>. فبينما هو في إنشاء هذه الحركة إذ وصل محي الدين الذي كان وجهه بالهدية إلى حضرة «إسلام بول»<sup>(2)</sup> ومعه راييس جليل من رؤساء السلطان يُقال له قرط علي<sup>(3)</sup> أتى برسم زيارة خير الدين وتبرُّكا بشهامته لأنه طار خبر جهاده في بلاد الإسلام، وأتى برسم الغزو معه ومع محي الدين؛ وقرط علي راييس وآخر يقال له مُصلح الدين في أربعة عشر جَمْعًا، فخرج الجميع برسم الغزو، وكان عدد هذه الأجناف التي خرجوا بها ثمانية وعشرين جفنا، فسافروا مدة، فكان من مقادير الله تعالى أن صادفوا ثمانية وعشرين جفنا كبارا، فلما رآهم المسلمون صدقوا الله في جهاده وقصدوا قصدهم فألقى الله الرعب في قلوب العدو وألقوا إلى المسلمين بأيديهم فاستولوا على راييس الأجناف ورجعوا بهم قاصدين

1. سجد في صفحات المخطوط القادمة كيف بقّر بابا النصارى بهذه العناية الربانية التي تكلاً خير الدين بربروس.

2. إسلام بول هي القسطنطينية عاصمة البيزنطيين وقد فتحها محمد الفاتح سنة 1453 م وسُميت آنذاك إسلام بول أي تخت الإسلام أو مدينة السلام. وقد سبق للمسلمين أن حاصروا هذه المدينة حتى عشرة مرّات قبل هذه المرّة الأخيرة منها سبع في القرنين الأولين للإسلام، فحاصرها معاوية بن أبي سفيان في خلافة الإمام علي رضي الله عنه سنة 34 هـ / 654 م. وحاصرها يزيد بن معاوية سنة 47 هـ / 667 م في خلافة الإمام علي أيضاً، وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة 52 هـ / 715 م، وحاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي، وحوصرت أيضاً في خلافة هشام سنة 121 هـ / 739 م، وفي المرّة السابعة حاصرها أحد قواد الخليفة هارون الرشيد سنة 182 هـ / 768 م. أنظر كتاب تاريخ الدولة العلية، ص: 61.

3. في المصادر الأجنبية يكتب Court-Ogli أي كرد علي. وجاء في كتاب: تاريخ الدولة العلية: «... فاستولى خير الدين على ثغر شرشال بإقليم الجزائر، ثم عاد إلى تونس ومنها أرسل إلى السلطان سليم الذي كان إذّاك بمصر رسولا يدعى «كرداغلي»، ص: 95. فهكذا كتبه محمد فريد الحامي ونمّدت أنه الأصوب لكون هذا الباحث هو مؤرخ الدولة العلية المتعانة بامتياز.

إلى تونس، وكان غالب وسق<sup>(1)</sup> هذه الأجفان المأخوذة برّا<sup>(2)</sup>؛ فبينما هم في حال رجوعهم إذ ظهر لهم اثنا عشر جفنا للعدو من الكفار الجنوبيين مرصوفة بالصوف والعسل وغير ذلك، فاستولوا عليها أيضا فصار جملة الأجفان التي استولوا عليها أربعين جفنا، فأسلم جملة الأجفان إلى قرط علي رايس ليذهب بها إلى تونس وسار هو إلى جيجل برسم لقاء أخيه.

### علماء الجزائر يكتوبون عزوج<sup>(3)</sup> :

رجعنا إلى خبر عزوج، وكان في مدة إقامته في جيجل كتب إليه أهل الجزائر<sup>(4)</sup> كتابا برغبونه في القدوم عليهم وجهاد عدوهم المجاور لهم في الحصن الكائن بالجزيرة<sup>(5)</sup>؛ وكان قد أضر بهم غاية الضرر وضيق عليهم غاية التضيق.

1. وسق الأجفان أي حملاتها.

2. بر بالضمة فوق الباء أي قمع أو حبوب.

3. يقول شوقاليه: ... وأوفد سكان مدينة الجزائر نحوهم عدة شخصيات بارزة لإقناعهم وترجيحهم بالتقدم لتخليص من مضايقة وظلم المسيحيين وتهديم هذه القلعة، وقيلت عائلة بربروس هذا الطلب ورأت في ذلك فرصة للاستيلاء على مدينة الجزائر الهامة والفنية جدا والمأهولة بالسكان، وأنها مربحة ومناسبة لعمليات القرصنة، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 27، مع تحفظي على هذه الترجمة التي قام بها جمال حمادنة.

4. جاء في كتاب: Histoire de Barberousse هذا التعليق من طرف المؤلفين: «Une ville des pirates insolens, une grande défaite qui avait humilié jadis un empereur. Vol; 1, p: 11. La ville d'Alger s'appelait toujours la Victorieuse, et ses cannales restaient fermées. Vol: 1, p: 11. Les véritables annuees de l'Algerie ne commencent qu'a cette époque ou deux fils de renégat, sortie d'un ile de la Grèce, viennent constituer sur les cotes de la Barbarie une sorte de republique religieuse, pareille à celle des Chevaliers de Rhodes. Cet événement a lieux vers 1516, et l'histoire des frères Barberousse renferme, pour ainsi dire, celle de l'établissement de la regence, qu'ils soumirent à Salim, et plus tard à Solimam. Vol; 1, p: V.

5. هذا الحصن المشار إليه هو حصن الصخرة المعبر عنه باللغة الإسبانية El Penon والذي كثيرا ما يسمّيه صاحب المخطوط حصن الجون، والجون هي الصخرة وتقع هذه الجزيرة على بعد 300 م عن مدينة الجزائر وكان قبل مجيء الإسبان شديدة ذلك الموضع المورسكيون برجا صغيرا يستعمل كقنار أو برج مراقبة للبحرية ثم حوله الإسبان إلى قلعة حصينة عام 1510 من قبل القائد بيدرو نافارو وصار بمثابة دركي يميّز عملية القرصنة والتجارة مع أعداء إسبانيا ولكن هذا يعتبر قليلا مقارنة بما ضاع من حريات حيث ستدوم هذه الوضعية 18 سنة وتناهب على هذا الحصن حاكم ساحة مارتان دي فارفاس في عهد نيكولاس الخامس. أنظر شوقاليه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 24، 25، 26، و، 46، 47، 48.

فلما وصل كتابهم إليه، وعلم ما هم عليه من العدو الكافر أدركته حمية الإسلام ودخلته نخوة الجهاد واستخر الله تعالى في جهادها، فأوصى تلك الناحية من أهل جيجل أنه إذا قدم أخوه خير الدين يهتئ له مدداً من الغزاة يستعين بهم على جهاد أهل ذلك الحصن؛ فبعد ذلك بمدة وصل أخوه خير الدين إلى جيجل فلقى أهل تلك الناحية بالترحيب والتسهيل فعرفوا له قدره الملوكي، وبلغوه وصية أخيه المتضمنة لإرسال المدد، فهش لذلك وأنعم به، وجّهز له مائتين وثمانية من الغزاة بجميع ما يحتاجون إليه، ورجع خير الدين إلى مدينة تونس، فوصل هذا المدد إلى مدينة الجزائر فاهتزّ لقدمهم عروج وأكرم نزلهم ووسّع لهم في الجراية. وكان خير الدين لما وصل إلى تونس وجد قُرط علي<sup>(1)</sup> الذي أودعه الأتقان وقد أفرغ الوسق من السفن ووضع في ناحية، فأمر خير الدين بتقسيمه بين الغزاة، وفي هذه المدة قدم عليه أخوه إسحاق<sup>(2)</sup> من أقاليم الروم، وكان أكبرهم كما تقدّم؛ وكان سبب قدومه أنه أراد أن يذهب بأخيه خير الدين إلى بلاد الروم ليستقرّ بها، فلقى أخوه وأكرم نزله واهتزّ للاقائه وفرح فرحاً شديداً ولم يسمح له بالرجوع إلى إقليم الروم فأقام عنده. وكان خير الدين قد كثرت غزواته على التّصاري وثقلت عليهم وطأته واشتدت فيهم نكايته فاتفق رأيهم على غزوه وغزوا أخيه عروج في ثلاثمائة وستين جفنا، فدخلوا إلى بعض المراسي بقرب تونس فوجدوا فيها أربعة أجناف للمسلمين لم يكن فيها أحد فاستولوا عليهم، ثم إنهم نزلوا إلى البرّ وكان هنالك حصن للمسلمين فشرعوا في القتال معهم فضعّف أهل الحصن عن مقاومتهم ولجأوا إلى الله عزّ وجلّ بخالص التضرّع؛

١. أو كرد اوغلي.

٢. الأوغ الأكبر الذي يأتي بعده عروج ثم خير الدين ثم إلهاس.

وكان ذلك الحصن منيعا فعجز الكفار عن أخذه ورجعوا إلى أجفانهم بالخيبة وقُطع المسلمون عنهم سبّة من أجفانهم فاستولوا عليه ؛ ثمّ إنّ الكُفّار قصدوا في سيرهم حلق الواد<sup>(1)</sup> وكانت به أجفان خير الدين. فلمّا نظر خير الدين، وهم قاصدون نحوه، تهيباً لهم بآلاته الحربية من المدافع والمكاحل والنشّاب كما هي عادة حربه، فحين رأى الكُفّار ذلك علموا أنّهم لا طاقة لهم بقتاله في البحر فأرادوا النزول إلى البرّ فمنعهم عن ذلك من كلّ ناحية أرادوا منها النزول، فلمّا حال بينهم وبين ما أرادوا من المكر أخذوا في الذّهاب لطاغيتهم<sup>(2)</sup> وكفى الله المؤمنين القتال.

وكان قرط علي راييس ومُصلح الدين راييس لما سمِعُوا بأسطول النّصارى متوجّها إلى خير الدين توجّها إلى إقليم الرّوم وسافرا مع السلطان سليم إلى مصر برسم فتحها وأخذها من يد السلطان الغوري<sup>(3)</sup> والقضية معروفة، وحين أقلع الكُفّار ذاهبين عن خير الدين أحضر أربعة أجفان حربية بمجاديدها وشحنها بأبطال الغزاة وأودّعها خمسة عشر مدفعاً وقدم إسحاق أخاه عليها وأوصى أهل الأجفان بطاعته وأن لا يخرجوا عن أمره وتوجّهوا إلى الجزائر مستقرّ أخيه عروج، فوصلوا إليها ولقي إسحاق أخاه

1 - المعروف باسم La Goulette ويقع في المدخل البحري لمدينة تونس من جهة الشمال الشرقي .  
2 - المتصود بالطاغية هو ملك إسبانيا شارلكان الخامس (1519 - 1556) Carlos I de Espana Gante, (1556 - 1558) Fue emperador del sacro Imperio Romano germanico con el nombre 1550- Yuste, 1558) y rey de Espana como Carlos I (1516 - 1556) el primero de Carlos v (1519 - 1556) y heredo' los Países Bajos y Aragon'. Bib. Vera que unio en su persona a las coronas de Castilla y Aragon'. Bib. Vera mantuvo Guerras con Francia, a la vez que con los movimientos de Castilla. Madrid, 1949.  
3 - هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغوري الظاهري الأشرفي أسلمه من ممالك الأشرف

الظاهر خشمدم . كان قد تحالفت مع الشاه إسماعيل لمحاربة الدّولة العليّة ... فتقابل الجيشان بقرب حلب الشهداء في واد يقال له مرج دابق ومزم الغوري وقتل في 24 أغسطس سنة 1516 . أنظر كتاب تاريخ الدّولة العليّة، ص: 75 .

عَرَّجَ فسألته عن أحوال أخيه فأخبره بما يجب من ذلك واستبشر عَرَّجَ  
بجماعة الغزاة القادمين معه وأكرم نزلهم ووسَّع عليهم في الجِراية.  
وأما خير الدين فإنه أكمل فصل الشتاء بمدينة تونس ولازم علماءها  
وَصُلِّحَهاها للأخذ عنهم، ولَمَّا دخل فصل الربيع عزم على السَّفر للغزو  
والتوجَّه إلى الجهاد كما هي عادته، ولَمَّا رجعت عمارة النَّصارى إلى  
بلادهم بالخبيبة والحسرة، وعَلِمُوا أنَّهم لا طاقة لهم بخير الدين، وأنَّ  
جماعة غزاته لا يهربون من الموت، وأنَّهم يبذلون أنفسهم في جهاد عدوِّهم،  
ويحرصون على الموت حرص الكفَّار على الحياة، أخذوا في المشورة فأتفق  
رأيهم على غزو مدينة الجزائر<sup>(1)</sup> وفتحها والاستيلاء عليها، فأخذوا في  
الأهبة في ذلك قائلين: إنَّ التُّرك إذا توطَّنُوا مدينة الجزائر ومهد مُلكهم

1. الجزائر أصل تسميتها؛ يقال إنَّه أثناء هدم الدَّور البالية في الجزائر والتي كانت بحارة العمالة القديمة المسماة أيضا بحارة باب البحر وجدت قطعة صغيرة من العملة مصنوعة من النحاس و مكتوب عليها من جهة واحدة ومن البعین إلى اليسار كلمة باللفة الفينيقية مركبة من خمسة أحرف وهي كلمة «إيكسيم» Icosim (الألف - الباء - الكاف - السين - الميم) حسب ما أثبتته أساتذ اللغات السامية بكلية الآداب بجامعة الجزائر في مطلع القرن العشرين؛ وإيكوسيم في الحقيقة هي مركبة من كلمتين تركيبي مزجيا وهما (إي) وهي اختزال لكلمة Ile أو Isla كما في اللغة الإسبانية والتي تعني الجزيرة، أما «كوسيم» Cosim فتعني طائر البحر الذي يسمى «الفورس» Mouette فيكون المعنى الإجمالي «جزيرة الفورس» أو «جزيرة الفورس» (L'île aux mouettes) ولا شك أنَّ هذا المعنى أنسب وأليق ومعروف عند البحرية أنَّ هذا النوع من الطيور (والذي تسميه العامة عندنا في الجزائر دجاج الماء) البحرية يوجد في الأماكن التي يجد فيها طعامه. فعلماء الآثار يحكمون بأنَّ أوَّل من أعطى هذا الاسم إلى عاصمة الجزائر هم القرطاجيون، ويلاحظ أنَّ المؤرخين الأروبيين في العصر القديم والعصور المتأخرة لا زالوا يوهمون في اسمها ويخلطون إذ يسمونها «إيكوسيوم» (Icosium) عوض إيكوسيم وهذا ليس ناشئ عن أسطورة يونانية ابتدعها الكاتب الروماني صولين Solon الذي عاش في أواخر القرن الثالث المسيحي وقالوا إنَّ الهركل Hercule مرَّ بالجزائر حين كان ذاهبا إلى جنوب إسبانيا فعَلَّ رفاقه طول الطريق وتميوا منها ولكن هركل مضى في حال سبيله ولَمَّا بلغ الحد الذي تلتقي فيه أرض إفريقية بأرض أوروبا فإنه فصل بينهما ونشأ بوعاز أو مضيق أو رفاق ولَمَّا بلغ الحد حتَّى يحمي الأوروبيين من البرابرة سكان إفريقيا وخذ ذلك الأثر برفع أعمدة توجد في مقابل جبل طارق حتَّى يحمي الأوروبيين من البرابرة سكان إفريقيا وخذ ذلك الأثر برفع أعمدة توجد في مقابل مدينة قادس Cadix الإسبانية تعرف إلى اليوم باسم Les Colonnes d'Hercule. أو كما يقال بالإسبانية «Las Columnas de Hercules» أنظر مجلة هنا الجزائر العدد 14، سنة 1953، ص: 11. ثمَّ تسَّقت جزائر بني مزغنة حين تأسست مدينة الجزائر في النصف الثاني من القرن العاشر من طرف الأمير زيري بن بكريين



بها، وفتحوا عمالتها كثرت أجفانهم وعساكرهم فقطعوا عن البحر وامتد طمعهم إلى بلادنا، وكان من جملة ما اعتمدوا به على فتحها حصنهم المجاور للمدينة من ناحية البحر، فإنه كثيرا ما كانت تحصل منه الإذابة لأهل المدينة، بحيث إن النصارى كانوا يرمون على أهل المدينة بآلاتهم الحربية من المدافع والمكاحل.

فكان هذا الحصن شجى معترضا في صدور أهل الجزائر<sup>(1)</sup> إلى أن خلّصهم الله منه على يد زعيم المجاهدين خير الدين، كما سيأتي إنشاء الله تعالى في محله.

ومن جملة ما دبروه إنهم إذا أخذوها يشغلون السلطان الأعظم عنهم بضريبة من المال يؤدونها إليه كل سنة، فأجمعوا على غزوها وتوجّها إليها بثلاثمائة وعشرين جنفا؛ وكان عدد عسكرهم من المقاتلين خمسة عشر ألفا فوصلوا إليها وأرسوا أجفانهم بقربها ونزلوا في البر بقصد حراستها والتضييق عليها، فلزم عروج رايس المدينة هو وجماعته الغزاة وكافة أهل المدينة، ونشر أعلامه وتهيا لقتالهم مستعينا بالله، فقرّب الكفار من المدينة وتراصوا كما هي عادتهم في الحرب، ونصبوا ألويتهم المعكوسة وشرعوا في قتال المدينة وتكالبوا على أخذها.

فحال عروج أمرهم ف وقعت المشورة بينه وبين عسكره فاتفق رأي عروج على الخروج إليهم والهجوم على عسكرهم ورأى أن ذلك ممّا يكسر شكوتهم

1. ... يظل الجنود الإسبان قابعين داخل هذا الحصن لا يبرحونه والمدينة هي أقرب ما يمكن منهم فنزول الجنود إلى المدينة وابتزازهم لبعض الأشياء كان يشكل إهانة لكل السكان مما دفعهم إلى إرسال رسول إلى إسبانيا في ربيع 1515 لاقتراح هدنة مقابل دفع بعض الضرائب للملك إسبانيا ... وعاشت مدينة الجزائر اضطرابات كان سببها اختلاف الآراء حول قضية دفع الضرائب ووجود الحامية الإسبانية قرب المدينة، وشجّع سليم تومي الثعالبي على احترام المعاهدة بحيث أن هذه الحامية كانت توفر لهم الأمن والحماية ... أنظر تفاصيل أكثر في كتاب شوقالبه: الثلاثين سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ص: 25.

وَيُذْهَبُ نَحْوَهُمْ، فَيُساعدُ جَماعَتَهُ على ذلك وَاتَّقُوا على الخُروجِ قائلين: إِنَّ  
الخُروجَ إِلَيْهِمْ واجبٌ علينا لأنَّنا كُنَّا السَّببَ في مجيئِهِمْ لِهَذِهِ المَدينةِ وأهلِها  
ضَعفاءٌ ولا طَاقَةَ لَهُمُ بِدِفَاعِهِمْ. فَأَنْتَهَزَ عَرُوجُ الفُرْصَةِ وَخَرَجَ مُفَرِّداً بِنَفْسِهِ  
فَتَبِعَهُ كَافَّةُ أَهْلِ العِسكرِ وَفَتَحُوا أَبْوابَ المَدينةِ وَكَبَّرُوا تَكبِيرَةً واحِدةً وَهَجَمُوا  
على عِسكرِ ائِعدُو فَمَنَحَهُمُ اللهُ أَكْثافَهُمْ بِقُتْلِهِمْ كَيفَ يَشَاءُونَ وَيَأْسِرُونَ كَيفَ  
يَشَاءُونَ، وَفَرَّ الكُفَّارُ عَنِ المَحَلِّ الَّذِي كَانُوا فِيهِ وَتَرَكَوا أَلْوِيَتَهُمْ مَنصُوبَةً بِهِ  
فَتَنَكَّسَها المُسلمونَ وَتَبِعُوا آثارَهُمْ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ قَتَلًا حَتَّى صارت دِماؤُهُمْ  
تَجرى كالأنهار. قالوا: وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الأَلْفُ والباقون قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ.  
ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ البَقِيَّةَ رَكِبُوا في أَجْفافِهِمْ وَذَهَبُوا إلى بلادِهِمْ.

فلَمَّا سَمِعَ الطَّاغِيَةُ بِمَأْتَمِ جِيشِهِ الَّذِي وَجَّهَهُ إلى الجَزائِرِ لَطَمَ وَجْهَهُ  
وَشَقَّ ثِيابَهُ وَنادى بِالوَيْلِ وَالتَّوْبِ.

وَأَمَّا المُسلمونَ بِالجَزائِرِ، لَمَّا فَرَّجَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، حَصَلَ لَهُمْ  
مِنَ الفَرَحِ وَالسُّرُورِ ما لا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَكَتَبَ عَرُوجٌ إلى أَخِيهِ خَيرِ الدِّينِ كِتاباً  
يُعلِّمُهُ فِيهِ بِشرحِ هَذِهِ القُضيةِ، وَكَيفَ هَزَمَ اللهُ النُّصارى وَرَدَّهُمْ على  
أَعقابِهِمْ خاسئينَ، وَأَمَرَهُ في ذَلِكَ الكِتابِ أَنْ يَقدِمَ إلى بِلادِ جِيجِلَ فَإِذا  
وَصَلَ إِلَيْها أَعْلَمَهُ بِذلِكَ.

فَقدِمَ خَيرِ الدِّينِ إلى بِلادِ جِيجِلَ وَأرْسَلَ إلى أَخِيهِ فَأَعْلَمَهُ بِقُدُومِهِ ؛  
وَكانَ قَدِمَ إِلَيْها في عِشرةِ أَجْفافٍ، فَأرْسَلَ إِلَيْهِ عَرُوجٌ كِتاباً مُضَمَّنَةً: «أَنَّ  
في غِيَّةٍ<sup>(1)</sup> نَاحِيَةَ جِيجِلَ شَيْخاً هُوَ مُقَدِّمٌ على طائِفَةٍ مِنَ البَرابِرِ<sup>(2)</sup>، هُوَ عَيْنُ

1. هَذِهِ التَّسمِيَةُ غَيرُ مَفهومَةٍ في المِخطوطَةِ صَفْحَةُ 26 فَقَدْ جِاءَتْ على هَذَا الشَّكْلِ: غِيَّةٌ، وَلِها تَسمِيَةُ مَكانٍ  
قَرِبَ جِيجِلَ أو رُبَما هِيَ «زُغايَةُ» الَّتِي تَقعُ قَرِبَ جِيجِلَ.

2. لَمْ يَتِمَّ كَناهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اسْمِ هَذَا البَربريِّ المُتعاونِ مَعَ الحامِيَةِ الإسْبانِيَّةِ أو الجَنُوبِيَّةِ في تِلْكَ التَّوْاحِي. وَمِنَ المُستَويِدِ  
أَنْ يَكونَ ابْنُ القاضِي أو قارَةَ احْسَنَ أو حَتَّى سَليمَ تومِي، وَربَما يَكونُ شَهِيدَ قَبُولَةِ بَنِي عَباسَ المدْعُو عَبْدِ العَزِيزِ  
والَّذِي كانَ عَدُوًّا لابْنِ القاضِي وَبِذلِ جُهودِهِ كَبيْرَةٍ مِنْ أَجْلِ خَلْقِ نِزاعِ بَيْنِ ابْنِ القاضِي وَالْإِخْوةِ بَربرُوسَ.

سنة بسبعة آلاف دينار وألف صاع من البُرِّ، وألف شاة وسبعمائة من البقر وأربعة عشر فرسا بسلاحها. فضرب عليه خير الدين بجماعته من الغزاة حصارا إلى أن تمكّن منه. فلما رأى الخبيث أنّه قد حصل في قبضته، وعلم أنّه لا خلاص من يده صالحه على هذا العدد الذي كان يُعطيه للنّصارى وجعله لخير الدين فرضي منه بذلك وأعلم أخاه عزّوج بما قرّره على الخبيث الخائن، ثمّ ركب في أجفانه وقدم إلى أخيه بالجزائر<sup>(1)</sup> وتفرّغ لتمهيد الملك بها وإرساء قواعده بأحوازها.

وكان سلطان تلمسان في ذلك العهد من بني زيان<sup>(2)</sup> له ابن أخ أراد الوُثوب عليه ففطن بذلك ففرّ منه إلى الطّاغية المستولي على بلاد الأندلس<sup>(3)</sup> لعهده فأكرم نزوله وأحسن إليه وظهر للعين أن يُعيّنه على أخذ بعض البلاد الساحلية من عمالة بني عبد الواد<sup>(4)</sup> ويُقيّمه بها قاصداً بذلك التّفريق بين المسلمين، وليتمكّن بذلك هو من البلاد بسبب ذلك، فأنشأ عمارة وشحنها بجماعته من المُقاتلة وقصدوا مدينة

1. وهكذا يدخل خير الدين إلى مدينة الجزائر لأول مرّة.  
2. بنو زيان ينسبون إلى أبي عبد الله محمد بن محمد بن ثابت بن أبي تاشفين عبد الرحمان أبي حمو موسى

علي بن بما بن برجى بن القاسم، ومن القاسم هذا تناسل جمهور بني عبد الواد؛ وهم بنو طاع الليل وبنو دلول وبنو مطهر وبنو غزان وبنو معطى وبنو حجي. أمّا بقية بني عبد الواد وهم: بنو ياتكنّ وبنو لولو ومصحوبة وبنو تومرت وبنو رسطف فليسوا من ولد القاسم... أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرّ الوطنيّة للكتاب / الجزائر، 1985، ص: 109.

3. المستولي على بلاد الأندلس آنذاك هو الملك الكاثوليكي فرناندو دي أراغون ويقصد هنا بعد سقوط آخر ملك للعرب المسلمين بالأندلس وهو ما يعرف بملكة غرناطة في شهر يناير عام 1492.

4. بني عبد الواد هم بنو زيان بدأت دولتهم عام 635 / 1237 واستمرّت إلى غاية سقوطها عام 943 / 1554. أنظر بقية الرواد في تاريخ بني عبد الواد ليحيى بن خلدون.

تَسَّ (١) فاستولوا عليها وتمكّن منها ابن أخ سلطان للمسان تحت نظر الطّاغية ؛ وحين رجع النّصارى إلى بلادهم تركوا فيها أربعة أجفان وخمسمائة من المُقاتلة فسمع بذلك خير الدّين فأدركته الحميّة لدين الإسلام، فركب إليها في البحر في جملة أجفانه وحين أرسى بها فرّ النّصارى من أجفانهم وتحصّنوا بالمدينة، فشرع خير الدّين في حصارها والتضييق عليها، فأقام على ذلك يومه إلى العصر، فقدم عليه شيوخ المدينة على لسان (الشّابة) (٢) بها راغبا في صلحه ووعدّه أن يلقاه من الغد فركن إلى قولهم وكفّ عنهم القتال.

فلما كان الليل هرب القائم من المدينة ونجا تحت خفارتة. فلما كان صباح تلك الليلة خرج أهل تلك المدينة إلى خير الدّين وأعلموه بهروب القائم واعتذروا عن هرويه وقالوا له: يا مولانا ها هي المدينة لا يرُدك عنها أحد، وأمّا القائم فإنه لأبّد أن يقع في أيدينا ونمكّنك منه، فقبل خير الدّين عذرهم ؛ وكان رجلا حلّيا، فدخل المدينة واحتوى على جميع ما فيها ؛ فكان عدد النّصارى الذي وجد بها أربعمائة، ووجد فيها مائة

١. مدينة اتّمس أو تّمس تقع على شاطئ البحر المتوسط بين مدينتي شرشال ومستغانم غرب الجزائر العاصمة ؛ لعبت تّمس كغيرها من العواصم العلمية دورا عظيما في تاريخ الجزائر، وتقول بعض المصادر أنّ مدينة تّمس أسسها بعض التّجار الأندلسيين كانوا يتردّدون كثيرا على الشواطئ الجزائرية فينبأها التّجار المذكورون سنة الثنتين وستين ومائتين (262 هجرية) وكانت تّمس تابعة لبلاد مغراوة القبيلة البربرية القعيدة، وكانت ملكيتها تعتمد من عاصمة الجزائر إلى مدينة طنجة، وموطن هذه القبيلة الأصلي ما بين مدينة مليانة وقلعة بني راشد. معاً آثار هذه الإمارة ولكن بن زيري مؤسس مدينة الجزائر ومليانة والمدينة. اشتهر في مدينة تّمس كثير من العلماء لم تقتصر شهرتهم على الجزائر بل انتشرت في العالم الإسلامي مثل الشيخ إبراهيم بن يظف التنسي والشيخ أبو إسحاق التنسي صاحب كتاب «الدر والعقيان في شرف ملوك بني زيان». واختار كثير من الأندلسيين في عصر الطوائف اللجوء إلى تّمس والاستقرار بها بعد دخول المرابطين من مثل أمير أفريقية ابن مومن بن صمادح التجيبي.... أنظر تفاصيل أكثر في مجلة «هنا الجزائر» عدد: 19 شهر ديسمبر 1953 صفحة: 2 - 4.

2. كلمة غير مفهومة في المخطوط، ص: 27 وتبدو كما رسمتها، ويقول شوقايبه... وجاء وقت عن سكان تلمسان يطلب المساعدة والحماية ضد السلطان أبي حمو الذي تحالف مع الإنسان ضد سلطانهم الشرعي أبو زيان، ص: 36.

وخمسين قطارا من العطر وثلاثمائة من مال برنجك<sup>(1)</sup>، وأربعة عشر ألف ذراع شفة من الباز، وستائة قطار من الشهد ومثلها من الشمع، فرجع بهذه الفينة العظمى إلى الجزائر واقتسم هو وأخوه عمالته فكانت الناحية الشرقية لخير الدين والغربية لأخيه<sup>(2)</sup>، واستوطن خير الدين مدينة دلس<sup>(3)</sup> من الناحية الشرقية، وجعل معه عسكريا من جماعة غزاته وقدر لهم المراتب ليستعين بهم على فتوح ما بقي من تلك النواحي، وجعل في كل موضع من تلك العمالة نائبا من قبله فكان نوابه أربعة.

رجعنا إلى خبر تنس<sup>(4)</sup> فإن القائم الذي كان بها لما سمع أن خير الدين ألق عنها واستقر بمدينة دلس رجع إليها فقبله أهلها ودخلوا تحت طاعته وجعل يغير على عمالة عروج من الناحية الغربية فأضر ذلك بعروج فاستقدم أخاه خير الدين من مدينة دلس فوصل إليه إلى الجزائر فاستنابه بها<sup>(5)</sup> وجمع عسكريا برسم الخروج إلى الناحية الغربية ليتفقد أحوالها ويتمكن من القائم بتنس، واستفتى علماء الجزائر في ذلك فأفتوه بإباحة دم هذا المفسد، وإباحة المفسدين أمثاله<sup>(6)</sup>. فخرج بعسكره، وقد كان بلغه أن سلطان تلمسان<sup>(7)</sup> أضر بأهلها وعمهم جوهر وظلمه فنتى عزمه

1. كلمة غير مفهومة المدلول.

2. المقصود عروج وهنا يتضح أول تقسيم يادر به الأخوان لأماره الجزائر التي ستصبح تحت حوزتهما.

3. مدينة دلس تقع إلى الجانب الساحلي الشرقي من مدينة الجزائر ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم.

4. كان يسيطر عليها حميد العيد الذي شهد نكبة سليم التومي عندما خضعوا للإسبان بعين معلوءة بالحقد تجاه عروج ووجوده في مدينة الجزائر، وقام بتجهيز حملة ضده وكماداته فإن عروج لم ينتظر بل مشى للاقاة خصمه حميد العيد وباغته على حين غرة في عقر داره. أنظر شوقالبه: الثلاثون سنة الأولى، ص: 35.

5. وهنا يتم أول دخول لخير الدين إلى مدينة الجزائر لأن فتحها قد تم على يد عروج.

6. بهذا الاستفتاء يبدأ أسلوب الأخوين في التماطي مع أحداث الجزائر في المستقبل حيث درجوا على هذا الأسلوب من المشورة والإفتاء في القضايا التي تهم البلاد وقد كان هذا هو أسلوب خير الدين في الحكم طيلة ولايته للجزائر. ويقول شوقالبه: التي عروج مع جيش (ملك تنس) في سهل الشلف وانتصر عروج في هذه المعركة واحتل تنس في جوان 1517.

7. أبو زيان.

إليه ؛ وكان لسلطان تلمسان أخوان قد حبسهما ، فوصل عروج إلى أحواز تلمسان فجعل أهلها ينتالون عليه من كل ناحية ويتلقونه بالطاعة والخدمة ، فلما رآه سلطانه ذلك عَلِمَ أَنَّهُ لَا طاقه له بحربه ففر من تلمسان بجميع ما احتوت عليه يده من الذخائر والأموال .

فدخل عروج تلمسان وأقام بها سلطاناً<sup>(1)</sup> وأطلق أخوي السلطان المعتقلين ، توجه السلطان المخلوع إلى مدينة فاس مُستجيراً بسلطانها من بني مرين<sup>(2)</sup> ، ومُستعينا به على ردّ بلاده كما كانت عادة أسلافه ، وكانت قلعة بني راشد<sup>(3)</sup> من أغنى بلاد الله زرعاً وضرعاً تذهب الميرة إلى كل ناحية . وكانت وهران قد استولى عليها النصارى<sup>(4)</sup> وكانت تأتيتها الميرة<sup>(5)</sup> من قلعة بني راشد فيرتزق بذلك أهلها ويستعينون بذلك على قتال المسلمين .

1. ... ويث عروجاً لتلمسان خليفة عنه إلى أن كثر فساده فقام أهل تلمسان وفرّ لبني يزناسن فمات هناك كما مرّ . أنظر كتاب : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لمحمد بن يوسف الزيّاني ، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، سنة 1978 ، ص : 184 .
2. كان حكمهم للمغرب الأقصى وأحياناً الأوسط من 647 - 814 / 1350 - 1411 .
3. قلعة بني راشد هي قلعة من أغنى بلاد الله زرعاً وضرعاً تغطي الميرة أي الطعام لكل ناحية وكانت وهران إذّاك قد استولى عليها الإسبان وكانت تأتيتها الميرة من قلعة بني راشد : وقلعة بني راشد بلدة صغيرة في مكان مرتفع تبعد بنحو 25 كيلومتراً من مستغانم ، وأن قلعة بني راشد هي قلعة هواره في سابق الزمان ومما جاء في رسالة مخطوطة أقوال عن قلعة بني راشد تقول : «إعلم أنّ هذه القلعة تعرف بقلعة بني راشد وذلك لأن أولاد راشد بن محمد بن بطون مفراوة . وراشد هذا أخ بارين أعطاه الله القتي عشر ولدا ثم كثر نسلهم وامتدت فروعهم إلى بني ودين . وراشد هو جبل عظيم كما جاء في كتاب «مجموع الحساب والتسبب والفضائل والتاريخ والأدب» : راشد جبل عظيم أحد سلسلتي جبل درن أي الأطلس ببلاد الجزائر ممّا يلي الصحراء وفي ضمنه جبال تعرف بأسماء لها كجبل وانشرس وجبل السرسو وجبل العمور . ومن مدنه مليانة وتيهرت والقلعة ومستغانم ومازونة ومعسكر وغيرها ، ومن سهوله : يسر وعادة مدينة معسكر تدعى بالراشدية .. أنظر كتاب منقح الأزهار عمّا في مدينة فسنطينة من الأخبار ، للأستاذ سليمان الصيد ، نشر المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد ، الجزائر ، 1994 ، ص : 40-41 .
4. يقصد الإسبان الذين استولوا على المرسى الكبير عام 1505 وعلى مدينة وهران عام 1509 زمن فرناندو دي أراغون الذي توجّه عام 1516 .
5. الميرة المونة الغذائية وغيرها من المأكولات .

فلما تمكّن عروج من مملكة تلمسان<sup>(1)</sup> منع أهل القلعة من إمداد النصارى بما كانوا يمدّونهم به فضاقت أحوال النصارى بسبب ذلك واشتدّ عليهم الأمر فأنتهز الفرصة، بسبب ذلك، سلطان تلمسان المستوطن بمدينة فاس وأرسل إلى النصارى قائلاً لهم: «أنظروا إلى ما حلّ بكم حين انقطعت دولتنا عنكم وتمكّنت منها الأتراك، كيف قطعوا عنكم المزة من القلعة وغيرها، فلو كنتم أعنتموني على قتال عروج وأمددتموني بالمال والرجال ما صار أمركم إلى هذا ؟ فأنظروا الآن في هذا الأمر وتداركوا في هذه الحال قبل أن يتمادى طمع هذا الرجل إلى أخذ المدينة من أيديكم وإزالتكم عنها بالكلية؟». فلما سمع النصارى بذلك أجابوه قائلين: «أنتم لم تستعينوا بنا ولم تطلبوا منّا مدداً، ولو كنتم فعلت ذلك ( 2 ) لنا أنفسنا في نصرك وتوجيهنا إليك ما تريد من المال والرجال، والآن قد أنعمنا لك بما تريد فتوجّه إلى عدوك ونحن معك وكلّ ما تحتاجه في هذه الحركة، فتجنّ متكلفون به»، فتوجّه إليهم قائلاً: «أمدوني بحملة وافرة من المال لأنفقه على الجيوش واستخلص به المدينة من يد الأتراك، فحين ترجع العمالة إلى حكّمي ترجعون إلى ما كنتم عليه من إمدادكم بالزّرع والأنعام وسائر ما تحتاجون إليه وسبعة آلاف دينار ذهباً». وأخذوا منه رُهنًا ستين من أبناء النصارى مؤيدين له بخمسة عشر مائة. فلما سمع خير الدين بذلك وجّه جيشاً إلى قلعة بني راشد وأمر عليهم أخاه إسحاق<sup>(3)</sup>، فوصلوا إلى القلعة، فوجد بها جيشاً من نصارى وهران يحاولون أخذها، فوقع بينهم

1. يظهر من خلال المعلومات الواردة في هذا المخطوط أن فتح مدينة الجزائر عام 1516 ومدينة تلمسان عام 1517 يعود إلى عروج.

2. كلمة غير مفهومة في المخطوط، المخطوط، ص: 28.

3. هنا يظهر تدخل الأخ الثالث لخير الدين وهو إسحاق عام 1518 السنة التي سبق للزحف إليها الأخوان، عروج وإسحاق.

قتال وكان النصر لملائمة الإسلام فقتلوا منهم سبعمائة وأسروا ثلاثمائة ودخل المسلمون القلعة ؛ فلما تحصّن المسلمون بالقلعة وُردّ عليهم سلطان تلمسان بجيشه من العرب وأشياعه من النصارى وأحاطوا بهم من سائر جهاتها وشرعوا في قتالهم فخرج إليهم المسلمون يوما فاستولوا على مائة وستين من الكفار ودخلوا بهم القلعة وبقوا أيّاما وعزموا مرة أخرى على الخروج إلى القتال، فخرج بعض الجواسيس المسلمين إلى سلطان تلمسان وأعلمه بذلك، فنصب النصارى لقاءهم المدافع، فحين خرج المسلمون رموا عليهم بجملّة تلك المدافع فاستشهد جماعة كثيرة منهم ورجع بقية الجيش إلى القلعة فبقوا محاصرين في القلعة نحو ستة أشهر، فجعل النصارى نفقا في الأرض وملؤوه بالبارود فحين أخذت النار فيهم انفجرت قطعة من القلعة، فأراد المحاصرون الهجوم من تلك الفرجة فمنعهم طائفة من الغزاة، فقال المحاصرون لهم: لا بدّ من أخذ هذه القلعة ولو مكثنا عليها ستّ سنين، فركن المحاصرون إلى الموعدة ووقعت بين الفريقين شرائط منها: أن يرّد المحصورون إليهم جماعة النصارى الذين استولوا عليهم، وأن يكون بين المحاصرين ستة عشر رجلا من أعيان القلعة المحصورين رهنا، واشترط المحصورون عليهم أيضا أن يخرجوا بجملّة أسبابهم وما احتوت عليه من المتاع، فوقع الاتفاق بينهم على ذلك : فأخذ المحصورون في الخروج فنقض المحاصرون شروطهم وجعلوا يأخذون ما يخرج به أهل القلعة المحصورون من المتاع واستولوا على أمور كثيرة من غير ذلك، فدخلتهم الحميّة ونادوا بأشغال الحرب فوقع بينهم قتال عظيم فمات في هذا القتال إسحاق، رحمة الله عليه<sup>(1)</sup>، فقام مقامه رجل من خواصّه

1. وأمر ملك إسبانيا سنة 925 هجرية بغزو قلعة بلي واشدّ لما طلب منه ذلك سلطان تلمسان أبو قلموس فمزأها في جيش عمرهم ما بين جيشه وجيش أبي قلموس، فنزل عليها بالبراق ونصب مدافعه وصرّ الشكر على القلعة فخرج الناس منها ومعهم أميرها إسحاق شقيق خير الدين أول باشا بالجزائر وسأوا الأمان فأمنوا. = = =



من البحر باتفاق من الجميع، فبينما خير الدين في انتظار سلطان تلمسان بأحواز الجزائر ولم يبعد عنها إذ ظهرت له سُفُنٌ<sup>(1)</sup> النَّصَارَى تسير سير السحاب قاصدة إلى الجزائر<sup>(2)</sup>، وقد كانوا رأوهم وقت الزوال، فلما دخل وقت العصر إلا وقد أرسوا على ساحل المدينة فبعثوا إلى خير الدين كتاباً يهدّدونه فيه مُضْمَنُه: «أنظر ما حلّ بأخويك إسحاق وعروج، وما آل أمرهما إليه من الإهانة والقتل فإن لم تنج بنفسك والّا حلّ بك ما حلّ بهما فقد دانت لنا الدّولة عليكم، وقد ذهب نحسنا وأقبل سعدنا والحرب كما علمت سجال<sup>(3)</sup>».

فأجابهم خير الدين: «إن جماعتنا الذين ماتوا في حربكم أحياء يُرزقون عند الله، فقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، فهم يتنعمون في قصور وأنهار ويتمتعون بحور عين ولهم الدّرجات العلى لكونهم باعوا أنفسهم إلى الله ونحن راغبون في جهادكم فإمّا الظّفر بكم وإمّا ( )<sup>(4)</sup> إخواننا من كرامة الله سبحانه ورضوانه فأجهدوا علينا جُهدكم، فماذا لنا معشر الغزاة في قيد الحياة فإنّكم لا تظفرون من الجزائر بحجر من أحجارها، وليس بيننا وبينكم إلا السّيف حتّى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين».

فلما وصل جواب خير الدين إليهم دخلتهم الحميّة وأمرهم المُقَدّم عليهم من قبَل الطّاغية بالنّزول إلى السّاحل، فنزلوا مساء ذلك اليوم الذي قدّموا فيه، فسمع خير الدين بنزولهم فعيّن ثلاثمائة من الجند

1. يكتب صاحب المخطوط «سفون» كما يكتب الأنا.لوس، مما يدل على أنّه مغربي أو جزائري، فهم الذين

يشعبون النّطق على هذا الشكل.

2. أرادت الجيوش الإسبانيّة بقيادة ماركيز دي كوما ريز متابعة سيرها حتى مدينة الجزائر لإتمام نصرهم.

أنظر شوقالييه، ص: 36.

3. هذا التهديد يمكن أن يكون بعد 1518 .

4. كلمة غير مفهومة. وتظهر من خلال السياق أنّها الاستشهاد المخطوط، ص: 30.

برسم حراسة المدينة، ومثلهم أهلها، وجعل خمسة آلاف من الجند (١) واستعد للقاء أتم الاستعداد، وانشغل الكافر يومين عن القتال بسبب نزولهم إلى الساحل، ثم اتفقوا فرقتين وقصدت كل فرقة منهم ناحية من المدينة وصفوا صفوفهم تجاه المدينة ووقعت المحاربة بينهم براً وبحراً، فخرج إليهم خير الدين من المدينة في جماعة المجاهدين وشرع في قتالهم مستعيناً بالله عليهم، وجعل يُحرّض المسلمين على القتال تارة باليمين وتارة باليسرة وتارة في القلب، فاشتد المسلمون عند ذلك في القتال وأخلصوا نيّتهم لله عزّ وجلّ وهجموا على الكفار من كل ناحية، ومن المسلمين ما لم يكن لهم حساب، ودام القتال بين الفريقين ثم أنزل الله نصره على أوليائه المؤمنين وألقى الرعب في قلوب أعدائه الكافرين فانهزموا إلى سفنهم وتبعهم المسلمون في إثرهم فقتلوا الكثير منهم؛ وكان عدة مقاتليهم عشرين ألفاً فلم يبق منهم إلا ستة آلاف. فلما ألجأهم المسلمون إلى ناحية البحر جعلت أجفانهم ترمي بالمدافع عليهم فاضطرّ المسلمون إلى الانحياز منهم بعد ما خلصوا إلى أجفانهم؛ هذا والمسلمون لم يقلعوا عن قتالهم بقدر الطاقة إلى أن أظلم عليهم الليل فرجعوا إلى المدينة مستبشرين بهذا الفتح الذي هبّ الله لهم.

وفي أثناء هذه الحال هاج البحر هياجاً عظيماً فأنقطع في الساحل جماعة من الكفار لم يقدروا على الصعود إلى أجفانهم بسبب الأمواج المترامية، ولم يتمكن المسلمون من قتالهم بسبب المدافع التي كان أهل الأجفان يرمون بها عليهم، فخذق الكفار الذين في البرّ على أنفسهم فلم يخف على المسلمين مكانهم فرأوهم صباح تلك الليلة فخرجوا إليهم بالآلات الحربية من المدافع وغيرها فقاتلوهم ذلك اليوم وليلته واليوم الذي بعده وليلته.

١. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: ٣١.

فلما كان صباح اليوم الثالث سكن البحر وهدأت أمواجه قريب  
الأجفان من البر وجعلت ترمي بمدافعها على المسلمين، فاضطّر المسلمون  
إلى الانحياز عنهم فرجع بقية جماعتهم وما بقي لهم من الأسباب في  
البحر. وكان من قدر الله سبحانه وتعالى أنهم لما أفلعوا عن الجزائر  
قاصدين إلى بلادهم هاج عليهم البحر مرة أخرى وثار لهم الموج من  
كل مكان فألقى البحر سفنهم إلى البر فانعطبت عامتها إلا القليل، وكان  
ذلك من تمام عناية الله سبحانه وتعالى لأهل الجزائر، فقتل المسلمون  
الكفار الذين رمى بهم البحر إلى البر قتلا، وأسروا أيضا مقدم العسكر،  
ومقدم الأجفان الذي يقال له بلسان الروم الجنار<sup>(1)</sup>؛ وكان اللعين في  
أثناء انهزامه أمام المسلمين يمّني نفسه بالعودة مرة أخرى إلى الجزائر  
والاستيلاء عليها، فقطع الله رجاءه بالأسر.

فرجع خير الدين وطائفته بالأسارى إلى الجزائر وكان يوما مشهودا  
وموسما في مواسم الدهر معدودا. وحبس الأسارى في أماكن أعدت لهم  
تحت الأرض<sup>(2)</sup> ووكل عليهم وكلاء يحرسونهم. وأما الأميرال الأعظم  
فأنزله معه في قصر الإمارة<sup>(3)</sup>، وكان اللعين جريحا، فأمر بمراعاته في  
المأكّل والمشرب، والقيام عليه أتم قيام؛ فكان يطعمه أحسن الطعام  
ويغذيه بالأغذية اللطيفة إلى أن استقل من مرضه وعفي من جراحاته<sup>(4)</sup>؛

1. ورد دائما في المخطوط «الجنار» والمقصود الأميرال.  
2. تذكر بعض المصادر أن هذه الترنانات تسمى «المطامير» حتى أن هذه الكلمة دخلت إلى اللغة الأسبانية فتسميها  
«Mazmorras»، أي المطامير، وقد ذكر ذلك مرارا الكاتب الإسباني الشهير Miguel de Cervantes أثناء  
حديثه عن سنوات الأسر التي قضاه بالجزائر والتي دامت خمس سنوات.  
3. هذه إحدى معاملات خير الدين لأسواه من ذوي المكانة الرفيعة. بحيث ينزل الناس منازلهم حتى ولو كانوا  
في الأسر  
4. يقول شوقا لله: «... وفيما يخص الأسرى الذين يمكن مبادلهم بقدرة كبيرة فقد منحوا الاستراحة والامن  
حتى يحين وقت شرائهم ثانية، ص: 56

وجعل له خير الدين ذلك لأنَّ اللعين<sup>(1)</sup> كان عظيما من عظماء النصارى<sup>(2)</sup>،  
فظهر لخير الدين أن يحصل منه ما لا يرسم إعانتة على الغزو، أو يفدي<sup>(3)</sup>  
به جماعة من المسلمين الذين ظفرت بهم أيدي العدو ؛ ثمَّ إنه ألحقه  
بجماعة الأسارى المتفقين بحضرته.

ولما وصل خبر هذه الواقعة إلى سلطان تلمسان، وسمع بما منح الله  
خير الدين وعسكره من الظهور على عدوِّ الدين الكافر الذي استعان به  
المنور ورجع إلى بلاده خائبا ( )<sup>(4)</sup> ثمَّ إنَّ الكفار رجعوا إلى بلادهم لم  
ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، فاشتدَّ حُزنهم وحتقهم وخوفهم  
من خير الدين ولقبوه بلسانهم الرومي «باربارشه»<sup>(5)</sup> ؛ بحيث إنهم صاروا  
يُخوفون به صبيانهم<sup>(6)</sup>.

ثمَّ إنَّ جماعة الغُزاة قالوا لخير الدين: إنَّ الأسارى قد كثروا بهذه  
المدينة وإنَّا نخاف قد يمكروا بنا وحِصن العدو مجاور لنا فربما انتهزوا

1. - هذه الصفة التي يطلتها المُرُخون العرب - اللعين - كثيرا ما تغضب المؤرخين الأوروبيين ولا يجدون لها  
سوقا منطقيا .

2. - المقصود هنا هم الإسبان .

3. - يقول المُرُخان: Sander Rang و Ferdinand Denis في كتابهما: Histoire de Barberousse :  
كيفية ممارسة الفدية :

Dans les échanges des Captifs, les Algeriens ne donnent qu'un chretien pour deux  
Turcs; mais quand aux Maures, ils n'en prendraient point dix pour un chretien (note de  
traducteur). vol: 1 p: 113 .

4. كلمة محذوفة في المخطوط، المخطوط، ص: 32.

5. هكذا يكتب صاحب المخطوط «بربروس» دائما ؛ وهنا يؤكّد صاحب هذا المخطوط متى، ومن أطلق هذه الصفة  
على خير الدين ؛ أي صفة Barba Rossa أي اللحية الصهباء أو الوردية ؟ وهو ما يدلّ على أنَّ خير الدين هو  
أول من لُقّب بهذه الصفة من طرف الجنوئين أو الإسبان إمّا اللون لحيته التي كانت صهباء بطبيعتها أو كانت وردية  
مخضبة بالحناء وبالتالي فلا يجوز إطلاق هذه الصفة على عروج مثلا أو إسحاق ؛ وفي الحوليات الإسبانية  
نجدهم يلقّبونها Barba Roja اللحية الحمراء . . . وربما من أثر الحناء التي كان يصبغ خير الدين بها لحيته  
إمّا للوقار أو لإفزع أعدائه ؟ ونقدّر أن يكون إطلاق هذه الكنية على خير الدين بعد 1520 .

6. - هذه شهادة تؤكد مدى السطوة التي كانت لخير الدين في عرض البحر المتوسط، واعتراف الأعداء  
بالخطر الذي يشكله وسوف نجد للبابا نفسه مثل هذا الاعتراف.

فرصة وقطعوا البحر إليهم، فإن المسافة قريبة<sup>(1)</sup>، فظهر لخير الدين أن يحضر ثلاثة أنفاق تحت الأرض ويودع فيهم النصارى، ثم إنه أمر بالحديد الذي استخلصه من سفنهم المنعطة على الساحل فصنع منه قيوداً بعدد النصارى وأودعهم تلك الأنفاق المحفورة، وكل نفق يحفظ ثلاثين رجلاً؛ ثم أمر الموكّلين أن يذهبوا بخمس مائة من الأسارى ليأتوا بعدة الأجفان المنعطة على الساحل، وقد كان أخبر هؤلاء الخمسمائة من النصارى الأسارى أنهم إذا بعدوا عن المدينة يقتلون المتوكّلين بهم، ويذهبون إلى الحصن المجاور للجزائر بعلامات كانت بينهم. فلما بعدوا عن المدينة قتلوا بعض المتوكّلين بهم وفرّ البعض إلى الجزائر فأنتهى خبرهم إلى خير الدين؛ وقد كان جماعة الغزاة لا يمارقهم السلاح خوفاً من ثورة النصارى عليهم، فبعث في إثرهم العسكر؛ وقد كان النصارى نأ وصلوا إلى ساحل البحر بعث إليهم أهل الحصن قواربهم، فجعل أهل المدينة يرمون عليهم بالمدافع إلى أن منعوهم من الوصول إلى الساحل، فقتلوا جماعة من أهل القوارب، فحينئذ أدركهم العسكر المتوجّهون إليهم وقتلوا منهم أربع مائة وأربعة ورجعوا بستة وتسعين فأودعهم مع بقية جماعتهم. وكان في جملة هذا العدد الباقي غلام من النصارى صغير السن أصابته جراحة فجعله كبير المتوكّلين عنده، وجعل يعالجه من جراحته ويحسن إليه في تلك المدة إلى أن برئ، فبقي عند الموكّل يخدمه ويدخل إلى أميرالهم الأعظم بطعام خاص يأتيه به؛ وقد كان من جملة خدامه قبل الأسر، فالتمس منه الأميرال أن يأخذ مفتاح النفق من عند الموكّل ويفتح الباب ويقتلون الموكّل وجماعته وذلك<sup>(2)</sup> ( ) ويذهب إلى الساحل المجاور

1 - تقدر بحوالي 300 م كما يقول شوقاليه.

2 - كلام محذوف في المخطوط، المخطوط، ص: 33.

للمدينة ويجعلون لأهل الحصن علامة لبيعثوا إليهم القوارب فأجابهم إلى ذلك. فحين تقرر هذا بينهم وعزموا عليه رأى خير الدين في عالم النوم كأن دار كبير الموكلين بهم ترتلزل زلزلة هائلة فانتبه مذعورا من هذه الرؤيا<sup>(1)</sup> واستعاذ بالله من شرّها وتأوّل أنّ ذلك المكروه يحدث من النصارى؛ وكانت هذه الرؤيا عناية من الله سبحانه وتعالى لخير الدين وكرامة كرمه الله بها.

فلما صلى الصبح وفرغ من قراءة أوراده أتى إليه كبير الموكلين<sup>(2)</sup> على عادته ليتفاوض معه ما يحتاج إليه، سأله عن الغلام النّصراني الجريح، وقد كان علم بخبر جراحته فأخبره أنّه قد عفي من تلك الجراحات وهو عنده يخدمه، ويخدم الأميرال، فقال له خير الدين: عليّ به الساعة؛ وكان خير الدين ذا عقل وسياسة وتفطن وفراسة، فجاء به إليه، فلما وقف بين يديه استنّفه خير الدين عمّا دار بينه وبين الأميرال من الكلام موهّما للغلام أنّه عارف بما يدور بينهما من الكلام مُطلعا على أميرالهم، فأنكر الغلام أن يكون بينهما كلام أو غدر أبداً سوى الدّخول والخروج وما يتلقّى بخدمته، وصار الغلام في أثناء ذلك يرتعد كأنّه ورقة في ريح عاصف بحيث إنّ لا يخفى على من رآه أنّه مُرتاب، فتهدّده خير الدين وبالع في زجره فحينئذ أقرّ له الغلام بما عزم عليه الأميرال من الثورة والخروج إلى ساحل المدينة والذهاب منه إلى الحصن. فقال له خير الدين: هذا الأمر

1 - الفرق بين الرؤيا Sonje prophetique والرؤية: يفرّق الشيخ محي الدين بن عربي بين الرؤيا والرؤية فيقول: أعلم أنّك الله أنّ للإنسان حالتين: حالة تسمّى النّوم وحالة تسمّى اليقظة، وفي كلتا الحالتين قد جعل الله له إدراكا يدرك به الأشياء تسمّى تلك الإدراكات في اليقظة حسّاً وتسمّى في النّوم حسّاً مشتركاً؛ فكل شيء تبصره في اليقظة بسمي رؤية، وكل ما تبصره في النّوم بسمي رؤيا... الفتوحات المكية، المجلد الثاني، الباب الثامن والثمانون ومائة في معرفة مقام الرؤيا وهي المبشرات، دار الفكر، ص: 375.

2. في الكتاب المترجم Histoire de Barberousse يقول وجاء Le Gardien Bachi جزء 1، ص: 115.

وقع باتفاقهم أم انفرد به الأميرال فقط؟ فقال له الغلام: قد اتفق عليه الجميع على ما ذكرته لك، فأمر عند ذلك خير الدين أن يأتوا بالأميرال بين يديه، فحين مَثَلَ بحضرته قال له الحديث الذي سمعه عنه، وأخبره بما ذكر له الغلام، وجعل خير الدين يُويّخه ويذكر له إحسانه السالف معه، وما كان فعله معه في حالة مرضه من إكرامه والقيام عليه بنفسه، وقال له في أثناء كلامه: لو غيرك عزم على هذا الأمر كُنت أنت تمنعه وتأخذ بيده عنه لما فرط من إحساني عليك وأنت تعلم ذلك فسقط في يد النصرائي وأجابه قائلاً: جميع ما قلته حق، وأنت أحسنت إليّ وأنا قابلتك بالإساءة فلذلك أطلعك الله على ما عزمْتُ عليه؛ لكن يا مولانا جرت عادة الأسير أنَّهُ يسعى في تخليص رقبته بكلِّ ما يمكنه من الحيلة، وعلى سيدي أن يحتاط في أمره ويُباليغ في حراسته. فأمر به خير الدين أن يُردَّ إلى محبسه. ثمَّ إنَّ الطاغية، لعنه الله، وجّه إلى أهل الحصن المجاور إلى الجزائر بأن يبعثوا إلى خير الدين في شأن فداء رؤساء الأسارى الذين عنده، وهم ستّة وثلاثون رايسا كما تقدّم، وبذل أهل الحصن فيهم مائة ألف وعشرين ألف دينار ذهباً<sup>(1)</sup> فرَضِي بذلك خير الدين، فبعثوا إلى الطاغية وأعلموه بذلك فوجّه إليهم المال وأعلموا خير الدين بوصول المال إليهم، فجمع فقهاء الجزائر واستفتاهم في ذلك<sup>(2)</sup> فاتفقت فتواتهم على عدم جواز فداء الأسارى بالمال<sup>(3)</sup> وقالوا له: أيُّها الأمير إنَّ هؤلاء من أعيان النصاري

1. ورد في كتاب «Histoire de Barberousse» في الجزء الأول، ص: 121. Cent vingt mille ducats.

والدوكا هي العملة المتداولة آنذاك.  
2. يبرز هذا المخطوط طريقة الحكم الذي اتبعه خير الدين في الجزائر فهو دائماً يستشير العلماء في مختلف القضايا.

3. جاء في كتاب: «Histoire de Barberousse» الجزء الأول ص: 121 ما يلي حول طريقة ومبلغ فدية الأسير آنذاك « Dans ce moment-ci (fin du 18 siècle) , le rachat d'une personne de marque à Alger, n'exige guère moins de cent mille francs. (Note de traducteur).



بها جابههم  
ين في عالم  
مذعورا من  
يحدث من  
خير الدين

كلين<sup>(2)</sup> على  
الجرع  
احات وهو  
عة : وكان  
وقف بين  
أم مؤهها  
م، فانكر  
وما يتعلق  
ف بحيث  
في زجره  
روج إلى  
ذا الأمر

الرفقة  
ين قد جعل  
كل شيء  
اني، الباب

وقع باتفاقهم أم انفرد به الأمر  
الجميع على ما ذكرته لك، فأمر  
بين يديه، فحين مثل بحضوره في  
بما ذكر له الغلام، وجعل خير الدين  
وما كان فعله معه في حالة مرضه من  
في أثناء كلامه: لو غيرك عزم غروب  
عنه لما فرط من إحساني عليك وأنف  
وأجابه قائلا: جميع ما قلته حق، وأنت  
فلذلك أطلعك الله على ما عزم عليه  
أنه يسعى في تخليص رقبته بكل ما يقد  
يحتاط في أمره ويبلغ في حراسه، فأمر بغير  
ثم إن الطاغية، لعنه الله، وجه إلى أهل الحصار  
يبيعثوا إلى خير الدين في شأن فداء رؤساء الدين  
وثلاثون رايسا كما تقدم، وبذل أهل الحصار  
ألف دينار ذهبا<sup>(1)</sup> فرضي بذلك خير الدين  
بذلك فوجه إليهم المال وأعلموا خير الدين  
فقهاء الجزائر واستقنهم في ذلك وقت  
فداء الأسارى بالمال<sup>(3)</sup> وقالوا له: أيها الأمير، فداء رؤساء الدين

1. ورد في كتاب Histoire de Barberousse في الجزء من أن  
والشوكا هي العملة المتداولة آنذاك.  
2. يبرز هذا المخطوط طريقة الحكم الذي شبهه فخر الدين في تعريضه لغيره من  
القضايا يا،  
3. جاء في كتاب، Histoire de Barberousse، Le récit d'une personne de marque à  
آنذاك  
(Note de traducteur).

هو  
مقد  
م قبول  
ص: 38



تحصل على هذا المال فإني أستخرجه، فاستشار العلماء في ذلك فأفتوا له بعدم الجواز فأمر بالأميرال أن يلقى في بئر<sup>(1)</sup> فعندئذ انقطع رجاؤه منه ورجعوا بأسوأ خيبة.

ثم إن خير الدين عزم على السفر إلى إقليم الروم لأجل الغزو ومواصلته الجهاد فجمع أهل الجزائر كلهم، وجمع أعيان الجزائر من العلماء والصلحاء والمشايخ وقال لهم: «إني عزمْتُ على السفر إلى حضرة السلطان وقد أمنتُ الآن على بلادكم بما أخلفه عندكم من العسكر المجاهدين، وقد وصل إليكم من أهل الأندلس عدد كثير<sup>(2)</sup> وعندكم من السلاح والعدة ما تقومون به بأمر الجهاد، وعدوكم الكافر قد نكبه الله تعالى وردّه على أعقابهِ مذموماً مدحوراً فلا مَطْمَع له في غزو بلادكم مرّة أخرى، وإني لما قدّمت إليكم لم يكن عندكم مدفع واحد والآن قد تحصل بأيديكم ممّا قد خلفه العدو أكثر من أربعمئة مدفع فأختاروا واحدا منكم يكن من خياركم تُقدّمونه عليكم<sup>(3)</sup>، وقد كان استعمل على

1. - ورد في كتاب «Histoire de Barberousse» الجزء الأول، ص: 125 غير هذه النّهاية بحيث يقول: .. et jeté dans un four à chaux afin que personne ne put être tenté de profiter des ses dépouilles sacrilège.

2. هذه شهادة تاريخية تدلّ على احتضان الجزائر آنذاك لجالية معتبرة من الأندلسيين المهجرين قصراً والمعروفين بالتسمية الإسبانية Los Moriscos. وهناك فرق في الأدبيات الإسبانية بين مصطلحي: «Moriscos» و«Mudejares»؛ فالأول هو تسمية تطلق على جميع المسلمين الأندلسيين الذين بقوا تحت الحكم الإسباني بعد سقوط غرناطة عام 1492 ويمقتضى الاتفاقية المبرمة بين الملكين الكاثوليكين: لإيزابيلا وفرناندو وأبي عبد الله الصغير والتي تضمنت سبعة وستين بنداً (67) ... أنظر تفاصيلها في كتاب «دليل الحيران لحمد بن يوسف الزياتي من ص: 139 إلى 140؛ أما «الموديخار» فهم طائفة من المورسكيين أيضاً سكنوا مناطق الشمال بنافارا وأراغون وتوطنوا إلى درجة التدجين الكلي والذوبان في المجتمع الإسباني المسيحي الذي اعتمد على مهاراتهم كيد حرفية صنّاع، ومن هناك جاءت تسمية «المدجنين»، وانعدمت الثورات تقريباً في مناطقهم. وتسمية «المورسكيين» هي تسمية أطلقت عليهم من طرف الإسبان المنتصرين للتحقير من عرقهم ودينهم، وهي ردّ مباشر على التسمية التي أطلقها الفاتحون العرب على الإسبان الذين بقوا على دينهم وتسموا «بالمستعربين» Los Mozarabes، أو المعاهدين.

3. لقد عالج خير الدين باستمرار كلّ المواقف باللجوء إلى المشورة وهي سمة عرفت بها مدّة حكمه للجزائر.

وانما استوليت عليها بعناية الله تعالى وخلصتها من يد العدو الكافر، وكذلك أخي عروج<sup>(1)</sup> رحمه الله تعالى، وكان الواجب على هذين الرجلين أن يكونا معي يدا واحدة على دفاع عدو الدين وجهاد أعداء الله الكافرين، قد رأيتم ما وقع منهما وما قابلاني به، وقد ظهر لي من الرأي أن نعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه وتعالى ونصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم، مولانا السلطان سليم نصره الله<sup>(2)</sup> فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه وضرب السكة عليه<sup>(3)</sup>.

فرضي أهل المدينة وصرفوا رأيه في ذلك، فأمرهم أن يكتبوا على لسانهم كتابا إلى حضرة السلطان يخبرونه بصرف طاعتهم إليه، وأنهم من جملة من تنفذ فيهم أحكامه ويقع فيهم نقضه وإبرامه. ويكتب هو أيضا مثل هذا الكتاب. فرضي أهل المدينة بذلك وكتبوا كتابا كما أمرهم، وكتب هو أيضا آخر.

1 - قتل بجبل بني يزناسن. أنظر دليل الحيران ... ص: 176 .

2. هو السلطان سليم الأول الملقب بالقاطع ولد سنة 875 هجرية وتوفي في الحادية والخمسين من عمره أي في 926 هجرية الموافق لسنة 1520 ميلادية بعد فتوحات كثيرة من أبرز ما جاء فيها "أن محمد المتوكل على الله آخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر أجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر الخلافة العباسية في قبضة هولاكو التتري سنة 656 هـ الموافقة لسنة 1019 ميلادية وكانت له الخلافة بمصر اسما تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم العثماني وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي: البيرق والسيف والبردة وسلمه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفين ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسما وفعلًا. أنظر كتاب: تاريخ الدولة العلية، ص: 73 - 78 .

3. هذه هي الشروط التي وضعها خير الدين على سكان الجزائر من أجل بقاءه معهم وبإلحاح منهم وهو ما يكذب أطروحة القائلين باحتلال الأتراك للجزائر وكان ذلك في حدود 1519. يقول شوقالييه: وبعد مدة قليلة من موت عروج تعرف خير الدين على سليم الأول وفي السنة الموالية في 51 من شهر مارس 1519 تم قبول الاقتراح الذي قدمه خير الدين للسلطان ودخلت مدينة الجزائر تحت الحماية، Régence، العثمانية. ص: 38 وتفاصيل أكثر ص: 40، 39 .

## إرسال خير الدين الهدية إلى السلطان وصرفه الخطبة إليه والسكة باسمه في بلاد الجزائر

وعين أربعة أجناف برسم السفر إلى حضرة السلطان وقدم عليه رجلا  
من خواص أصحابه اسمه الحاج حسين<sup>(1)</sup> ووجه صحبتهم هدية عظيمة  
من جملتها أربعة رؤساء من رؤساء النصارى العظام.  
فوصلت الأجناف إلى حضرة السلطان سليم. فلما أرسوا بمرسى  
قسطنطينية العظمى وقابلوا قصر السلطان رموا على حسب ما جرت به  
العادة مدافع كثيرة ونزلوا بتلك الهدية إلى الوزير الأعظم، فأعلم السلطان  
بقبضهم وأوصل إليه الهدية التي قدموا بها فقبلها السلطان وأمر بإنزالهم  
واجراء النفقة عليهم. ثم إنهم لما أرادوا الرجوع وجه صحبتهم سنجقا إلى  
الجزائر بقبول ما كتبوا إليه وأنهم من تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته.  
وقد كان القونص<sup>(2)</sup> المستقر بالقسطنطينية من قبل البنادقة<sup>(3)</sup> أعطاهم

1. جاء في كتابه تاريخ الدولة العلية: ... وقتل أمير الجزائر - سليم تومي الثعالبي - وأرسل من قبله أحد أتباعه واسمه الحاج حسين إلى السلطان سليم (وقد كان أتم فتح مصر) ليخبره بفتح مدينة الجزائر باسمه الشريف فقبله السلطان وعين خير الدين باشا بكاربك على إقليم الجزائر وبدا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه. ص: 95.

2. بقصد الفصل Bailli de Venise.

3. البنادقة نسبة إلى البندقية الواقعة على البحر الأدرياتيكي وهي أهم الثغور التجارية فإنها هازت في مسابقة جمهورية فينيس ولم تنو على مجارة جنوة إلا لما استولى عليها الاختلال وصارت سيده البحار إلى أن اكتشف رأس الرجاء الصالح بطرف إفريقيا الجنوبي الموصول إلى الهند واكتشفت قارة أمريكا الجنوبية فتحولت التجارة إلى هذا الطريق الجديد وضعفت البندقية، واشتهرت هذه الجمهورية بمحاربة العثمانيين الذين جردوها من جميع أسلاكها شيئا فشيئا فأخذ منها السلطان محمد الفاتح جزائر اليونان وما كان لها بلاد مورة. وفي سنة 1571 استولى السلطان سليم الثاني على جزيرة قبرص. وفي سنة 1696 فتح السلطان محمد الرابع جزيرة كريد وكانها ناهمتين لها. وفي سنة 1797 احتلها الفرنسيون ثم ضمت إلى النمسا وفي سنة 1805 ضمت إلى إيطاليا. وفي سنة 1859 تنازلت عنها النمسا إلى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا وهو تنازل عنها إلى فيكتور إيمانويل ملك ميمونتي الذي صار فيما بعد ملك إيطاليا ولم تزل تابعة إلى إيطاليا حتى الآن ... أنظر تاريخ الدولة العلية ص: 64.

الذي يُسمّيه أهل البحر الباسبرطاً<sup>(1)</sup> يتضمّن حمايتهم من كل ما يلقونه من أجنان العدو الحربية، فحملوه معهم وسافروا راجعين إلى الجزائر. فلما كانوا في أثناء السفر لقيهم ثمانية أجنان من أجنان البنادقة فأروهم الكتاب الذي أعطاهم القنصل فقبلوه منهم في الظاهر، وكان ذلك منهم مكرًا وخيانة وقالوا لهم: لا بدّ لنا من الذهاب معاً إلى ناحية أناضول<sup>(2)</sup> خشية عليكم من بعض الأجنان الحربية فيستولون عليكم ونُعاقب نحن بكم، فأعتر بذلك المسلمون وذهبوا معهم إلى ناحية أناضول فهجموا عليهم وصدموهم صدمة واحدة ولم تكن للمسلمين بهم طاقة ففرّقوا ثلاثة أجنان للمسلمين ولم ينج منهم إلا ثلاثة أنفُس.

وأمّا الجفن الرابع الذي فيه مُقدّم الجيش فإنّه عطب على الساحل وخرج الكفّار في إثرهم فقتلوا كثيراً من المسلمين وفرّ الباقيون من بين أيديهم. وأمّا مقدّم الجيش فإنّه دخل أناضول وكان بقربها كما ذكرناه، ولقي قاضي المدينة وأخبره بما جرى على أجنان المسلمين، وكيف مكر بهم كُفّار البنادقة. فكتب القاضي بذلك كتاباً إلى حضرة السلطان يعلمه بما جرى على أجنان الجزائر، وعيّن لحامل الكتاب مركباً بما يحتاج إليه من آلة السفر، وسافر فيه مقدّم أجنان الجزائر.

فلما وصلوا إلى الحضرة دخلوا إلى الوزير الأعظم وقدموا إليه كتاب قاضي أناضول فلما قرأ الكتاب استغاض من ذلك استغاضاً شديداً وبعث إلى قنصل البنادقة<sup>(3)</sup> يتهدّده ويعلّمه أن أجنان أهل الجزائر إن وصل خبرها إلى السلطان قبل أن تردّوها يقع عليكم بلاء عظيم من قبله، فامتثلوا إلى

1. الجواز أو تأشيرة العبور.

2. هكذا ورد في المخطوط ولعله يعني شيئاً آخر غير أناضول.

3. Bailli de Venise.

أمر الوزير وردّوا لهم جملة ما ضاع لهم من الأجناف والأسباب وغيرها، فرجع مُقدّم الجيش إلى مدينة أناضول فوجد بها الثلاثة رجال الذين نجوا من الأجناف التي استولى عليها العدو، فذهب الجميع إلى جزيرة بقرب أناضول فوجدوا بها الأجناف التي أغرقها لهم العدو فركبوا فيها ورجعوا إلى الجزائر.

فلما دخلوها ووقفوا بين يدي خير الدين وصفوا إليه أمر السلطان والسَّجَق الذي وجّهه صُحبَتهم وأعلموه أنّه قبل طاعة أهل الجزائر، وأذن لهم في صرف الخطبة والسِّكّة إليه كما تضمّنه الكتاب الذي وجّهه معهم، ففرح بذلك خير الدين فرحا شديدا وسرّ به سرورا عظيما إلا أنّه حصل له بعض الحزن على ما وقع على أجنافه من النكبة التي حصلت لهم من عدوّ الدين، واستقرّ خير الدين أميرا من قبل السُّلطان الأعظم سليم خان، وصرف دعوتها إليه وأمر بذكره على منابرها وضرب السِّكّة عليه<sup>(١)</sup>.

فلما سمع بذلك سلطان تونس دخلته الغيرة من خير الدين فوجّه إلى سلطان تلمسان خطابا يقول فيه: «أنظر إلى مملكة الأتراك كيف استقرت بالجزائر وإنّ هذا الرجل، وهو خير الدين، إن دامت أيّامه واتّصلت في المملكة أعوامه فلا بدّ أن يستولي على ما بيني وبينك فانظر لنفسك فإنّ هذا الرّجل قد فتح عمالة الجزائر واستولى على مدينتها بطائفة قليلة من العسكر الذين كانوا يغزون معه في البحر». وأمّا الآن فإنّ له مدد يأتيه من السلطان العثماني في البحر وجميع ما يحتاج إليه متيسّر من قبله وهو يتفرّغ لي ولك، ويسلبنا ملك آبائنا وأجدادنا فتدارك هذا الخرق قبل أن

١. يقول صاحب كتاب: تاريخ الدولة العلية ... ص: 95 «وعين السلطان خير الدين باشا بكريك على إقليم الجزائر وبدا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه».

يُسَبِّحُ وَأَكُونُ أَنَا وَأَنْتَ عَلَيْهِ يَدَا وَاحِدَةً، وَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنَ الرَّأْيِ أَنَّكَ تَضْرِبُ  
بَيْنَ مُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ وَبَيْنَ خَيْرِ الدِّينِ وَأَضْرِبُ أَنَا بَيْنَ أَحْمَدَ بْنِ الْقَاضِي  
وَبَيْنَهُ (١) فَإِذَا دَخَلَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ فِي يَدِهِ وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمَا الْعَدَاوَةُ تَأْتِي لَنَا  
جَمِيعٌ مَا نُرِيدُهُ عَلَيْنَا؟»

فَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُ سُلْطَانِ تُونِسَ إِلَى سُلْطَانِ تِلْمَسَانَ حَرَّكَ مِنْهُ، وَعَلِمَ  
أَنَّ خَيْرَ الدِّينَ لَا يَقِيلُ عَثْرَاتِهِ، وَلَا يَنْسَى لَهُ فِعَالَتَهُ الَّتِي فَعَلَ مَعَهُ: مَنْ قَتَلَ  
أَخُوهُ عَرَّوَجَ وَإِسْحَاقَ وَاجْلَابَهُ النَّصَارَى عَلَيْهِ... وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا وَقَعَ مِنْهُ  
فِي جَانِبِهِ.

فَأَخَذَ فِي النَّظَرِ بَيْنَ مُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ وَبَيْنَ خَيْرِ الدِّينِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ كِتَابًا: «  
إِنِّي نَاصِحُكَ وَمَحْذَرُكَ مِنْ خَيْرِ الدِّينِ غَايَةَ التَّحْذِيرِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَغْدُرَ  
بِكَ وَيَسْتَوْلِيَ عَلَيْكَ فَإِنْ أَطَعْتَنِي وَقَبِلْتَ نَصِيحَتِي فَاصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُ  
إِلَيَّ وَاجْعَلْ يَدَكَ مَوْصُولَةً بِيَدِي عَلَى مُحَارِبَتِهِ وَالْإِنْقِلَابِ عَلَيْهِ وَالْأَفْئَةُ إِنْ  
دَهَكَتْكَ مِنْ قَبْلِهِ نَابِيَةٌ؛ وَأَرَدْتُ الْإِنْحِيَاذَ إِلَيَّ وَالْإِنْضِمَامَ إِلَى نَاحِيَتِي فَإِنِّي لَا  
أَقْبَلُكَ فَتَدَبَّرْ فِيمَا قُلْتَهُ لَكَ، وَالسَّلَامُ؟»

وَأَمَّا سُلْطَانُ تُونِسَ فَأَفْئَتَهُ يَبْعَثُ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ الْقَاضِي (٢) كِتَابًا مُضْمَنَهُ  
مِثْلَ كَلَامِ صَاحِبِ تِلْمَسَانَ وَأَزِيدَ. فَأَجَابَهُ أَحْمَدُ بْنُ الْقَاضِي: «يَا عَجَبًا،  
أَيُّ شَيْءٍ فَعَلَهُ مَعَكَ خَيْرُ الدِّينِ مِنَ الشَّرِّ حَتَّى تَكْتُبَ لِي فِيهِ مِثْلَ مَا كَتَبْتَ،  
فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى خِيَانَتِهِ وَلَا يُسَاعِدُنِي قَلْبِي عَلَى الْمَكْرِ بِهِ، فَقَدْ رَأَيْتُ فِي

١ - يقول شوقالبية: «... إِنَّ الْوَضْعَ سَيِّئًا لِلْغَايَةِ فَقَدْ تَخَلَّى ابْنُ الْقَاضِي الْحَلِيفُ الْقِبَالِيَّ عَنِ الصَّفْرِفِ وَتَحْدِيدِ  
أَسْبَابِ هَذَا التَّخَلِّيِّ صَعْبٌ؛ هَلْ كَانَ انْتِهَامُهُ بِالْخِيَانَةِ أَنْشَاءَ سِيرِ الْمَرْكَةِ ظُلْمًا؟ أَوْ أَنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّ الْوَشَايَةَ هِيَ تَعْدِيَةٌ  
مِيَاظِرُهُ؟ هَلْ كَانَ مَدْفُوعًا مِنْ سُلْطَانِ تُونِسَ الَّذِي يَرْغِبُ فِي ذَلِكَ هَذَا التَّحَالُفَ مَعَ بَرْبُرُوسَ الَّذِي أَصْبَحَ قُوَّةً  
جَدًّا؟ أَوْ بِبَسَاطَةِ أَنَّهُ لَمْ يَغْفِرْ أَبَدًا لَمُوتِ سُلَيْمٍ تَوْمِي الَّذِي كَانَ أَحَدَ أَقْرَبَائِهِ؟» ص: 36، 37.

٢. سبق التعريف به ولا يستبعد علاقته بالحفصيين لأنَّ جَدَّهُ كَانَ أَحَدَ قَضَاةِ بَهَايَةِ لَمَّا كَانَتْ تَحْتَ الْحُكْمِ  
الْحَفْصِيِّ، وَابْنُ الْقَاضِي هُوَ مِنْ قَبِيلَةِ الْغُورِيَّةِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ سُلَيْمٍ تَوْمِي كَمَا يَذْكُرُ شُوقَالْبِيَّةُ قَرَابَةً.

أنتما مخيران إن شئتما ذهبتما إلى أخيكما، وإن شئتما أقمتما عندي؟  
فاختارا الذهاب إلى تلمسان وجمعا عليهما طائفة من العرب. فلما قربا  
من أحواز تلمسان توهُّما من أخيهما شراً فقرّ أحدهما إلى وهران<sup>(1)</sup>،  
وأما الآخر فإنه دخل في عمالة خير الدين وبعث إليه يستلطفه ويتذمّم له  
ويستعين به على ملك تلمسان، فركب إليه خير الدين ووافقه على ما أراد  
منه لما كان في قلبه على صاحب تلمسان من الأحقاد المتواصلة. فبعث إلى  
أشياخ العرب كتابا يدعوهم فيه إلى خلع صاحب تلمسان، وبعث أخاه هذا  
وكان اسمه مسعود<sup>(2)</sup> فأجابه كافة العرب إلى ذلك واجتمع مع المسعود  
من معه من العرب والعسكر الذي وجّهه إليه خير الدين إلى تلمسان، فقرّ  
صاحبها ودخلها المسعود وأقام بها سلطانا تحت نظر خير الدين.

فلما رجع عسكر خير الدين إلى الجزائر حدثته نفسه بالاستقلال  
بالمملكة والخروج على طائفة خير الدين، فبعث إلى أهل وهران من  
النصارى يصل يدهم بيده ليكونوا يداً واحدة على حرب أهل الجزائر  
من طائفة الأتراك ونزعها من يدهم. فلما سمع بذلك خير الدين وجّه  
إليه كتابا يلومه فيه على ما فعل ويخبره عاقبة أمره ويقول له فيه: «إن أنت  
تماديت على مولاة النصارى والانحياز إليهم فلا بد أن أنتقم منك غاية

1. هذه المدينة الشهيرة التي تقع على الساحل الغربي من القطر الجزائري وضع من حولها الكاتب محمد بن يوسف الزياني كتابا كاملا سماه «دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران» وحققه العلامة المرحوم الشيخ المهدي البوعبدلي، وجاء في التعريف بمؤسس وهران قوله: «اعلم أن أول من اختط وهران، أي بناها وأسسها ومدنها وحرسها هو المغراوي خزر بن حفص بن صولات بن وزمان بن صقلاب بن مغراو... وذلك في عام اثنين وتسعين وقيل إحدى وتسعين وقال: واختلف في سبب تسميتها بوهران عل سبعة أقوال: الأول إنما الأخير هو الأصح...» ص: 31 وما بعدها، وقال: واختلف في سبب تسميتها بوهران عل سبعة أقوال: الأول إنما سميت بذلك لكون خزر الذي اختطها لقبه وهران فسميت به، ويقال إن وهران بلغة زناتة هو الثعلب وذلك أن مغراوة لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا به غارا فيه ثعلب واسم الثعلب بلغتهم وهران فسموها بذلك وغيره أنظر تفاصيل أكثر في صفحة: 32.

2. يسميه صاحب كتاب دليل الحيران في أخبار مدينة وهران: «المسعود حفيد الملح رضوان» ص: 144.



الانتقام، وأجعلك حديثاً بين الأنعام، فانظر لنفسك وجدّد إسلامك وتبّ إلى الله عزّ وجلّ من هذا الذنب العظيم، فإنّ الله يقبّل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات» .

وقد كان خير الدين لما وجّه الكتاب إليه أخذ في تجهيز المحلّة والاستعداد إلى لقاءه فإن أظهر الرجوع والإنابة إلى الطاعة أضرب عن الحركة إليه ولا تمادى على هذه الحركة حتّى يخلّص منه الوطن ويستولي على المدينة؛ وقد كان أخو المسعود المذكور قرّاً إلى وهران وأقام عند النصارى<sup>(1)</sup>؛ فلما سمع ما وقع بين خير الدين وأخيه المسعود طمع في تمكّك تلمسان مرّة أخرى، فبعث إلى رجل صالح من صلحاء الوطن يستشفع به إلى خير الدين؛ وكان ذلك الرّجل حاضياً عند خير الدين لا يرّد له أمراً، وكان من جملة ما قال له صاحب تلمسان المعاشر عند النصارى: «إن خلّصني خير الدين وردني إلى ملكي أكون عبداً من عبده يتصرّف فيّ كيف يشاء، وأنا تائب إلى الله من مخالفته والخروج عن أمره»؛ فتوجّه ذلك الرّجل الصّالح إلى خير الدين إلى الجزائر برسم الشّفاعاة في صاحب تلمسان، فلما قدّم على خير الدين أجمل لقاءً وأكرم نزوله، وبالحق في تعظيمه فأنهى إليه شفاعته في صاحب تلمسان المخلوع؛ فكان من جملة ما قال له خير الدين: «يا شيخ إنّ ذلك الرّجل قد رسخ الكفر في صدره، وهذا القبيل من ملوك تلمسان لا يقرّون بخير ولا يشكرون على نعمة، ولا يقابلون على الجميل إلّا بالقبیح؛ أنظر أخيه مسعود كيف أعنته على الملك وبعثت إلى أشياخ العرب وانحيازهم إليه بطائفة من العسكر على ملك تلمسان، فلما حصل عليها استقرّ بها ونشب مخالفه في الوطن وأنكر الإحسان الذي أسلفته إليه

١: المقصود بالنصارى الإسماعيليين المقيمين بمدينة وهران منذ ١٥٠٩ ومن قبلها المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ .



وقابل الجميل بالقبيح، وصار يستعين بالنصارى على حربنا ويحثهم على الإغلاب علينا، وأنت تعلم أيها الشيخ هذا، وحاشى أهل الإسلام أن يكون منهم هؤلاء القوم، ولكن لأجلك أيها الشيخ أقبل هذا العذر الذي اعتذر به هذا الخائن وأتجاوز عما فرط منه<sup>(1)</sup>.

ثم إن خير الدين بعث إليه ليقدم عليه إلى الجزائر ويتفاوض معه في أمر تلمسان فأجابته بالكتاب يقول فيه: «أنا لا أقدر على القدوم عليك خوفاً من أخي فإنه جعل من يرصدني في الطريق يرسم إمساكي إذا قدمت إليك، وإذا أردت أن يحصل الغرض الذي طلبته منك فاعمل الحركة إلى مدينة مستغانم<sup>(2)</sup>، فإذا اقتحمتها أقت أنا بها وبعد ذلك يقع الرأي على استخلاص تلمسان والتوصل إليها»؛ فوقع الاتفاق من خير الدين على ذلك، وجّهز إلى مستغانم ثمانية وعشرين جفنا بجمع ما يحتاج إليها من العدة والعدد، وجّهز حملة عظيمة في البرّ فيها عسكر عظيم عازماً على حصارها براً وبحراً فيسر الله فتحها واستخلصها من يد صاحب تلمسان المسعود.

فلما استقرّ على ملك خير الدين خرج إليها مولانا عبد الله من وهران واستقرّ بها فسرّ سرورا عظيما، وكانت الأجفان التي وجّهما خير الدين إلى مستغانم لما حصل لهم الغرض من فتحها ذهبوا إلى بلاد الأندلس يرسم ترحيل من رضي منهم إلى بلاد المسلمين فحملوا منهم خلقا كثيرا ورجعوا بهم إلى الجزائر<sup>(3)</sup>.

1. يلاحظ هنا مدى تقدير خير الدين لعلماء الدين فهو لا يرد لهم شفاعة.
2. مدينة قديمة تكرر ذكرها عند المؤرخ التنسي، وغيره من المؤرخين والزّحاة القدامى، وهي واقعة على شاطئ البحر على بعد 90 كيلومتر شرق وهران بالغرب الجزائري، وتكتب اليوم من دون باء بعد النون.
3. هذه إشارة تاريخية هامة تؤكد وصول الكثير من الأندلسيين المروفين باسم المورسكيين إلى الجزائر واتخاذها وطناً لهم، والفضل في كل ذلك يعود إلى جهود خير الدين الكبيرة.

وأما المحلة التي كان وجهها خير الدين إلى مستغانم فإنه لما وقع فتح مستغانم ذهب إلى قلعة بني راشد<sup>(1)</sup> فاستولت عليها واستخلصها من يد المسعود ومن ثم توجه إلى تلمسان برسم أخذها صُحبة مولانا عبد الله، فحين بقيَ بينها وبين المدينة مرحلتين خرج المسعود برسم لقاءها، فلما حصل بينهما اللقاء ناوشه أهل المحلة الحرب فلم يثبت بين أيديهم وانهزم بمن معه إلى المدينة فاستولى على جميع أهل محلته المخالفة، فقصده أهل المحلة المدينة ونزلوا عليها فجعل يقاتلهم أيّاما ؛ وكان أهل المحلة لم يكن عندهم شيء من المدافع فأقاموا عندهم عشرين يوما ولم يتأت لهم وجه في فتحها، فاتفق أهل الرأي من المحلة أن يظهروا الضرارَ ويتركوا ستين خيـاباً بأسبابها وما احتوت عليه من الحوائج فإذا اشتغل أهل المدينة بالنهب رجعوا عليهم ( )<sup>(2)</sup> منهم إلا القليل ؛ فلما كان صباح تلك الليلة خرج العسكر من الأخبية كالمنهزمين وجعل عريهم يطلبونهم من ورائهم باتفاق وقع بينهم في ذلك تمويها على أهل المدينة، فلما رأى ذلك أهل تلمسان قالوا: إنَّ التَّرك قد هربوا فخرجوا وخرج معهم المسعود لنهب المحلة وأتباع أهلها فوجدوا الأخبية التي تركوها خاوية ليس فيها أحد، ووجد في أهل العسكر رغبة في الظفر بهم والإتيان على جميعهم. فلما وصل إليهم بأهل تلمسان استلَّ العسكر سيوفهم وحملوا عليهم حملة رجل واحد فاشتغل الرَّجل بالرَّجل والرَّكـاب بالركـاب فلم تمض إلا ساعة حتَّى

1. قلعة بني راشد مشهورة بنسج الزرابي، ولا زالت إلى الآن ينسجها نسوة البلدة ونواحيها بأيديهن، وهي مشهورة في الأسواق ومعروفة، ويرى بعض المؤرخين الأتريين أنَّ هذه الصناعة قديمة جداً، أي قبل الإسلام ويستدلون على ذلك بزهرة عليها، دليل الحيران ... ص: 191. وقلعة بني راشد كما سبق وأن ذكرنا هي التي قتل فيها الأخ الأكبر لخير الدين إسحاق سنة 1518، وهي القاعدة الخلفية التي كان يتزود منها الإسبان المحتلين لوهزان بالمؤونة والغذاء.

2. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 42.

انهزمت جماعة المسعود؛ وقد كان خرج معه من الرجال ثلاثمائة فلم ينج منهم واحد. وأما جماعة فرسانه فلم ينج إلا من كان له جواد من عتاق الخيل؛ ثم إن العسكر رجعوا إلى أخبيتهم المخلفة واستقروا بها. وأما المسعود فإنه دخل إلى تلمسان مهيبض الجناح مفلولاً، ولما رأى أهل البلاد ذلك، وأنهم لا طاقة لهم بحرب عسكر أهل الجزائر، بعثوا إليهم قائلين: «إننا لا نحاربكم بل نحن طائعون للأمير خير الدين ولمن يوليّه علينا، وإنما أطلعنا المسعود ظاهراً خوفاً منه، وقد كانت طاعتنا سابقة إليكم، فإن عرج بما كان مستقراً عندنا كنّا نحن من جملة عسكره.

ثم إن أهل البلد عيّنوا للعسكر موضعاً لدخولهم المرتقى ووضعوا لهم سلالماً بغرب ذلك المحلّ، فلما كان ربيع الليل الأخير<sup>(1)</sup> ذهب العسكر إلى ذلك الموضع الذي عيّنه لهم أهل تلمسان فوجدوا بقرية السلالم قنصبيوها وصعدوا عليها إلى الصور؛ وكان عدد الصّاعدين مائتين فنزلوا إلى المدينة فقتلوا جماعة من أهل الحرس الذين كانوا على الباب، وذهب جماعة إلى المسجد الأعظم فصعدوا في مناره وزعقوا بالتفجير لسمع أهل المدينة أنهم دخلوا إلى المدينة، وكان ذلك علامة بينهم، فإذا سمعوا نهضوا نحو الباب، فلما وصلوا إلى الباب وجدوه قد كسّره أصحابهم الدّاخِلون، فتهض الجميع إلى قصر السلطان ليقع بأيديهم.

فسمع المسعود تلك الضجّة، وعلم أنّ التّرك قد دخلوا المدينة فقرّ في مائة فارس من خواصّ أتباعه؛ ثم إن العسكر لما استولوا على المدينة بعثوا

١. هناك من الشراء في اللغة العربية ما جعلها قادرة على تسمية كل جزء من أجزاء الليل أو النهار، بل كل ساعة من ساعات الليل أو النهار؛ فيقال في العربية لأجزاء الليل مثلاً: الشفق، الفسق، الغمة، السفعة، الفحمة، الزلفة، الزّلة الهزيع الأخير، البهرة، السّحر، الفجر، الصبح؛ والمجموع 12 ساعة ولكل ساعة اسمها الخاص بها. أما أجزاء النهار التي تقابل الليل فهي كالآتي: الشروق، البكور، النفوة، الضحى، الهاجرة، الظهيرة، الزّواج، العصر، القصر، الأصيل، المشية، الغروب والمجموع 12 تسمية ولكل ساعة اسمها الخاص بها.

هذه الأفعال التي تفعلها معي؟ هل أخذت من يدك شيئاً من البلاد أم لحقك مني ضرر؟ هذا الفعل الذي فعلته معي لا يفعله إلا أهل النفاق؟» فأعرض عنه سلطان تونس ولم يُجِبْهُ، وأخذ في تجهيز عسكر إلى الجزائر. فسمع بذلك خير الدين، فوجه إلى الناحية الشرقية عسكراً برسم حراستها فلقوا عسكر تونس فتقاتل العسكران ووقعت الهزيمة على عسكر تونس ففروا إلى جبل في ذلك الموضع وتحصنوا فيه. فأتى عسكر الجزائر على ذلك الجبل وحاصروا عسكر تونس فيه فأتاهم عند ذلك أحمد بن القاضي مُظْهِراً للصدّاقة (١) عليهم بالحب القديم وأشار عليهم بالصعود إلى الجبل لاستئصال عسكر تونس والإتيان على جميعهم، فاغترّ العسكر بقوله وصعدوا معه إلى الجبل، وقد كان أحمد بن القاضي المذكور قسّم جيشه الذي قدم معه على قسمين: قسم صعد معه مع العسكر الصاعدين، وقسم خلفه مع العسكر الذي في المحلّة، وقال لهم: إذا أغلقت في الجبل فأقتلوا أنتم هؤلاء العسكر الذين معكم في المحلّة، وأنا أقتل العسكر الذين صعدوا معي؛ ثمّ إنّه قال للعسكر الذين صعدوا معه: تقدّموا أنتم وأنا أكون من ورائكم، فذهبوا على هذا الترتيب ولم يبق في المحلّة إلا القليل، فحين صعد عسكر الجزائر مع جماعة ابن القاضي وجدوا عسكر تونس في محلّ ضيق من الجبل، فأراد عسكر الجزائر الهجوم عليهم، فبينما هم يدبّرون في هذا الأمر إذ وثبت جماعة ابن القاضي على العسكر المخلفين في المحلّة على حين غفلة منهم فاستأصلوهم قتلاً، فسمع بذلك عسكر الجزائر الذين بالجبل وعلموا بالمكيدة التي وقعت عليهم فحصلوا بين حجرين دامغين: ابن القاضي خلفهم وعسكر تونس أمامهم

١. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 43.

عند ذلك ورأى أن لا حيلة له إلا في مُصالحة خير الدين، فبعث أكابر قومه ومشايخهم إلى خير الدين يطلبون منه العفو والصفح؛ وكان خير الدين رجلاً حليماً<sup>(١)</sup> فقبل ذلك منهم سياسة، وهو يعلم أن باطنهم في ذلك غير مُوافق لظاهرهم، لكن لما رأى أهل الجزائر وما هم عليه من الضيق والشدة من حصار العدو قبل ذلك منهم في الظاهر وركن إليه واشترط عليهم في هذا الصلح أن يردّوا بقية الأساري من قومه الذين تحت حوطة ابن القاضي، وأن يدفع ابن القاضي إليه كل سنة مالا مقدرا يجيز إليه في شهرين قطعة منه، فرضي ابن القاضي وجماعته بذلك وردّ إليه طائفة الأتراك المعتقلين عنده وأعطاه من ذلك المال المقدّر عليه حسب أربع أشهر؛ ثم إنّه نقض الصلح وأتت حركة أخرى إلى الجزائر استتاب فيها أخاه فسمع بحركتهم خير الدين فوجّه إليه جيشا برسم لقائهم فالتقت الطائفتان في بعض نواحي تلك العمالة فوقع بينهم قتال انهزم فيه أخو ابن القاضي وأتباعه المفسدون ورجع عسكر الجزائر إليها مستبشرين لما وقع لهم هذا الفتح.

رجعنا إلى خبر المسعود الفار من تلمسان فإنّه جمع طوائف من العرب وأقواما من البربر وتوجّه إلى تلمسان بقصد حصارها والاستيلاء عليها فوصل وحاصرها فضاق الأمر بسلطانها مولاي عبد الله وأراد الفرار فمنعه من ذلك جماعة الأتراك المقيمون عنده من قبل خير الدين، وفي أثناء ذلك سمع خير الدين بخبر هذا الحصار فجهّز خمسمائة من العسكر لحماية تلمسان فوصلوا إليها والمسعود محاصر لها فتناوشوا إليها لقتال فلم يثبت لهم، وأقلع عن تلمسان فاراً بنفسه، فخرج إليهم صاحبها

١. يؤكّد صاحب هذا المخطوط على صفات العفو والصفح والوفاء التي اتّسم بها خير الدين.

وتستخلص جبايتها لنفسك؟ فلما وصله كتاب ابن القاضي فطن لحيلته ومكره وأعرض عن جوابه وردّ رسوله أقبح ردّ، فرجع إليه وأعلمه بالخبر، فلم ينته عن ذلك ابن القاضي ولم يزل يفترى في<sup>(1)</sup> حتى ركن إليه قارة أحسن فسوّلت له نفسه الاستبداد عن خير الدين بالبلاد الذي خلصها من يد ابن القاضي واتفق مع العسكر الذين معه عن الخروج عن طاعة صاحب الجزائر فبقيت الناحية الشرقية بين ابن القاضي وبين قارة أحسن.

### قيام أهل الجزائر على خير الدين وأصحابه

ثمّ دسّ ابن القاضي إلى مشايخ الجزائر وأعيان أهلها في الوثوب على خير الدين وطائفة الأتراك الذين معه فأجابوه إلى ذلك، وجعل مشايخ الجزائر وأعيان أهلها يدبّرون في ذلك فتما الخبر في ذلك إلى بعض الجند فذهب إلى خير الدين وأعلمه، وقال له: إنّ أهل الجزائر مُجمعون على الثورة والوثوب علينا والرأي أيّها الأمير أن نغدر بهم قبل أن يثبوا علينا، فأجابه خير الدين: نحن لا نبدأهم بالشر بل ندعهم وما هم عليه إلى أن يكشفوا لنا عن وجه الخلاف فحينئذ يسود الله وجههم وينطسون في البئر التي حفروها لنا. وفي أثناء هذه المدة اجتمع مشايخ الجزائر في دار أحدهم للمشورة وكيفية الإيقاع بالأتراك وجعلوا يتفاوضون في ذلك وارتفعت أصواتهم بالقول فيهم؛ وكانت دار بعض الجند مجاورة إلى تلك الدار التي اجتمعوا فيها ففهم عنهم أنهم يتدبّرون عليهم ويتشاورون في الوثوب عليهم. فدار في الليل على جماعة من أبناء جنسه وأتى بهم إلى تلك الدار فسمعوا عن القوم ما سمعوه منهم وتحققوا من مكرهم وما انطوت عليه نيتهم من الشرّ فذهبوا إلى خير الدين وأعلموه بما اجتمع

1. كلمتان غير مفهومين، المخطوط، ص: 46.



بأمثال هذا، فعند ذلك رجع العلماء إلى خير الدين وقالوا: أيها الأمير إن القوم لعب بهم الشيطان وهم عازمون على محاربتك وقتال جماعتك فاستعن بالله عليهم ودبر أمرك. فأمر خير الدين بإحضار العسكر إلى دار الإمارة فحضروا ولبسوا سلاحهم واستعدوا لقتال أهل المدينة، وكان ذلك ليلاً. فمكثوا بقيّة تلك الليلة ويومها إلى العصر ولم يروا أثراً لحركة القوم؛ وكانت دار الإمارة قد اكتنفها ثلاث سكك: السكة الأولى شارعها إلى باب عزّون<sup>(1)</sup> والسكة الثانية المقابلة لها إلى باب الوادي<sup>(2)</sup> وهي أقصر منها، والسكة الثالثة المقابلة إلى دار الإمارة منها يذهب إلى الجامع الأعظم وإلى باب البحر.

فلما كان بعد العصر بقليل أقبل أهل المدينة من السكة<sup>(3)</sup> الثالثة وقد أكثروا الصّياح وهم جماعة بلا راي، وعاقبة العامة في قيامهم على الأمراء ذميمة كما حكم المؤرخون عن قيام العامة بغرناطة على الحكم بن عبد الرحمان الداخل<sup>(4)</sup>. فلما رآهم خير الدين أقبلوا من الثلاث سكك أمر عسكره بأن ينقسم لهم كذلك. فلما قرّبوا من دار الإمارة خرج إليهم العسكر وذهبت كلّ فرقة من العسكر إلى الفرقة المعيّنة لها من أهل السكك؛ فكان الواحد من العسكر يبطش بالواحد من أهل المدينة ويقسمه بسيفه على ثلاث أو أربع قطع وتكلوا بهم نكاية عظيمة. وكان أهل المدينة قوما لا خبرة لهم بالحرب فحسبوا أنّ كلّ سوداء ثمرة،

1. لا يزال هذا الشارع يحتفظ بهذا الاسم إلى يومنا هذا وهو شارع «باب عزّون» الذي يمثل أحد بوابات

الجزائر.

2. أحد أشهر أحياء الجزائر القديمة الذي يتمّ الدخول إليه عن طريق باب الوادي أحد الأبواب الخمسة في مدينة الجزائر آنذاك.

3. يسمي صاحب هذا المخطوط الطريق بالسكة وفي كلام الجزائريين اليوم تطلق السكة على سكة القطار.

4. كلام غير مؤكد تاريخياً ولعله يقصد سكان قرطبة فيما يعرف بثورة الرّبط والتي قمعها الحكم بن عبد الرحمان الرّبطي نسبة لتلك الحادثة التي قامت بها العامة من سكان قرطبة.

فلما رأوا ما دار معهم علموا أنهم لا طاقة لهم بمقاتلتهم ففروا من بين أيديهم هاربين، فبعضهم استجار بالمسجد، وبعضهم بالزوايا، وبعضهم استجار بديار الأكابر فأمسك العسكر منهم مائتين، فأمر خير الدين بحبسهم، فلما كان صباح هذه الكائنة أمر خير الدين أهل المدينة أن يفتحوا دكاكينهم ويستمرروا في بيعهم وشرائهم ونادى مُناد بذلك. ثم إن جماعة العسكر حثوا خير الدين على قتال أهل المدينة وقالوا له: «أيها الأمير إن القوم تمخضت عداوتهم لنا فلا يطمئنون إلينا ولا نطمئن إليهم ونخاف أن نكون في بعض الأيام غافلين عنهم فيهمجون علينا ولا يبقون منا أحدا» فقال لهم خير الدين: يا إخوتنا كيف يمكن لنا قتل أهل المدينة كلهم وفيهم البريء والمتهم والصالح والطيالح<sup>(1)</sup>. هذا أمر لا يمكن، ويؤدي إلى فتنة عظيمة وفساد كبير<sup>(2)</sup>. ثم إن خير الدين رأى إطفاء هذه الثائرة بأن يجمع أهل المدينة في المسجد الأعظم، فأجتمعوا كلهم فيه، ثم ركب إليهم خير الدين مع عسكره ووقف عند باب الجامع وقال: يا أهل الجزائر ما سبب قيامكم علينا، وماذا دعاكم إلى ذلك؟ ألسنا كنّا جرينا في قتال العدو الكافر حتى صرفه الله عنكم بسيوفنا مرتين: مرة في مدة أخي، ومرة في مدتي وكان أثرنا في ذلك أثرا محمودا ومقامنا فيه مقاما مشهودا يعلم بذلك كافة أهل المشرق والمغرب؛ وقد كنت عزمت على الله إلى إقليم الروم بعدما حصّنت مدينتكم وشحنتها بالعدة والعدد بحيث إنّه لم يبق للعدو طمع فتمنعتموني من ذلك وناشدتموني الله في عدم ترككم وقلتم لي: «إن ذهب من هذه المدينة استولى عليها العدو الكافر، وكان هذا الكلام وقع من علمائكم، واتّفقت فتياهم على منعي من السفر قائلين:» نخشى أن

1. تتضح هنا مرة أخرى حكمة وحكمة خير الدين السياسية الذي لا يتصرف بحسب العاطفة والنزوة.

2. يتجلى في مثل هذه المواقف باستمرار حكمة خير الدين وقدرته على تجاوز الأزمات.



لا يكون لك أجر فيما تغزون في غير البلاد، فأستخرت الله تعالى وأقمت  
بمسكري معكم أحرس مدينتكم برّاً وبحراً فلم تجدوا ما تكافئوني به إلاّ  
القيام عليّ وعلى عسكري، فما ترون أن أفعل بكم الآن أأقتلكم عن آخركم  
أم أعذبكم بأنواع العذاب الذي تتمنّوا معه الموت؟ فأجابهُ علماء المدينة  
وَصَلَحَاوُهَا قائلين له: «أيها الأمير المَعْدِرَةُ إلى الله ثم إليك، أنت تعلم أنّ  
أهل المدينة لم يتفقوا على القيام عليك ولم يرض عامة أهلها، وإنّما فعل  
ذلك السفلة والأوباش وذووا الأحلام الحادثة، وأمّا المشايخ والأعيان  
لم يرضوا به ولم يوافقوا عليه، والله تعالى يقول في مُحكم تنزيله، «وإن  
تعدوا أقرب للتقوى<sup>(1)</sup>»، وقال سبحانه وتعالى: «فمن عنا وأصلح فأجره على  
الله<sup>(2)</sup>» إلى غير ذلك من الآيات التي تُناسب الحال، وظنّ أهل الجزائر  
أن خير الدين وعسكره لا يبيتون منهم أحداً فصارت تضطرب حوائجهم  
خوفاً، واشتدّ من ذلك قلقهم، وغلبت عليهم الحياة وتولوا ثم قالوا له:  
«أيها الأمير الذي ظهر لك أنّ هذه الفتنة ومن سعى في إيقاد نارها فيدنا  
ويديك عليه واحدة»، فقال لهم: «يا معشر أهل الجزائر أنتم أعلم بأهل  
الفساد منّي، فجميع من سعى في هذه الفتنة منكم مكّنوه في يدي حتى  
أوفيّ فيه حقّ الله عزّ وجلّ»، فقالوا له: «يا سيّدنا أنت الأمير والمُقدّم فالذي  
تعرفه من أهل الفساد منّا هاهو بين يديك فأفعل به ما شئت»، فعند ذلك  
أمر خير الدين جماعة عسكره أن يدخلوا إليهم في الجامع ويخرجوا  
أهل الفساد منهم الذين في الفتنة المتقدمة، فخرجوا بمائة وستين رجلاً  
فأمر بهم خير الدين إلى السجن بدار الإمارة ورجع خير الدين في آثارهم

1. من قوله تعالى «وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ أن تعفوا  
أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إنّ الله بما تعملون بصير»، سورة البقرة، الآية: 237.  
2. من قوله تعالى «جزاء سيئةً بسيئةٍ مثلاً فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يعبئ الظالمين»، سورة  
الشورى الآية: 40.

وأما الناحية الغربية فلم نر في الكتاب المترجم<sup>(1)</sup> ما يدل على قيامها عليه ولا يستبعد أن يكون أهلها قد رفضوا طاعته. فلما رأى ذلك خير الدين بقي مفكراً متردداً هل يقيم بالجزائر أو يسافر عنها؟ واستخار الله عز وجل في ذلك، فبينما هو نائم في بعض تلك الليالي إذ رأى نفسه في النوم كأنه يحمل أثقاله وأسبابه إلى البحر برسم السفّر؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعينه في حملها ويُساعده عليها. فلما أنتبه من هذه الرؤية عزم على السفّر وجدّ، وكان عنده في الجزائر ستة أجفان فجهّز منها ثلاثة كأنه يريد أن يبعثها إلى حضرة السلطان لاقتضاء أمر من الأمور، واشتغل هو في خفية في تجهيز نفسه واستعداد أسباب حركته.

### خروج خير الدين من الجزائر إلى مدينة جيجل

فلما تمّ تجهيز الأجفان وحضر وقت السفّر أظهر خير الدين حينئذ سفره وصرّح به وحمل أسبابه إلى السفن، ونصب ديواناً عظيماً بسبب ذلك قال فيه: «يا أهل الجزائر أنا ذاهب عنكم وتركت لكم بلادكم فيها هي مفاتيحها، فانظروا لأنفسكم؟». فلما سمعوا منه أهل الجزائر ذلك، وتحقّقوا أنه مسافر عنهم جزعوا

1. هذه إشارة عابرة في منتهى الأهمية لأنّ مضمونها يحيلنا على مصدر آخر. قد يكون أصل هذا المخطوط والمعبر عنه من طرف مؤلف هذا المخطوط «بالكتاب المترجم» أي أنّ هذا المخطوط هو ترجمة لكتاب مترجم وبالتالي فالأصل لا يمكن أن يكون باللغة العربية والّا لما اقتضى الأمر إلى ترجمته إلى اللغة العربية؟ إذن فمن يكون مؤلف هذا الكتاب؟ وما هي لغته؟ ما يمكن الاقتناع به هو أنّ لغته الأصلية لا يمكن أن تكون اللغة العربية، فلغته إما أن تكون تركية «عصمية» أو لغة أوروبية فرانكة أو ما إلى ذلك؛ والأرجح أن تكون لغة تركية لأننا لاحظنا كيف كانت مراسلات احسن آغا التي بعث بها إلى شارلكان الإسباني كلها باللغة التركية وقبلها كانت مراسلات خير الدين باللغة ذاتها؟.

فغزموا على حربيه وشرعوا فأغرق منهم جفنا فعند ذلك دهشوا وتحققوا  
أنه خير الدين فأسلموا أنفسهم إليه، فوجد هذه الأجفان موسوقة بُرًا.

فلما كان بعد تسعة أيام من سفره دخل بها إلى جيجل فشرع خير الدين  
في توزيع هذا الزرع على أهلها ؛ فالأغنياء منهم أخذوه منه بيعاً، وأما  
فقراءهم فإنه تصدّق به عليهم وحصل لهم بذلك اتفاق عظيم، وشكروا  
الله سبحانه على هذه النعمة قائلين لخير الدين: الحمد لله الذي منّ علينا  
بك، وأتى بك إلى هذه المدينة حتى أجبر بك أهلها.

ثم سافر مرّة ثانية فغنم جفناً للكفار موسوقاً ملحاً فرجع به إلى جيجل  
وكان من الاتفاق الغريب أن أهلها قد فقدوا الملح في أثناء هذه المدة فوزعه  
عليهم كما فعله مع القمح. ثم إنه أدركه فصل الشتاء فأقام بها على  
رسم عادته، فلما كان فصل الربيع وتهيأ أوان السفر جهّز تسعة أجفان  
وعزم على السفر فيها ؛ وكان أهل تونس لما سمعوا باستيطان خير الدين  
جيجل فرّ بعضهم في البحر خوفاً من غائلته، فسافر خير الدين بأجفانه  
إلى ناحيتهم واستولى على الكثير من أجفانهم فبقي أهلها في قبضته  
كالأسارى ورجع بهم إلى جيجل، فسمع بذلك أهل حضرة تونس فجازوا  
إليه وقبلوا الأرض بين يديه، والتمسوا مصالحته فقبل ذلك منهم وأطلق  
لهم جماعتهم الذين كانوا تحت طائلته ؛ وكانوا قدموا إليه في تسعة أجفان  
فأنظّموا إليه، فكان الجميع ثمانية عشر جفناً وسافروا برسم الغزو ولم  
يغنموا في هذه السفرة ورجع إلى جيجل.

ثم إنهم عاودوا مرّة أخرى فلقى جفنا عظيماً للكفار هائل العظم  
فأخذ خير الدين معهم في القتال، فوصل إليه كورة من العدو وألقت صارية

في البحر وتلتها أخرى أسقطت عمامته من رأسه<sup>(1)</sup> ونجّاه الله منها. ثار به إقدامه وشجاعته المعهودة في تلك المواطن فلتصق جفن العدو، وهجم عليه بجفنه بنفسه وضرب بسيفه يد رايسها فقطعها وثنى عليه آخر من المسلمين فرمى رقبته، فعند ذلك طلب الكُفّار من المسلمين الأمان، وألقوا إليهم بأيديهم فاستولى خير الدين على هذا الجفن؛ وكان هجومه عليها بنفسه سببا لأخذها، فوجد فيها مائة قنطار حريرا وأربعة شفة من المِلَف الملون وستة عشر مائة قنطار من الفِصال وألف قنطار بندق وخمسة عشر صندوقا من سائر السِّلَع المختلفة فأرسل بها إلى جزيرة جربة<sup>(2)</sup>، وأراد الرجوع من سفره فسمع أنّ مركبا للتصاري يحتوي على جملة وافرة من أسارى المسلمين من أهل تونس، فثنى عزمه إلى لقائها والتصدي لمقاتلتها بقصد ( )<sup>(3)</sup> تونس، فبينما هو ذاهب إليها إذ لقي المركب الذي كان يطلبه فشرع في قتالها، ثمّ إنّ لاصقتها وهجم عليها هو وجماعته الغزاة فاستولى عليها بتأييد من الله عزّ وجلّ فوجد فيها أسارى المسلمين من أهل تونس، ففكّ قيودهم وأنقذهم ممّا كانوا فيه من الأسر، فحمد الله عزّ وجلّ ودعوا لخير الدين بالتّصر وطول البقاء، وقصد خير الدين إلى جربة<sup>(4)</sup> فوصلها وقسم الغنيمة بين الغزاة فحصل من ذلك بأيديهم مال كثير؛ وقد كان بعض أهل تونس وصلوا إلى جربة بسفنهم فوجدوا بها خير الدين، وقد وصل سنان رايس<sup>(5)</sup> إليها قبله بثلاثة أجفان فخرج الجميع برسم الغزو

1. هذه دقة متناهية في رصد الأحداث التي تعرّض إليها خير الدين مما يدل على أنّ صاحب هذه السيرة كان في عين المكان ومرافقا لخير الدين في غزواته.
2. وهو ما يدل على أنّه كان يغزو في سواحل تونس الجنوبية.
3. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 52.
4. يجب التذكير هنا أنّ جزيرة جربة التي تقع في الجنوب الشرقي من القطر التونسي كانت قاعدة للأخوين بربروس قبل وصولهما إلى سواحل الجزائر.
5. أحد رياس البحر المشاهير في الأسطول العثماني.

في أربعين جفنا فاستولوا على غنائم كثيرة وذخائر غزيرة، وضاق البحر على عدو الدين من أجل خير الدين وجماعة الغزاة معه، ولما تم أمر سفره وأراد الرجوع إلى مدينة جيجل استأذن سنان رايس في الرجوع إلى جربة بسبعة أجفان واستأذنه رايس هو الآخر في السفر إلى ناحية النصارى فأذن بذلك ورجع هو إلى مدينة جيجل.

وأما رايس الذي ذهب إلى ناحية بلاد النصارى<sup>(1)</sup> فإنه غنم منهم ورجع بحملة وافرة من أهل الأندلس المسلمين ووصل إلى خير الدين. وكان خير الدين رجع إلى جيجل وأدركه فصل الشتاء فأقام بها إلى أن دخل فصل الربيع. عين أجفانا للغزو على عادته وسافر إلى بلاد الأندلس وأتى منهم بعدد كثير من بلاد المسلمين، واتفقوا أن خير الدين كان ذات ليلة نائما فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه، وكان النبي (ص) يقول له: «تركت بلادك، يعني الجزائر؟ فأجابه خير الدين بقوله: «لا يا رسول الله ولكنني ضقت فيها»، فقال له (ص): «توكل على الله وارجع إليها». فاستيقظ خير الدين واستفسر نفسه حيث رأى شمس الدنيا والآخرة صلى الله عليه وسلم، وعزم على الرجوع إلى الجزائر امتثالاً لأمره صلى الله عليه وسلم وقد كان بعض أجفانه أرادت الدخول إلى الجزائر فمنعت من ذلك لأجل استيلاء ابن القاضي عليها<sup>(2)</sup>، وسبب استيلائه عليها أنه لما فارقها خير الدين وخلا الجو منه أطاعه أهل الجزائر فدخلت في إيلاته.

1. المقصود بالنصارى هنا هم الأسبان لأن الغزاة تمكنوا من إغناض الأندلسيين الذين يعرفون باسم «الموريسكيون».

2. اختلفت آراء الباحثين حول المدة التي دام فيها احتلال ابن القاضي لمدينة الجزائر؛ فقد ذهب بعضهم أنها دامت سبع سنوات من 1520 إلى 1527، وبعضهم قال ست سنوات، والثالثة تجمع على أنها خمس سنوات من 1520 إلى 1525، والأرجح هو ثلاث سنوات وأثناء هذه المدة كما يقول شوقاوي: «... أقامت جيوش القبائل في مدينة الجزائر وارتكبوا الأخطاء الكثيرة والفوضى واغتصاب القنائم. إلخ...» ص: 44، 45. وأرى شخصياً أنها لا تتجاوز ثلاث سنوات بحسب العهد الذي قدمه خير الدين لسكان الجزائر قبل مغادرته الجزائر، وهذا الكلام مدون في هذا المخطوط.

ولما رجع إلى خير الدين بعض أجفانه التي توجّهت إلى الجزائر وأخبروه عن عدم الدخول إليها قالوا له: «يا مولانا إنّ هذه البلاد كانت بيدنا واستخلصناها من يد غيرنا وأتعبنا أنفسنا في تخليصها وجاهدنا الكفار مرتين حتّى أجليناهم عنها، ولولا نحن لكانوا أخذوها من يد أهلها لأنهم لا طاقة لهم بدفاعهم لضعفهم وعجزهم، وقد ضاع منا في تلك الحروب مع الكفار خلق كثير، فكيف بنا تركناها لغيرنا وخرجنا منها بأختيارنا<sup>(1)</sup> حتّى آل الأمر إلى أن منعونا من الدخول إليها؟ فلم يبق الآن إلّا أن تذهب إليها وتستولي عليها مرّة أخرى إمّا برّاً أو بحراً فتحن لا نخرج عن أمرك ونهيك بل رأسنا تحت قدميك»؛ وكان خير الدين لم ير حرصهم عليها من قبل ولا أمتدّ طمعهم إليها بعد الخروج منها إلّا هذه المرّة فلم أنّ ذلك من قبل الله عزّ وجل تصديقاً للرؤيا التي رآها.

وقد كان خبر خير الدين وفتوحاته وما احتوى عليه من الغنائم وكثرة أجفانه وصل إلى ابن القاضي بالجزائر فخشي منه وحذر على نفسه من عاقبته، فصانعه بهديّة عظيمة وجهّها إليه مع بعض خواصّ أصحابه. فلمّا وصلت الهدية لم يلتفت إليها وحجب الرّسول الذي ورد بها عنه، فأخذته العسكر ومثّلوا به بحيث إنهم قطعوا يديه؛ فسمع بذلك ابن القاضي

1. هذه إشارة تدلّ على خروج خير الدين منها اختياري وليس بسبب هجوم ابن القاضي وانتصاره عليه وإلّا لحدث هناك أكثر من تحالف بين أعداء خير الدين من أجل قطع الطريق أمام عودته؛ وأعداؤه آنذاك كثر ومن بينهم سلطان تلمسان وسلطان تونس وحكام تونس وأعيان الجزائر التابعين للعثمانيين سليم تومي، وابن القاضي والأسبان على وجه الخصوص ولعل هذا ما جعل باحثاً كشوفالبيه يتعجّب بل يتحسّر كيف لم يقع تحالف من أجل التصدي لخبر الدين أثناء غيابه وطرده نهائياً من أرض الجزائر، فقال شوفالبيه: «... لقد دهشنا أمام خمول وعدم مبالاة الإسبان لهذا التغيير في الحكم؟ هل تلقوا ضمانات التحالف من رئيس القبائل - يقصد ابن القاضي -؟ هل كانوا مسرورين لهزيمة القرصان الرهيب والمرعب؟ ومهما يكن الأمر فإنّ شرشال وتيس تحركت في الوقت ذاته مع الجزائر لتتخلّص من عبودية الأتراك؛ إنهم لم يقوموا بأيّ جهد كي يستفيدوا من هذه الحالة، وكذلك لم يحاولوا أيضاً زيادة نفوذهم في هذه المنطقة خلال هذه المدة كلها؟ وما يدهشنا أيضاً هو عدم ردّة الفعل من قبل الإمبراطورية العثمانية؟ ... انظر صفحة: 44.



فتحسّر غاية التحسّر واشتدّ خوفه من خير الدين. وقد كان مشايخ المدينة  
بعثوا إليه سلفا يطلبونه للقدوم عليهم وتمكين البلد من يده مرّة أخرى،  
وتكرّر ذلك منهم مرارا، وكان يعرض عنهم في كلّ مرّة ولا يلتفت إليهم  
حتى رأى الرؤيا التي أسلفنا ذكرها<sup>(1)</sup>. عزم على القدوم إليها وأمر  
بتجهيز الأجفان وأنشأ الحركة إلى الجزائر ثمّ أضرب عن ذلك ورأى أن  
المسير إليها من البرّ أولى فخرج في محلة عظيمة موهما بذلك غزو مدينة  
بجاية وإنقاذها من يد الكفّار<sup>(2)</sup>، فبينما هو كذلك إذ وردّ عليه كتاب من  
أهل الجزائر يستحثّونه في القدوم إليهم فأجابهم بكتاب يقول فيه: «إن  
كنتم صادقين في موالاتنا والتحيز إلى جانبنا فليخرج إلينا كافّة أعيانكم  
بمراهن منكم يكونون تحت أيدينا، ونحن قادمون عليكم بإنشاء الله» .  
فلما وصل كتابه إلى أهل الجزائر رضوا بذلك وخرج إليه أعيان المدينة  
بما طلبه من الرهن حتى وصلوا إليه بأحواز جيجل، فعند ذلك ركن وسار  
خير الدين قاصدا الجزائر. فوصل بعض النواحي التي استولى عليها ابن  
القاضي، وكان بها بعض أصحابه ومقدّم رجاله. فخرجوا إلى محاربة  
خير الدين في ثمان عشر ومائة مكحله، وخرج طائفة العسكر برسم الحرس  
ليلا ليظفر بهذا الرجل فأتوا إلى خير الدين؛ ولما كان صباح تلك الليلة  
ورأى عسكره الذي قدم معه لمحاربتهم فتناوشهم الحرب فأنهزموا بين  
أيديهم واستولوا على تلك الناحية، فسمع بذلك ابن القاضي فاستعدّ للقاء  
خير الدين في ثمانية آلاف فارس وألف رجل وتوجّه للقائه، فجاء إلى جبل

1. هنا يتأكد ما ذكرته المراجع من أنّ سكان الجزائر ضجوا من سلوك جيش القبائل المتعجرف، وكذا  
قائدهم ابن القاضي لذا حاولوا إقناع خير الدين بالعدول عن مفادرة الجزائر وترك أهلها في مواجهة الأعداء  
سواء الإسبان أو «جبابلة» بجاية؛ وهنا يظهر لي أنّ تسمية «القبائل» هو تحريف لتسمية «الجبابلة» والدليل أنّ

بتونس يسمون هكذا .

2. تبدو بجاية آنذاك ما تزال تحت نفوذ الحامية الإسبانية أو الجنوية .

وأُسند ظهره إليه وخندق على عسكره، وكان خير الدين قريباً منه وبينهما وادٍ<sup>(1)</sup> فكانوا يقاتلون، وكان عسكر ابن القاضي إذا رجعوا وخلفوا الوادي وراءهم أراد عسكر خير الدين الهجوم عليهم في معسكرهم وهبوا عليهم على جرع الوادي ومنعواهم من الوصول إليه، فبقي خير الدين مُتَحَيِّراً لكونه لم يصل إلى عدوه، فأستخار الله ليلة من تلك الليالي وتضرع إليه سبحانه وتعالى، فرأى في علم النُّوم كأنَّ عسكراً يتقاتلون في (2) المغرب، فلَمَّا استيقظ من نومه ركب فرسه ونشر ألويته وهدرت طبوله وقصد ناحية المغرب، فلَمَّا سمع بذلك ابن القاضي قال لأجناده وجماعة فرسانه: «إن العدو قد فرَّ أمامنا فأجتهدوا في طلبه لتمحوا أثره من هذه البلاد وتصفوا لنا من غير منازع»؛ فخرجوا بخيلهم ورجلهم في طلب خير الدين، فكان من قدر الله أن أقصدوا الناحية التي هو بها، فلَمَّا وصلوا إلى عسكر خير الدين وقع بينهم قتال عظيم وكانت الكرة فيه على ابن القاضي وعسكره فولوا الأدبار منهزمين، وجدَّ عسكر خير الدين في إثرهم فقتلوه كيف شاءوا، فكان عدد المقتولين من عسكر ابن القاضي أربعة آلاف رجل ثم إن الباقيين منهم تحصَّنوا في بعض الأوعار من الجبل الذي كانوا أسندوا ظهورهم إليه أولاً، وأتى خير الدين إلى رأس الجبل ونزل به وبعث إلى أهل تلك النواحي رُسُلَهُ يدعونهم إلى طاعته فأجابوه كلهم وأطبقوا على مبايعته ومحو دعوة ابن القاضي من بلادهم وأوقفوا إليه رُسُلهم بذلك.

ولَمَّا عَلِمَ ابن القاضي بذلك تمكَّن خوف خير الدين من قلبه فلم يسعه إلاَّ الهروب بعدما أضرم نارا في معسكره مُورِياً لإقامته في الموضع؛ ثمَّ إنَّ بقية العرب الذين كانوا مع ابن القاضي أقبلوا إلى خير الدين وأعطوه

1. وادي سبيلو وبوقنورة.

2. كلمة غير مقبولة. المخطوط، ص: 34.



طاعتهم وقالوا له أشياخهم: «أيها الأمير إنه قد فرغ علينا الزاد فأذن لنا في الذهاب لتجديده ونرجع إليك لتكون معك يدا واحدة على حرب عدوك. فأذن لهم وأقام في موضعه لموعدهم».

وكان ابن القاضي رجع إلى الجزائر وجهز جيشا آخر وخرج به إلى خير الدين فجاء إلى مكان ضيق ونزل به وأمر بضرب خندق عليه ولم يدع إلا مكانا للدخول وآخر للخروج وجعل حرسا على الطريق خوفا من هجوم خير الدين عليه، وأما خير الدين فإنه استبطأ مشايخ العرب الذين وعدوه بالقدوم عليه فتقدم إلى ناحية العدو، فلما أشرف على عسكر ابن القاضي لم يجد مسلكا إليه للخندق الذي ضربه على عسكره، فعند ذلك استخار الله خير الدين ونام فلم ير شيئا ثم إنه عاود الاستخارة ونام فرأى كأن ناسا سائرون إلى ناحية المغرب، فلما انتبه من نومه ركب فرسه ونشر ألويته وهدرت طبوله وسار إلى الناحية التي رآها في المنام، ولما علم بذلك ابن القاضي بعث في إثارة ثلاثة آلاف من جيشه، فلما وصلوا إلى خير الدين أخذوا في قتاله؛ وكان خير الدين في مضيق وجعل يتأخر عنهم قافلا والحرب في أثناء هذا لم تنقطع، وكان الجيش الذي مع ابن القاضي لما علموا اختلال أمره وأنه لا طاقة له بملاقاة خير الدين، تأمروا على قتله، فبينما هو في ذلك المجال إذ وثب عليه بعضهم بحربته فطعن به فكان بها ذهاب نفسه<sup>(1)</sup> وكان سبب هزيمة عسكره، وأرادوا الفرار فلم يجدوا له سبيلا، وتمكنت منهم سيوف عسكر خير الدين يقتلونهم كيف شاءوا.

1. قتل ابن القاضي الذي كان حليفا سابقا لخير الدين وأحد قادته على المنطقة الشرقية وسبب ذلك أنشاعه وتحريض السلطان الحفصي له... وكما يقول الباحث شوقي البوعبد... وهكذا فاز ابن القاضي قد أُهين في لقائه هذا. ومما زاد من كثرة أعدائه أفعاله التنسقية وابتزازاته وأخطائه بحيث برز له أعداء في وسط جماعته حين كانت الجيوش مستعدة للانتقام في منطقة بني عيشة (بالتونسية) حيث تم اغتياله من قبل جماعته وأحضر رأسه إلى خير الدين بربروس والهزمت القبائل المتعددة... ص 54.

وأقام خير الدين بعد هذه الواقعة في ذلك المحلّ فظهر له أن يذهب إلى قارة حسين الثائر<sup>(1)</sup> عليه بإغراء من ابن القاضي سابقا، وكان قد انحاز بمن معه إلى مدينة شرشال<sup>(2)</sup> واتفق مع النصارى على أخذ الجزائر ومحو دعوّة خير الدين منها مرّة واحدة، فتما خبره إلى أهل الجزائر فبعثوا إلى خير الدين يستحثونه في القدوم عليهم، فنهض متوجّها إليهم.

### قدوم خير الدين إلى شرشال لمحاربة قارة حسن

خرج أهل الجزائر إلى لقائه واستبشروا بقدومه، وكان دخوله إليها يوما مشهودا فدخل دار الإمارة في بروز عظيم وأبّيات زائدة ونزل<sup>(3)</sup> بها وتجرّد في الخيل إلى محاربة قارة حسن الثائر عليه بشرشال، وجدّ السير إليها فوصل في يوم واحد، فتحصّن قارة حسن منه مع ثلاثة عشر رجلا من جماعته ببعض حصونها، وأمّا الباقيون فذهبوا إلى خير الدين وطلبوا العفو منه فعفا عنهم وقبّل طاعتهم واستدلّهم على مكان قارة حسن فدلّوه عليه فوجّه إليه من أتاه به ومن معه.

لما مثلوا بين يديه طلب الثلاثة عشر الذين كانوا مع قارة حسن العفو من خير الدين والصّفح عنهم، فقال لهم: «لو أردتم أن يكون لكم ذلك مني لأتيتكم إلى أولا مع جماعتكم»، ثمّ إنّه ردّ وجهه إلى قار حسن وقال له: يا أخبث الخلق، ويا أسود الوجه<sup>(4)</sup> أي شيء فعلته معك من القبيح حتّى

1. أحد قادة خير الدين على المنطقة الغربية والذي بدوره انساق وراء تحريض السلطان الزياني لثمسان. تذكر المراجع أنّ هذا الترمسان قارة احسن كان قد عاصر عزّوج ونال جزاءه بعد 22 سنة نتيجة خيائته على يد خير الدين. أنظر شوقالبيه، ص: 29.

2. مدينة شرشال تقع على الساحل الغربي من مدينة الجزائر.

3. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 56.

4. كلمة قارة التركية تعني الأسود لذا خاطبه خير الدين بهذه الصفة.

تكاثفتني بالقيام عليّ والخروج على طاعتي؛ وجعل خير الدين يقرّعه بمثل هذا الكلام فلم يردّ جواباً. فأمر بقتله<sup>(1)</sup> ومن معه فتمهّدت تلك الناحية فأقام بها أياماً ثمّ رجع إلى الجزائر.

ومن غرائب الاتفاق أنّ خير الدين كان قد قال لأهل الجزائر انتظروني ثلاثة أعوام فإن رجعت إليكم والأفانظروا لأنفسكم. فأرخوا يوم سفره إلى يوم رجوعه فكانت مدّة غيبته عنهم ثلاث سنين، ودخل إليهم في الساعة التي خرج عنهم فكان ذلك أمراً غريباً.

رجع خبرنا إلى صاحب تلمسان مولاي عبد الله فإنه لما خلا له الجؤ من خير الدين رابس ومن رجوعه إلى الجزائر سوّلت له نفسه: صرف الخطبة إليه وضرب السكّة عليه فأرسل إلى أخ ابن القاضي<sup>(2)</sup> يُغيره بخبر خروج خير الدين ويحرّضه على إثارة أخيه طمعاً أن يشغل خير الدين عنه، ويقول له: جهّز إليّ جيشاً يكون عوناً على قتال خير الدين والإراحة عنهم، وأنا سمع خير الدين بما دار بين صاحب تلمسان وبين أخ ابن القاضي من المراسلة في شأنه، وجّه كتاباً إلى صاحب تلمسان يلومه فيه على ذلك ويحذّره عاقبة البغي ويمنّ عليه فيه بما وضعه عنه من الضريبة التي كان يؤديها إلى جماعة الغزاة إعانة لهم، وعاقبه على صرف الخطبة والسكّة إليه ونقض العهد الذي أخذ عليه أولاً. ومن جملة ما قال له: «أنت جعلتني في مقام الأب وأنا جعلتك في مقام الابن فأما أنا فقد أعطيت البنوة حقّها، وأما أنت فلم توف الأبوّة حقّها، وأنا أدعو الله أن يُسلّط عليك ابناً من أبنائك يعوقك وتشقى بسبب ذلك قريباً إن شاء الله، وقد كنتُ أنا وإياك على أنّك توجّه

1. هكذا كان مصير هذا القائد المسمى قارة احسن كما كان مصير القائد ابن القاضي من قبل. ولكن من الرجلين كان من خيرة أعوان خير الدين في البداية، وتكون هذه الأحداث قد جرت في حدود 1528 بعد الهزّام ابن القاضي الذي استمرت سيطرته على مدينة الجزائر إلى غاية 1529.

2. شقيق ابن القاضي يسمى حسين، وظل مطارداً من طرف خير الدين لمدّة سنتين.

لي كل سنة عشرة آلاف دينار برسم إعانة الغزو، وقد ترتب بذمتك ستون ألف دينار فإن أنت وجهت إلينا بما ترتب عليك بهذا المال وصرفت الخطية والسكة إلى السلطان الأعظم نصره الله، فتحن وأنت على ما كان عليه أولاً وإن أنت تماديت على ما أنت عليه من الشقاق فأني أراك تندم حيث لا يتفكك الندم، وقد رأيت ما حل بأخيك المسعود حيث نقض العهد. ومن جملة ما حذرته منه في هذا الكتاب عوالة أهل وهران للنصارى والروكين إليهم وسكة بأحواضهم فإنهم أعداء الدين يجب على كافة المسلمين قتالهم واستعادة البلاد من أيديهم. وأكثر له الكلام في هذا المعنى. فكان من جملة جواب صاحب تلعلعل للرسول الذي توجه إليه بالسكينة نقل لصاحبك بأنه لم يكن استغنى لي مما حتى يستوجب علي ردّه وإن كانت له قدرة على نزاع المملكة عن يدي فليأخذ يمينك : فإن هذه البلاد بلاد أباقتنا وأجددنا من بني زيان لا يعرفون شرك ولا مبيع لهم علينا.

مَا لَقِصْنَاهُمْ مِنْ رَسُولٍ مُنْجِيًا إِلَّا حَرَسْتَيْنِ جَمَعَ أَرْبَابُ دَوْلَةٍ  
وَتَحِينَ حَضَرَهُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَلَدِ فَاجْتَمَعَ الرَّأْيُ بِالْمَشُورَةِ فَقَالَ نَهْمُ  
بِأَهْلِ تَمْلُكٍ ثُمَّ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْبِلَادَ بِلَادُ أَيْمَانٍ وَأَجْنَادِي مِنْ عِندِ  
يَعْقُوبَ بْنِ تَمِيمٍ لَمْ وَتَعْتَقُوا هَذَا وَوَرَدَ كَابِرًا عَنْ كَابِرِ غُلَامِي سَبِيلِ

.. كُنْتُ سَعَةً لِي عَلَى كَثِيرٍ وَاعْرِفْ أَنَّكَ تَقْرُؤُهَا بِسَبَبِ تَقْرُؤِ جِبْرِئَةَ تِلْكَ النَّبِيِّ سَعَةً لِي عَلَيْهِ  
فَدَعَيْتُهُ عَنْ "تِلْكَ" - "تِلْكَ" تِلْكَ تِلْكَ - "تِلْكَ" - "تِلْكَ" -

[illegible]

لخير الدين حتى يبعث إلينا يتهددنا ويحمل أموال بلادنا كل سنة؟ أليست عمالة الجزائر كانت بيدنا وامتدت طاعتها إلى نحو المسيلة<sup>(١)</sup> كما تقرر ذلك لأسلافنا من الملوك قال الأمر أن صار خير الدين الذي رمت به رياح الغربة من بلاد المعجم إلى بلاد العرب يريد الاستيلاء على ما في أيدينا ونزعها من مملكة آبائنا وأجدادنا بقيا ماله علي من الجميل؟.

إنه وقع بيني وبين إخوتي ما يقع بين الملوك وإخوتهم فأعانتني هذا الرجل وحين حصلت لي مملكة تلمسان ضاعفت له الجزاء واستفتت له الهدية وأكرمت جماعته التي وجيها إلي يرسم الإعانة فطمع بسبب ذلك في تملك هذه البلاد ونزعها من يد عبد الواحد مرة واحدة فأشبهوا علي بما أفعله مع هذا الرجل فأجابوه قائلين: (سلطان أعلم بما يفعله إن أراد تحرب أو السلم). فتمن تابع له فيما يريد، فعند ذلك أخذ في إنشاء الحركة إلى خير الدين. وفي أثناء ذلك قرأ ابنه إلى البحر ثم خوف من عاقبة حرب أبيه مع خير الدين. فعلم أن المرة تكون على أبيه فحين وصل إلى خير الدين أقام عليه يجلس تتفع وتكرمه حتى لا يكرهه. وذهب له بعض التجواري اتخضيات لديه.

وثباته مؤتمني عبد الله ما أراد من إنشاء هذه الحركة توجبه فاصد إلى الجزائر برسه قتل خير الدين. وخرج هو أيضا إليه فالتقى ووقع بينهم قتال عظيم كانت المكرة فيه على جيش تلمسان. فقرر صاحبها يضرب تجارة نفسه فلبه جيش الجزائر فقتلوا كثيرا من أصحابه ورجعوا منصورين. ولما علم صاحب تلمسان أنه لا عاقبة له بعنا هضبة عسكر تجز ثم وقع قدرة على علاقاتهم رجوع إلى المراهنة وإعطاء الطاعة فظهر. فبعث

١. المسيلة هي المدينة القديمة وتليها بنسب النفاذ العربي الكبير من ريشة صاهية. كذا نسخة دمشق  
المسيلة في الأطلس العظمى العربي.

إلى خير الدين أعيان حضرته وأكابر دولته ليلتمسوا منه العفو والصفح، ويعيدون له مجمل الدين الستين ألف دينار التي أستوجبها على صاحب تلمسان، ويضعفون الخراج الذي كانوا يؤدونه إليه، فتكون جملته عشرين ألف دينار، مع جوائز وهدايا أخرى يوجّهونها كل سنة. فرضي خير الدين بذلك، وفي أثناء ذلك بلغه أن أخ ابن القاضي وصل إلى الجزائر وعاش في أطرافها<sup>(1)</sup>، فجدّ خير الدين السير إليها فسمع بقدمه أخو ابن القاضي ففرّ هاربا لا يولي على أحد، فجدّ خير الدين في طلبه؛ قالوا: وبقي في طلبه نحو الستين ليربح ذلك الوطن من دائه، وخرب دياره واستولى على أهله وولده فعند ذلك بعث إليه في شأن الصلح وقدر على نفسه ثلاثين حملا من الفضة يوجّهها إليه كل سنة فقبل منه ذلك خير الدين ورجع إلى الجزائر وأقام بها مدة طويلة في راحة وهناء مستمر. وكان يتمنى ذلك لما قاساه من حروب ثقال تقدّم ذكرها.

### هجوم خير الدين على برج الفناز<sup>(2)</sup> أو برج تمنفوست

ثم إنه فكّر في أمر الحصن المجاور للمدينة وما يحصل لأهلها منه من الإذاية فوجّه إليه قائلا: «إن تكفّوا على ما أنتم عليه من الإذاية وإما أن نتفرّغ لكم ولئن ظفرت بكم لا أبقى منكم أحدا»، فلم يلتفتوا إليه وتمادوا

1. في مثل هذه الحوادث المتكررة دلالة على عدم التحكم في أمن الجزائر من طرف خير الدين.  
2. يملق صاحب المخطوط، في الهامش على برج الفناز قائلا: برج تمنفوست المقابل للجزائر على شاطئ البحر وهو الآن خرب. المخطوط، ص: 59. ويقول شوقالييه: «ولا يوجد على هذه الجزيرة التي تقع على بعد 300 م من مدينة الجزائر سوى حصن صغير بناه الأندلسيون القادمون من إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر حيث كان يستعمل كمنارة أو برج مراقبة وفي هذا المكان تم بناء قلعة على شكل مثنى ومحسنة بخصنين... أنظر تفاصيل أكثر، ص: 24 - 25.

على ما هم عليه ؛ وكان هذا الحصن حصناً عظيماً لا يعادله حصن ببلاد  
النصارى ولم تُعرف كيفية بناء النصارى لهذا الحصن، ولم يصل إلينا  
خبر استيلائهم على هذه البقعة<sup>(1)</sup> هل كان ذلك بمرضاة أهل الجزائر  
لأجل البيع والشراء معهم أم استولوا عليها بالقهر والغلبة؟ وبلغ النصارى  
في بنائه وتحصينه لكونه يمر<sup>(2)</sup> عليه من الجزائر بحيث إن السهام كانت  
تصل إليهم من المدينة، وتصل إلى المدينة منه، فشرقت بذلك صدور أهل  
الجزائر، وأقاموا على هذه الحالة أربعة عشر سنة<sup>(3)</sup>، وكان كافة النصارى  
في جميع أقطارهم يمدونه بالأموال حتى أن من اكتسب منهم درهمين  
يعين بنصف درهم منهما يرسم الإعانة على المسلمين، وكذلك من اكتسب  
سلاحين، ويفرغون المدافع العظام ويبعثون بها إليه حتى اجتمع فيه من  
المدافع وآلات الحرب وأنواع السلاح ما لا يحصىه العدد<sup>(4)</sup>.

ولما عزم فتحه خير الدين لم يوجد من البارود ما يقوم بذلك لتوزيعه في  
الحروب المتقدمة فأمر بصنعه ؛ وقد كان بعض أجفان جرية غتموا بعض  
أجفان البندقية موسوفة بالبارود، فسمع بذلك خير الدين فوجه في شراء  
ما يحتاج إليه من المدافع. فلما تم له ما أراد من هذا الاستعداد عزم  
على محاربة الحصن. توجه إلى الله في الليلة التي عزم على محاربته  
وصببحتها وبات ليله كله ساجداً راکعاً متهللاً إلى الله سبحانه وتعالى

1. تم الاستيلاء على هذه البقعة أثناء هجوم الأسبان على الجزائر عام 1510 بقيادة بيدرو نافارو وشيدوا قلعة Penon التي استمر وجودها لمدة 18 سنة وتعاقب على حكم هذه القلعة العديد من القادة الإسبان من مثل مارتين دي فارفاس ونيكولاس الخامس وغيرهم إلى أن هدمها خيرا لدين عام 1528 .
2. يمر من ميرة جمع مير ما يحمله أو يذخره الإنسان من طعام ومؤونة .
3. بهذه الإشارة التي تحدد مدة وجود القلعة 14 سنة تختلف مع ما أورده المراجع من كونها دامت 18 سنة.
4. إشارة تدل على أنها قلعة متقدمة شيدوها الإسبان بدافع الاستيلاء على الجزائر واسترجاعها إلى العالم المسيحي لاعتقادهم الدائم أن العرب المسلمين قد استولوا عليها بعدما كانت إحدى قواعد النصرانية في شمال إفريقيا ولهذا هزروا استعدادها .

الحمد لله الذي جعل في كل شيء حكمة وحكمة  
في خلقه وفي تدبيره وفي حكمه وفي عظمته  
وفي جلالته وفي كبريائه وفي قوته وفي  
في ملكه وفي علمه وفي قدرته وفي سلطانه  
وفي مجده وفي شرفه وفي عظمته وفي  
في جلالته وفي كبريائه وفي قوته وفي  
في ملكه وفي علمه وفي قدرته وفي سلطانه  
وفي مجده وفي شرفه وفي عظمته وفي

... ..



انهدم من المدينة ولم يبق سوى منارة الجامع الأعظم<sup>(1)</sup> فشرعوا في بنائها،  
فبينما هم في بنائها إذ سقط حجر من أعلا الصومعة فصادفت رجلا  
من عسكر خير الدين فأصاب رأسه فسمع بذلك خير الدين فاتهم بذلك  
النصارى، فأمر بالنصارى الذي أسقط الحجر أن يُحرق بالنار، وقد  
كان الطاغية سلطان إسبانيا<sup>(2)</sup>، لعنه الله، وجه إلى هذا الحصن بتسعة  
أجفان موسوقة بالبارود وآلات الحرب والرجال، وقال لأهل الأجفان إن  
احتاج إليكم أهل الحصن فكونوا معهم؛ وقد كان خير الدين رحمه الله<sup>(3)</sup>  
قد استولى على الحصن قبل مجيئهم وأمر بهدمه كما تقدم.

فلما وصلت الأجفان بأحواز المدينة نظروا إلى الحصن فلم يروا له  
أثرا فبهتوا من ذلك وارتابوا في أمرهم، ثم إنهم راجعوا عقولهم فعلموا  
أن أهل الجزائر فتحوه وهدموه ورجعوا مسافرين إلى بلادهم؛ وكانت  
أجفان خير الدين مجهزة إلى السفر، فلما رأوا أجفان العدو ركب العسكر  
في الأجفان وأقلعوا من المرسى في طلبهم، ولم تمض إلا ساعة حتى وصلوا  
إليهم، ولما رأى النصارى أجفان خير الدين في إثرهم علموا أنهم لا ينجيهم  
القرار منهم فوققوا لهم وأخذوا في قتالهم، فنصر الله المسلمين عليهم  
واستولوا على جملة هذه الأجفان ودخلوا إلى الجزائر في أبهة عظيمة، وكان  
ذلك اليوم يوما مشهودا؛ وكان عدد النصارى ألفين وسبعمئة سوى من  
مات منهم في القتال. فأمر بضمهم إلى أسارى الحصن فاجتمع بعضهم

1. هذا الجامع الأعظم ربما يكون هو الذي أشار إليه شوقانيه أثناء حديثه عن مساجد الجزائر حيث قال  
على أحدها: «إن الكتابة التي وجدت داخل مسجد جمعة الشاوش تبين لنا تاريخ بنائه سنة 1520 هذا الجامع  
المبارك الذي بناه في سبيل الله السلطان البطل خير الدين». ص: 42.

2. مرة يكتبها صاحب المخطوط صبانة ومرة اصبانة والمقصود هنا هو شارلكان.

3. هنا يتأكد مرة أخرى أن تدوين هذا المخطوط أو ترجمته إلى العربية قد تم بعد وفاة خير الدين عام  
1546 ومن هناك يحتمل أن يكون المترجم قد أدخل بعض الإضافات على الأصل.

ببعض وجبلوا ويكون ويُعانق بعضهم بعضا. ثم إن خير الدين أمر بإحضار كبير هذه الأجفان وسأله عن أمر إسبانيا<sup>(1)</sup> وسبب مجيء هذه الأجفان؟ فأخبره أنَّ سلطان إسبانيا مقيم بمدينة برشلونة وهو عازم على السفر إلى أرض الجنوبيين، أمَّا سبب مجيء الأجفان فإنه لما سمع بأمر هذا الحصن بعث إليه الميرة<sup>(2)</sup> وجميع ما يحتاج إليه، ولو علمنا أنَّ أجفانك حاضرة ما كنَّا نقترِب من هذه السَّاحة حتَّى تمَّ علينا ما تمَّ من مِحنة الأسر.

ولما سمع خير الدين بسفر سلطان إسبانيا إلى بلاد الجنوبيين اجتهد في إنشاء الحركة البحرية وجَهَّز خمسة عشر جفنا برسم الغزو، وقَدَّم عليها أحد رجال البحر المعروفين بالكفاءة وقال لهم: «تفنموا إنشاء الله غنيمة كبيرة، وكانت ساعة إجابة»، وأقلعوا عن الجزائر مسافرين وصاروا يهجمون على بلاد النَّصارى ويضربون على قراهم<sup>(3)</sup> فأسيروا منهم جملة وافرة، حتَّى أنَّ أهل السَّواحل أخلوا تلك البلاد وذهبوا مستغيثين إلى سلطانهم شاكين له ما نزل بهم، قائلين له: «إنَّ المسلمين يستولون على بلادنا لا محالة لأنك أهملتها ولم تشتغل بحراستها حتَّى تسلط علينا المسلمون، فنحن نحاكمكم إلى المسيح وإلى الصَّنم الأكبر». فلما سمع بذلك الطَّاغية منهم: أرعد وأبرق وأمر في الحين بتجهيز خمسة عشر جفنا في طلب أجفان خير الدين، فخرجت في إثرها يطلبونه في كل موضع : وكانت أجفان المسلمين قد دخلت إلى بعض المراسي وأقامت بها، وعزم أهلها على الرّجوع إلى الجزائر؛ فبينما رايَهم الأعظم نام

1. مرّة يكتبها صبانية ومرة أصبانية.

2. الميرة سبق شرحها.

3. هذه دلالة على قوّة أسطول خير الدين الذي لم يكتف رجاله بالتعرّض لمن يسلك البحر بل يصلون إلى الإغارة على سكان السواحل داخل اليابسة في أراضي إسبانيا والجزر المنتشرة في عرض البحر المتوسط.

العدو الذي سمعوا به وقال بعضهم لبعض: «إن هذه الأجفان فيها» بربا  
روشة»<sup>(1)</sup> وليست بالأجفان التي سمعنا بها»، وألقى الله الرعب في قلوبهم  
فشرعوا في الفرار، فعند ذلك طلبهم أجفان المسلمين فلحقت بهم. فهجم  
الرايس الأعظم من المسلمين على المركب الأعظم للكفار فاستولى عليه،  
وعندما رأى النصارى أن جفنفهم الأعظم استولى عليه المسلمون ذهلوا  
وتحيروا، فعند ذلك هجمت عليهم بقية أجفان المسلمين واستولوا على  
تسعة منهم وغرقوا ثلاثة وفرّ ثلاثة ورجعوا إلى الجزائر بهذا الفتح  
العظيم.

### بعوث الهدية للسلطان الأعظم من خير الدين

ثم إن خير الدين ظهر له أن يوجه إلى السلطان الأعظم<sup>(2)</sup> بهدية عظيمة  
ويخبره بجميع ما جرى له من لدن قدومه من جيجل إلى وقت توجيه الهدية  
له؛ من محاربة ابن القاضي، وكيفية الاستيلاء على قارة حسن، وانتفاض  
صاحب تلمسان ورجوعه إلى الطاعة، وما جرى له مع أخ ابن القاضي،  
وكيف خير على ما تقرّر بينهما، وأخذ الحصن المقابل للمدينة والاستيلاء  
على الأجفان<sup>(3)</sup>. فوصلت إلى حضرة السلطان ونزل الرسل المغنيون بحمل  
الهدية إلى دار الوزير، ففرح بهم وأعلم السلطان بقدومهم، وقرأ عليهم

1. هكذا يكتب صاحب هذا المخطوط كنية خير الدين «باربا روشة» وبعضهم يكتبها «بارب روس» أي ذي  
اللحية الصهباء Barba Rosa. أو Barba Roja وهي صفة أطلقها الجنويون أو الأسبان على خير الدين  
وحفلت بترديدها كل الكتب الأجنبية والأوروبية منها على وجه الخصوص، ولا تشمل هذه الصفة غيره من  
إخوته سواء إسحاق أو عروج، وهي متأنية من صفة لحيته التي يمكن أن تكون صهباء من ناحية اللون أو ربّما  
كانت مخضبة بالحناء ودرج الدارسون على تسمية الإخوة جميعا بكنية «بربروس» وبخاصة عروج منهم وهذا  
غير صحيح ..

2. المقصود السلطان العثماني سليم الأول.

3. كل هذه الأحداث التي ذكرت انتهت في حدود 1530 حسب المسار التاريخي.

الكتاب الذي وجهه خير الدين، فسّر بذلك سرورا عظيما، وأمر أن يخلع على رؤساء تلك الأجفان وينزلوا بدار الضيافة، وأقاموا بالحضرة إلى أن أذن لهم السلطان في الرجوع، فرجعوا في صُحبَتهم أمرُ كريم إلى خير الدين<sup>(1)</sup> وقصد من قبل السلطان قاصد اسمه مصطفى، فوصل إلى الجزائر وأكرم خير الدين قاصد السلطان وأنزله في دار معيّنة. ولما وصل خبر الحصن والأجفان التي أتت برسم إعانتة إلى الطاغية عضّ أنامله من الغيظ وكاد اللعين أن يتمزّق في جلده، فبينما هو يُردّد هذه الحسرة إذ ورد عليه أخبار أجفانه التي استولى عليها المسلمون كما قدمناه. فعند ذلك نَصَب اللعين ديوانا عظيما جمع فيه رؤساء البحر وأكابر دولته وقال لهم: «كيف يكون العمل مع بربروس، ما يسافر لنا جفن إلاّ أخذه، والبلاد التي على الساحل قد سبى الكثير من أهلها حتّى أن أهلها أخلوها وذهبوا عنها خوفا منه؟» فلم يُجيبوه بكلمة لما خَفَر قلوبهم من الخوف من خير الدين وعسكره الغزاة! ثمّ إنّه أعاد عليهم الخطاب مرّة ثانية واستفهم على عدم ردّ الجواب، وقال لهم: «ما لكم ساكتون وأنا قد احترق فؤادي وتفتّت كبدي بسبب هذا المورو<sup>(2)</sup> (Moro)؟» فلم يردّوا

1. هذا الأمر الكريم قد يكون المقصود به تعيين خير الدين من قبل السلطان بيلارباي وهو ما تؤكده الموسوعة التركية كما يقول شوقاليه: «... وهذا التاريخ هو سنة 1534 وهو ما أكدّه لنا هامار في كتابه تاريخ الإمبراطورية العثمانية الذي وصف فيه الاستقبال الذي خصّ خير الدين في أسطنبول بهذه المناسبة (مناسبة منحه لقب بيلارباي) ... ص: 41.

2. هنا نجد صاحب المخطوط وهو يتحدّث على لسان شارلكان ملك الإسباني يطلق على خير الدين صفة «المورو» أو جماعة خير الدين، والتي تعني العربي المسلم آنذاك أو كل من يأتي من جنوب إسبانيا، ولندلول المورو العديد من الدلالات بحسب الحقب التاريخية فكانت في عزّ ازدهار الأندلس تحمل مدلولاً إيجابياً لكن بعد سقوط الأندلس صارت تعني مدلولاً سلبياً أقرب إلى معنى الهمجي أنظر تفصيلاً أكثر حول هذا المصطلح في: عبد الله حمادي: المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس (1492 - 1616) نشر مشترك الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب / الجزائر 1989، ص: 13.

له جواباً أيضاً لما خامرهم من الرعب. وكان في هذا الديوان عظيم من عظماء الروم أندري دوريا<sup>(1)</sup> فلما رأى سكوت أهل الديوان تقدّم إلى السلطان وقبّل الأرض بين يديه وقال له: «أيّها الملك لا تحزن من هذا الأمر ولا تتشوش منه، فأنا أقوم بحرب بربروس وأبقى أضيق عليه حتّى أخرجه من بلاد البرابرة<sup>(2)</sup> وأخرجه من بلاده، ولكن إذا قبلت رأيي وبما أشير عليك حتّى يتمّ لنا الغرض المطلوب من إزعاجه من بلاد البرابرة وأخرجه منها كما دخل إليها؟» فقال له الطاغية، لعنهم الله: «تكلّم بما عندك من الرأى حتّى أسمعه وأتدبّر فيه؟» فقال له: «جهّز لي عشرين جفنا بما نحتاج إليه من العدة والعدد، وأنا أقطع أثره بحيث لا يبقى له أثر». فأصغى السلطان إلى كلامه وخيّل له أنّه ما قال هذا الكلام إلّا بما يثق به من نفسه بشجاعته والإقدام، فأنعم له بها وخلع عليه خلعاً التقديم عليها؛ وكان بين هذا الطاغية وبين سلطان فرنسا<sup>(3)</sup> عداوة مستمرة، فبعث إليه سلطان إسبانيا قائلاً له: «أنت تعلم ما لحقني من هذا الرّجل التركي<sup>(4)</sup> ولا بدّ أن يتفرّغ إليك فيلحقك منه مثل ما لحقني والرأى أن تتفق ونكون عليه يداً واحدة».

1. Andrea Doria «هو: Oneaglia, en Italia - 1466 - Génova, 1560). Almiraute genovés. Estuvo al servicio de diversos principes italianos, entre ellos el Papa y Alfonso II de Nápoles. Después de Carlos VIII de Francia se apoderarse de Nápoles, se puso al servicio de los Sforza de Milan. De vuelta a Génova, reconquistó Corcega y derrotó a los turcos en la batalla de Planosa en 1519. Aliado del Rey francés, poco a poco se distanció y acabó al lado del español Carlos V, al cual le entregó Génova, de donde fue gobernado). Bibliografía: Lengua, Paolo, Andrea Doria: principe e pirata nell'Italia del '500. Milán, 1984.

2. يقصد أرض الجزائر Béréberes.

3. فرائضه هكذا يكتبها في المخطوط.

4. المقصود خير الدين بربروس.

فلما وصل إليه الكتاب وقرأه فرأى هذا الأمر في خاطره وتقرر في قلبه وعلم أن خير الدين قد يحصل له منه مثل ما حصل لصاحبه من الضرر، فعند ذلك وجه إليه العشرين جفنا فجهّزها بجميع ما تحتاجه من الجهاز ومعها عساكر مقاتلة.

فلما وصلت إليه ضمّها إلى أجفان أندري دوريا<sup>(1)</sup> وأمره بالسفر لطلب أجفان خير الدين، فسمع بذلك خير الدين فبادر إلى تجهيز أجفانه واجتهد في عمارتها بجميع ما تحتاج إليه من العدة والعدد وسافر هو بنفسه، وكانت عدة أجفانه في هذه السفرة خمسة وثلاثين فاستولى على أجفان كثيرة من أجفان العدو وخرب كثيرا من بلاد السواحل وهو في أثناء ذلك يتوقع أن يُصادف أندري دوريا فلم يُقدّر اللقاء، فرجع إلى الجزائر وترك أجفانه على ما هي عليه كأنها تترقب السفرة مرة أخرى؛ وكان سنان رايس<sup>(2)</sup> لما استأذن خير الدين في الرجوع إلى جربة في سبعة أجفان كما تقدّم فأذن له بذلك، ومضت على ذلك مدة استقرّ فيها خير الدين بجيجل، وكتب أهل الجزائر في قدومه عليهم فخرج إليهم ووقع بينه وبين ابن القاضي ما وقع واستولى على الجزائر بعد ذلك حتّى أنشأ هذه الحرة في طلب اندري دوريا. فلما رجع منها تخوّف على سنان رايس المقيم بجربة أن يُصادف اللعين اندري دورية في بعض سفراته فكتب إليه يحذره من عاقبة ذلك ويأمره في القدوم عليه إلى الجزائر.

1. أحد كبار لصوص البحر وهو الذي سبق التعريف به، ولتعميم الفائدة أكثر نضيف هذه المعلومات المتعلقة بأحد كبار المرتزقة آنذاك: فهو قائد بحري شهير من عائلة جنوية الأصل عريقة في المجد والشرف كان قد انضمّ إلى حروب إيطاليا التي أثارها شارلكان وفرانسوا الأول ملك فرنسا ثمّ انحاز إلى فرنسا وحارب سفن شارلكان وانتصر عليها وحصلت بينه وبين مراكب العثمانيين عدة وقائع ثمّ ترك فرنسا وانحاز إلى شارلكان مقابل إرجاعه مدينة جنوة إلى استقلالها الأصلي في سنة 1528 وحارب مراكب فرنسا والدولة العثمانية وأخيرا اشتغل بتنظيم جمهورية جنوة حتى استحق أن يلقب بأبي الوطن وأقيم له بها تمثال عظيم كتب عليه (إلى أبي الوطن) وكانت ولادته سنة 1464 ووفاته سنة 1560 بعد أن عمّر نحو قرن كامل. وأنظر كتاب: تاريخ الدولة العلية، ص: 89.

2. أحد القراصنة العثمانيين الكبار الذي أوكلت إليه مهمة تدعيم خير الدين.

فلما وصل الكتاب تجهّز إليه بجملة أجنانه وقدم إليه ؛ فكانت جملة الأجنان الحربية بالجزائر سبعين، وقد كان خير الدين بعث إلى شرشال في عمل البشمات<sup>(1)</sup> فبقي يترجّاه حتّى يقدم عليه، وكان أحد أجنان العدو كثيرا ما يدخل إلى الجزائر على الأمان قد أخذ من خير الدين الكتاب المسمّى عند أهل البحر الياسبرط<sup>(2)</sup> فأمر أندري دورية<sup>(3)</sup> أهل الأجنان أن يتوجّهوا إلى الجزائر على عادته ويتخيل في حمل رجل من أهلها ليتوصّل بذلك الخبر إلى خير الدين، فتوجّه الجفن إلى الجزائر فلما كان بالموضع الذي يُقال له بهور<sup>(4)</sup> من أحواز المدينة، وجد هناك رجّلا يصيد السمك في قارب له كان من أهل الأندلس المستقرّين بمدينة شرشال<sup>(5)</sup> فأخذه ريس الجفن ورجع به إلى أندري دوريا وأوصل الرّجل إليه فاستفهمه عن أحوال خير الدين وعلى ما هو عليه عازم، فأخبره أنّ أجنانه يرسم السّفور ولم يبق له إلاّ البشمات يردّ عليه من شرشال، فتخيّر اللّعين عند ذلك وعلم أنّه لا طاقة له بحرب خير الدين، وأراد أن يُغالط لسانه ويُقيم غزوة في عدم ملاقات خير الدين بأن يسافر إلى ناحية الجزائر ويرجع منها إلى بلاد النصارى ويتعذّر للسلطان بعدم خروج خير الدين؛ ثمّ أنّه سافر إلى ناحية الجزائر فوصل إلى شرشال من أحوازها وظهر له أن ينزل في البرّ ليستولي على المدينة ؛ فلما

1. البشمات ذكر مؤلفا كتاب: Histoire de Barberousse في تعريفهما للبشمات قال: ج-2 le biscuit.

ص: 17 والبشمات كلمة تركية قد تعني الخبز اليابس ولكنها في هذا السياق تعني مؤونة الجيش ..

2. هكذا سجّله والذي يعني Passeport جواز العبور .

3. صاحب المخطوط يكتب دائما اسم هذا الأميرال الجنوبي هكذا «أندريه دورية» بحسب النطق الإيطالي، ولنا وجدنا مؤلف كتاب تاريخ الدولة العلية يكتبه: أندري دوريا «فضلنا كتابته بهذه الطريقة وليس هناك من فارق بينهما وحتى لا نشوش على القراء».

4. هكذا وردت الكلمة في المخطوط «بيوره أو «بهوره وتعني اسم مكان لم أتمكن من تحديده. وهو قريب من سواحل مدينة شرشال .

5. هذه الإشارة تؤكد استقرار بعض المورسكيين الأندلسيين بشرشال التي تقع على الساحل غرب عاصمة الجزائر .



سيرة المجاهد خير الدين بريور في الجزائر

أحوال النصارى وعن سفر أندري André حين أفلح من شرشال فأجابه الرومي : « إنه سافر إلى بلاد الجنوبيين ولم يظهر له خبر آخر » فأفلق خير الدين عن شرشال في طلبه فاجتاز بمدينة مرسيليا من بلاد الإفرنج وعلى بعض الجزر من أحوازها : وكانت تلك الجزيرة خالية من النصارى وكان وراءها مدينة يُقال لها بالرم<sup>(1)</sup>. وفي أثناء إرسائه على هذه الجزيرة ظهر له جفن صغير فسارع إليه أحد أجنان خير الدين بالمجاهدين فاستولى عليه وأتوا به إلى خير الدين فوجد ( ) الروم فسمعوا بذلك بالرمو. وكفى عندهم أربعة أغربة فسافروا في طلب من أخذ لهم ذلك الجفن ولم يعرفوا أنه خير الدين. وكان أحد أجنان خير الدين قد أرسى بعيدا عنهم فاستولت عليه تلك الأغربة وذهبوا به. فسمع بذلك خير الدين فتأسف عليه كثير واسترجع إلى الله.

ومن غرائب الاتفاق والأخبار التي تسرج في أخبار الفرنج بعد التفتة أن ذلك الجفن المأسور لما وصلوا به إلى جزيرة بالرمو جعلوا الأسرى متيدين في عنبره وذكروا عليهم من يوصلهم إلى حضرة مالكهم فكان من قدر الله سبحانه وتعالى والحظفة الخفية أن النصارى تركوا خلافا من المسلمين لم يقبلوه برسم النخون والخرج إلى الأسرى وتقيده بالرمو. فتك قيدا على أسير من المسلمين حتى فصله منه وتعاونتا على قيد آخر فخلصا صاحبه منه ولم يزلوا كذلك حتى تخلصوا جميعا من القيود.

1. في مدينة Palermo الإيطالية.

2. كلمة غير متييدة تيو معنونة بخطوط سنة 66.

3. القيد هو الأسير من بصفة عامة أو الصبيح وأحيى تعني الفرنسيين.



فلما كان الليل، وكان الحرس ينامون مُناوبة، قام أهل نوبة منهم وبقي الآخر فخرج أسارى المسلمين من العنبر فظنّهم بقية الموكّلين الذين لم يناموا أنّهم إخوانهم انتبهوا من النوم برسم الحراسة فلم يتّهموهم بشيء، فاستولى المسلمون على سلاحهم وقتلوا سائر الموكّلين بهم سوى خدّمة المركب من أهل المجاديف فإنّهم طلبوا الأمان منهم فعفوا عنهم، ولم يشعر خير الدين إلّا والجفن المأسور قد دخل عليه:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها      نَمّ فالمخاوف كلّهنّ أمان  
واصطدّ بها العنقاء فهي حبائل      وافتل بها الجوزاء فهي عنان

فحصل له به من الفرح ما لا مزيد عليه ؛ وكان بقرب الجزيرة التي أرسى فيها خير الدين جزيرة أخرى فيها سبعون من النصارى فتوجهوا إلى خير الدين بهديّة احتوت على ثلاثين طاسا من الفضة وعسل وسمن ودجاج والطيور التي تُعرف بالسّمّان وغير ذلك من الألطاف، فقبل منهم الطعام وردّ لهم الباقي ؛ ثمّ إنّه سألهم عن الرموهل يمكن أخذها أم لا ؟ فقالوا له: «لا يتأتى لك أخذها فإنّها محصّنة غاية التحصين»، والمنشار كما قيل أين له ليثني عزمه عن حصارها! وقال لعسكره الغزاة إن ذهبنا إليها ولا نحصل على فتحها تبقى لنا معرّة عند النصارى فتتربّص بها إلى أن يهيئ لنا الله أسباب التيسير في فتحها في غير هذه المدة، ثمّ إنّ خير الدين أقلع عن تلك المرسى فردّته الريح إليها مرّة أخرى.

رجعنا إلى خبر اللّعين أندرى دُوريا ؛ وكان لما أقلع عن شرشال فارّا وصل إلى بلاد الحنوين فبعث إلى طاغيته أن يرسل إليه بثلاثة آلاف من المقاتلين ومائة قنطار من البارود، ومن البشماط<sup>(1)</sup> ما يحتاج إليه،

١ . هنا يتأكد أنّ مدلول «البشماطه آنذاك هو مؤونة الجيش .

فأجابه إلى ذلك ووجه إليه ما يحتاج إليه في يومين، ما عدا العسكر فإنه اشتغل بجمعه وتجهيزه؛ وكان قد وجه إليه بالبارود وغيره من الأسباب في جفنين، وكان من قدر الله سبحانه وتعالى أن الريح الذي رد خير الدين إلى مرساه ساق هذين الجفنين إليه فظهر لخير الدين أحد الجفنين على بُعد، فبعث إليه أحد أصفانه لينظرها فرجع إليه وأخبره أنهما جفنان، فبعث من أصفانه من استولى عليهما.

فلما وصلوا بهما إلى خير الدين فرح بذلك، وحمد الله على ما هيأ له، فبينما هو في ذلك المرسى إذ ظهر له شرع في البحر يلوح فتميزوا ذلك الجفن قرأوا جفنا عظيما في منتهى الكبر، مستعد غاية الاستعداد، فأمر خير الدين أصفانه أن يحاربوه من بعيد ولا يلاصقوه، وحذر سنان رايس من ذلك على الخصوص، فلما أخذوا في قتاله لم يملك نفسه سنان رايس لفرط شجاعته وإقدامه إلى أن قرب إلى الجفن يريد الاستيلاء عليه فأصابته بندقية في إحدى عينيه ذهبت بها <sup>(1)</sup> فتأسف لذلك خير الدين وقال له: «من هذا كنت أخاف عليك؛ وإنه رجل شجاع لا يملك نفسه عند رؤية القتال»؛ ثم إن أصفان خير الدين قربوا منها وجعلوا يرمون عليها ويواصلون الرمي حتى أشرفت بذلك على العطب، فحين رأوا ذلك أهل المركب بقوا ينظرون حتى استولوا عليه ودخلوا إلى المرسى فرفعوا ما فيه من المتاع وأمر خير الدين بإحراقه وفرح فرحا شديدا.

ثم إن خير الدين بذل أموالا كثيرة لأهل الجزائر يرسم الصدقة مما أفاء الله عليه حتى أغناهم بذلك. ولما استقر خير الدين بالجزائر أخذ في تجهيز هدية عظيمة برسم السلطان الأعظم ووجهها صُحبة مصطفى

١. ما يلاحظ على الأخبار الواردة في هذا المخطوط هو دقة صاحبه في رصد تفاصيل الأحداث.

جاوش الذي قديم عليه سابقا كما أشرت إليه، وكتب كتابا إلى السلطان يُعلمه بسائر أحواله وبما أولاه الله تعالى من الفتح في غزواته البرية والبحرية. فسافر مصطفى جاوش المذكور إلى حال سبيله؛ وكان سفره في جفن واحد، وحصلت بين خير الدين وسنان راييس في أثناء هذه المدة وخشة ببعض سعي أهل الفساد وسمايرة الفتن وتصافيا بعد ذلك؛ وكان سنان المذكور، وبعض الرؤساء الأعيان عزم على السفر في غير إبانة فرُفع الخبر إلى خير الدين وحذر من غائلة ذلك، فقال خير الدين: «إن سنان راييس قوي العزم لا يردّه عن رأيه أحد ولا يد أن تقع له ندامة على السفر في غير أوانه». فسافر الرؤساء إلى ناحية بلاد التصاري وكان لخير الدين ابن هو الذي يعرف في زماننا مولاي احسن<sup>(1)</sup>، وكانت أمّه ذات نسب وشرف<sup>(2)</sup>، وكان أبوه صنع له مركبا وكان يسافر فيه برسم الغزو فلقبهما في هذه السفرة ولقي راييسين آخرين من رؤساء الجزائر أحدهما: صالح والآخر شعبان فهاج عليهم البحر وتراكت أمواجه، فلما أرادوا الدخول إلى بعض الجزر والإقامة بها إلى وقت سكون البحر فلم يُمكنهم ذلك فغضب الجميع على الساحل وأجقن مولاي احسن بن خير الدين وجفنان أخران من جملة من أجفان أبيه، وأنهم سلّموا، ثم إن أهل الأجفان المعطوية خرجوا إلى الساحل فحملهم أهل الأجفان السّالمة؛ وكانت هذه الأجفان وافية العمارة المقاتلة، فلما حملوا هؤلاء القوم كثر الازدحام وضاق على

1. هنا نجد صاحب المخطوط يشير إلى ابن خير الدين لأول مرة والذي يسمّى «احسن» ثم يحدّد ذلك بعبارة «زماننا» ممّا يدلّ أنّ مترجم الكتاب كان زمن حسن بن خير الدين والذي لا يمكن أن يكون خير الدين أثناء هذه الترجمة على قيد الحياة لأنّه سبق وأن ذكر خير الدين قائلا: رحمه الله، أو يحتمل أنها إضافات من قبل المترجم ٩ ...

2. يحتمل أنّ والدته من أهل جيجل نظرا لتردد خير الدين المستمر على مدينة جيجل. وهي امرأة ذات حسب ونسب ولا يمكن أن تكون تركية حسب تصوراتنا لأنّ مرحلة حياة خير الدين التي تؤهله للزواج كانت بالجزائر.

كل واحد موضعه فعند ذلك قال لهم أهل الأجنان: «لا نطيق حملكم معنا وقد شهدتم ما نحن فيه من الضيق والكرب فانظروا لأنفسكم»؛ وكانت بقربهم جزيرة فقالوا لهم المحمولون اذهبوا بنا إلى تلك الجزيرة واتركونا فيها لنحتال على أنفسنا في كيفية الخلاص، فأنزلوهم بتلك الجزيرة؛ وكان أهل ذلك الساحل الذي عطبت فيه الأجنان سمعوا بذلك ففزعوا إلى ذلك الموضع بكل ما قدروا عليه من أهل تلك البلاد ليستولوا على المسلمين الذين على الساحل؛ فكان من لطف الله سبحانه وتعالى أن إخوانهم المسلمين حملوهم إلى ساحل الجزيرة المذكورة؛ فلما أرادوا أن ينزلوهم بها تضرعوا إليهم أن لا ينزلوهم وقالوا لهم: «إخواننا إن تركتمونا بهذه الجزيرة استولى علينا عدو الدين، وأنتم المطالبون عند الله يوم القيامة»؛ فقال لهم رؤساء الأجنان: «تعلموا أنه قد لزمنا لتجهيز كل جفن من هذه الأجنان خمسة آلاف دينار وإن أنتم بقيتم معنا شغلتمونا عما نحن بصدده من طلب العدو، ولم يسعنا إلا الرجوع بكم إلى الجزائر ونرسو بساحل تمنفوست»<sup>(1)</sup>.

فلما رفع خبرهم إلى خير الدين تدبر بعقله في ذلك وفكر فيه فلم أنهم لم يفعلوا ذلك لأمر دأهمهم، ثم أرسل إليهم من يكشف أمرهم ويأمرهم بالدخول فأقاموا ذلك اليوم في موضعهم؛ فلما كان من القدر دخلوا إلى الجزائر وأرسوا بمرساها فلما اجتمعوا بخير الدين قال لهم: «ألم أكن حذرتكم من السفر في غير أوانه فأبیتكم إلا مخالفتي وهذا جزاء

1. تمنفوست هي روسيفينيا Rusguinae القديمة، وهي إحدى مراسي الجزائر وحسب المراجع التاريخية قد اعتمد خير الدين في دم الهوة البحرية التي تفصل بين الجزائر والقلة الإسبانية التي تعرف باسم «البنيون» والتي تسمى الصخرة باللغة الإسبانية أو «البجون» كما يسميها صاحب المخطوط Roché، على صخور هذا المرفأ القديم الذي يسمى روسيفينيا، وتمنفوست باللغة الأمازيغية تعني المروج الخضراء.

من خالف رأي نُصحاءه<sup>(١)</sup>، وإنما لم يأذن لهم خير الدين لرؤيا رآها ولم يذكرها لهم؛ وتلك الرؤيا على ما قيل أنه رأى سنان رايس وأحد الرؤساء كأنهما قد وقعا في وحل عظيم ففرقا فيه إلى أعناقهما فجعل يستعينان بخير الدين ويمدان إليه أيديهما لينقذهما فكأنه مد إليهما يده وأنقذهما من ذلك الوحل فظهر تأويل رؤياه فحملهما في أجفانه وكان ذلك سبب نجاتهما من محنة الأسر. ثم إن خير الدين عوّض سنان رايس ورفيقه بجفنين بدل جفنيهما وأحسن إلى سائر أهل الأجفان المعطوبة بالصلوات والإنعام وإخلاف ما ضاع لهم، ثم إنهم لما حضر فصل السفر المعهود تأخر سنان رايس ورفيقه عن السفر وقالوا<sup>(٢)</sup> ونخاف إن سافرنا أن نبتي بأعظم مما ابتلينا به. فقال لهم خير الدين: «اعزموا على السفر وتوكلوا على الله سبحانه وتعالى ولا تريا إلا خيرا»، فامتثلا إلى أمره وسافرا مع بعض أجفانه فاستولوا على مركب عظيم للكفار ودخلوا به في اليوم السابع من سفرهم إلى الجزائر؛ وكانت تلك الغنيمة لم يعهد مثلها ولا سمعوا بنظيرها في سالف الدهر، عزموا أنهم اطلعوا على ثبت مذكور فيه تعشير<sup>(٣)</sup> وصفها وهو المعبر عنه في زماننا بالقمرف<sup>(٤)</sup>، فكان ذلك مائة عام ألف ذراع فما ظنك بالمتاع الذي يلزم في تعشير هذا العدد؟ وكان خير الدين، رحمه الله، لما استولى على الحصن المجاور للجزائر وعلى الأجفان التي بقيت غنيمة جمع كل من قطعت يده أو رجله أو فقئت عينه أو أصيب بغير ذلك من الكفار في جفن ومن عليهم وأرسلهم إلى بلادهم.

١. قد يظهر من مثل هذه التصرفات أن هناك قرصنة لا يخضعون لأوامر خير الدين .

٢. أربع كلمات غير مفهومة وتبدو كالأتي: «إن تنجح خطة قد أقل» المخطوط، ص: 69 .

٣. لا أدري ماذا يقصد بهذا الثبث الذي وجد فيه تعشير ٩ هل هو لغز من عشرة رموز، أو شيء آخر ٩ . المخطوط، ص: 70 .

٤. القمرف كلمة تركية كانت تعني دكان بيع الدخان بمختلف أصنافه .

فلَمَّا وصلوا ذهبوا إلى الطَّاغية، لعنه الله، وسلموا عليه وأخبروه بكيفية  
استيلاء خير الدين على الحصن وعلى التسعة أجناف الواصلة إليه كما  
تقدّم الخبر بذلك.

فلَمَّا سمع بتفصيل ذلك منهم قام اللعين وقعد واستشاط غضبًا ونزل  
من سريره وقال أرمني أهل الجزائر بسهام حيث وجهت لهم الأجناف  
هدية؟ وكشف رأسه وجعل ينتف شعره ويحثُّ التراب عليه، وأخذ خنجرًا،  
أو أراد أن يقتل نفسه من ذلك ولم يزل وزراءه معه حتّى أجلسوه على السرير  
مرة أخرى<sup>(1)</sup> وقالوا: «أيها الأمير لا تتأسف على حصن في البربارية<sup>(2)</sup>،  
وعلى الأجناف التي ذهبت فإنها هي لوح ومسمار عندك من القوة ما تتشوّ  
كلّ يوم أضعافها، وأما الذين ماتوا من إخواننا فإنهم ساروا إلى رضوان  
المسيح، وأما الذين استولوا عليهم هكذا وقع عليهم قدر المسيح، ولعلمهم  
خالفوا أمره فحكم عليهم بذلك». فقال لهم اللعين: «إنّ ذلك الحصن  
كان لي سلماً إلى فتح الجزائر وأخذها من المسلمين. فلَمَّا استولوا عليه  
لم يبق لي طمع فيها، فهو قبلة أهل الجزائر». وقالوا له: «إن عزم الملك  
على أخذها يأخذها في أقرب مدة، وجعلوا يسألونه بمثل هذا الكلام حتّى  
سكن غيظه واستروحوّ منه روائع التأنس والانبساط؛ ثمّ إنّه شرع في  
تجهيز أجنافه فلَمَّا تمّ تجهيزها أرسلها إلى ناحية إقليم الروم من بلاد  
السلطان الأعظم سليم خان بن سليم خان<sup>(3)</sup>، وكان في ذلك الوقت حديث  
عهد بالسلطان<sup>(4)</sup> فقصدت إلى ناحية غرناؤوط من تلك البلاد وأضرّت

1. هذه تصورات صاحب المخطوط.

2. المقصود حصن «البنبون» بـ «Berberia»، الجزائر.

3. يبدو أنّ المقصود هو السلطان سليمان، ويمكن أن يكون سهواً من ناسخ المخطوط.

4. يقول مؤلف كتاب تاريخ الدولة العلية: «ولم يكن السلطان متصفيا بما يؤمله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء إليها ولولا وجود الوزير الطويل الباغ محمد باشا صقلي المدرب على الأعمال الحربية

ذلك واستصوب رأيهم ؛ وقد كان في أثناء هذه المدة عزم خير الدين على السفر إلى حضرة السلطان الأعظم برسم ملاقاته والإتجار بما يأمر به من إقامته عنده أو إرساله إلى الجزائر مرة أخرى وأخذ في تجهيز السفر برسم ذلك.

### إعداد الطّاغية إلى مولاي عبد الله صاحب تلمسان على خير الدين رحمه الله

وقد كان الطّاغية، لعنه الله، وجّه إلى سلطان تلمسان يعده ويمنيه، وأرسل مالا عظيما وأغراه بالانتقاد<sup>(1)</sup> على خير الدين والإجلاب<sup>(2)</sup> على الجزائر مع إجلاب أجفان الطّاغية بحرا، والتزم أنّه إذا استولى على الجزائر يردّها إلى إِيالته كما كانت في عهد آبائه من قبل. وأنّ سلطان تلمسان في قلبه حزازة عظيمة من خروج إيالة الجزائر من يديه. فحين ورد عليه كتاب الطّاغية بذلك ألقى سمّعه وأخذ بجوامع قلبه وانتفض على خير الدين وأخذ في الحركة إليه، فجعل يجمع عرّبه وأهل عمالته وضرب أخبيته خارج تلمسان وتبرّأ من كل ما سلف له مع خير الدين.

وكان الطّاغية وجّه إليه أربعة عشر جفنا برسم إعانته فأرست بأرشكون<sup>(3)</sup> من سواحل تلمسان فأحسّ خير الدين بالخبر فبعث أحد أجفانه ليأتي له بخبر أجفان العدو، وأجلّ له عشرة أيّام ؛ ثمّ إنّ مولاي عبد الله تحرّك إلى الجزائر في جيوشه من العرب ورجاله من زنّاته<sup>(4)</sup> فنزلوا على الحدّ

1. هكذا وردت العبارة في المخطوط واعتقد أنّه يقصد «الانقضاض»

2. هكذا وردت العبارة في المخطوط واعتقد أنّه يقصد الهجوم على الجزائر أو الزحف عليها.

3. لم أتمكن من تحديد هذا المرفأ .

4. زنّاته اسم قبيلة بربرية تسكن شمال إفريقيا ذات قوة ومنعة وعصبية مشهورة.



الفاصل بين عمالته وعمالة خير الدين ؛ فكان هنالك عامل لخير الدين فوجه إليه بخبر صاحب تلمسان فعند ذلك وجه خير الدين إلى سائر عسكره المتوزعين على قري الجزائر في القدوم عليه وأجل لهم ذلك إلى الثلاثاء، وخرج من الجزائر بعسكره المقيم فيها، وكان خروجه منها في اليوم الثاني من ورود الخبر عليه في وقت الزوال، وفي اليوم الثاني من سفره قدم الجفن الذي وجهه للتجسس على الأجفان المقيمين بمرسى أرشكون، فكتب إليه نائبه يعلمه بقدوم الجفن، وأن رؤساء البحر عزموا على الخروج إلى هذه الأجفان ومَنَعَهُمْ ولم يأذن لهم بذلك، وبعد ثلاثة أيام من سفره ورد عليه الكتاب فكتب (إليهم فيها هم عن) <sup>(١)</sup> طلب أجفان العدو ويأمرهم بترك أجفانهم على ما هي عليه.

وكان سنان راييس خرج في مدد إلى خير الدين يضم خمسمائة مقاتل من العسكر فأجتمعوا معه وجد في السير في طلب صاحب تلمسان إلى أن حصل بينهم اللقاء في بعض تلك النواحي الغربية فوقع بينهم قتال عظيم.

فلما علم العرب أنهم لا طاقة لهم بقتال العسكر انهزموا كما جرت عادتهم في تلك المواطن وجد العسكر السير في آثارهم، فبعد جهد عظيم خلص عبد الله إلى تلمسان فجاء خير الدين السير في أثره حتى نزل عليه بتلمسان فعند ذلك وجه إليه مولاي عبد الله بمشايع العرب وكبراء أهل دولته يلتبس منه الصلح كما جرت عليه عادته، وبعث معهم إلى خير الدين بثلاثين ألف دينار فلم يقبلها خير الدين وقال لهم: «إن هذا الرجل لا دين له ولا إيمان فينغص علينا المرة بعد المرة تارة بما تسؤل له نفسه، وتارة

١. هكذا وردت الصياغة في المخطوط واعتقد أنه يتصد «فكتب إليهم بالكف من طلب أجفان العدو».



بإغراء النصارى فليس مني له أمان أبداً، فرجعوا إلى صاحبهم بذلك وأعلموه بمقالة خير الدين، فعند ذلك خرج هو بنفسه وترامى بين يديه وجعل يتذرع إليه في الإبقاء عليه.

وكان خير الدين رجلاً صالحاً حلماً كريماً<sup>(1)</sup> فقبل منه وعفا عنه ورجع خير الدين إلى الجزائر مؤيداً منصوراً. ووصل خبر هذه الواقعة إلى الطاغية اللعين فكتب إليه بذلك؛ وفي أثناء ذلك جهّز اللعين أندري دوريا بعمارة إلى ناحية الشرق ومكث يتربّع. وكان صاحب أنكروس قد استنصر بالطاغية اللعين كما تقدّم، ولم يزل يلحّ عليه بذلك حتى أجابه وسافر هو بنفسه لنصرته فقبل وصوله استولى السلطان سليمان<sup>(2)</sup> على أنكروس فرجع اللعين إلى بلاده خائباً، ثم إن خير الدين جهّز أجفانه وأرسلها إلى ناحية بلاد النصارى فأرسوا ببعض مراسيمهم؛ وقد كان سائر النصارى ضجّوا إلى طاغيته من خير الدين وجماعة غزاته وقالوا له: «أيها الملك أنت منشغل عنا في أكلك وشربك وهذا الرجل وأصحابه قد فعل ما فعل من القهر والغلبة، ولم يبق لنا إلا الذهاب إليه والدخول في طاعته؟»<sup>(3)</sup> فانتفض اللعين من قولهم وجهّز خمسة عشر جفناً برسم حراسة سواحل بلاده وإن ظفروا بأجفان المسلمين دلفوا في قتالهم ولا يرجعون عنهم إلا بعد النظر

1. والعا يكرر صاحب هذا المخطوط مثل هذه الصفات التي يتحلّى بها خير الدين بربروس.
2. السلطان النازي سليمان خان الأول القانوني ولد هذا السلطان الذي بلغت الدولة العلية في منتهى أعلى درجات الكمال في غرة شعبان سنة 900 هجرية الموافق 27 أبريل 1494 ميلادية وهو عاشر ملوك آل عثمان ولو أنه بعض المؤرخين حادي عشرهم باعتبار سليمان الذي تنازع أخاه محمد جلبي الملك سلطاناً فذلك خطأ لأنّه لم يحكم بصفة قانونية ولذلك أجمع المؤرخون على تسمية السلطان سليمان بالأول واعتباره عاشر ملوك هذه الدولة وهو الأصح... واشتهر بالقانوني لما وضعه من النظامات الداخلية في كافة فروع الحكومة... توبخ هذا السلطان في 20 صفر سنة 974 هجرية الموافق 5 سبتمبر 1566 ميلادية. أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 79 - 109.
3. في هذا الكلام دلالة على مدى السطوة التي كان تتمتع بها خير الدين في البحر المتوسط، والحق ما شهدت به الأعداء كما يقال.

بهم أو هلاك أنفسهم، ثم إنهم بقدر الله ساقهم الرّيح إلى المرسى التي بها أجفان خير الدين وكان طلوعهم عليهم عند اسفرار الصّباح ؛ وقد كانت أجفان خير الدين مستعدّة للقائهم فكادهم بمكيدة وهي: أنّهم خرجوا من تلك المرسى موهمين بطمع في أجفان العدوّ وتبعوهم. فلما بعدوا في آثارهم انعطفت عليهم أجفان المسلمين واستولوا عليهم بتأييد الله تبارك وتعالى ورجعوا إلى الجزائر بهذه الغنيمة العظمى، فسمع بذلك الطاغية لعنه الله فمات بعد ثلاثة أيّام من وصول الخبر إليه أسفا وجزعا وولّوا آخر مكانه فجمع الرّهبان والقسيسين وقال لهم: «إن الأندلسيين الذين في بلادنا يظهرون دينهم ويشهرون شريعتهم فهل يجوز ذلك في ديانتنا أم لا؟<sup>(1)</sup> وإذا كان لا يجوز فكيف العمل معهم؟» فأجمع الرّهبان والقسيسون على عدم جوازها، وقالوا له: «أيّها الملك لأجل إشهار دينهم وإشهار ملتهم في بلادنا غضب علينا المسيح ونخاف على أبنائنا ونسائنا أن يستملوهم ويدخلوهم في دينهم فإنّهم أعداؤنا ومنّ قاربهم عندنا، ولا تجتمع ملتان في أرض واحدة<sup>(2)</sup> ولا يتأتّى لنا النّصر على عدوّنا ما بقي هؤلاء القوم عندنا؟» فعند ذلك رسم الطاغية بأن يحمل أبناء المسلمين وبنايتهم إلى الكنائس لقراءة الإنجيل والدخول في دين النصرانية، وأشاع النّداء بأن من أظهر أذانا أو تلاوة أو ذكرا أحرق بالنّار<sup>(3)</sup>. فأجتمع المسلمون من أهل الأندلس ودخلتهم حميّة الإسلام فأخذوا سلاحهم وحملوا نساءهم وأبناءهم إلى

1. جرت العادة أنّ المورسكيين الذين بقوا تحت الحكم المسيحي الإسباني يظهرون اعتناقهم للدين المسيحي ويخفون عقيدتهم الاسلامية خوفا من جواسيس محاكم التفتيش التي نصبها الملك الكاثوليكي فرديناند وأطلق عليها تسمية La Santa Inquisition.
2. وهو موقف ينم عن التّصّيب وعدم التسامح.
3. وقد أشرف على تنفيذ هذه التعليمات الجائرة كما نعرف جهاز محاكم التفتيش الذي يسمى في زمانه La Santa Inquisition. فالغريب في الأمر أنّ هذا الجهاز الإجرامي الذي مهمته التطهير العرقي والنّقا في يحمل سمة القداسة عندهم.

جبل تلك البلاد يقال له بارد<sup>(1)</sup> وتحصنوا به من الكفار فتحرك إليهم  
النصارى بقضهم وقتلهم فاستولوا عليهم آخر الحال وردوهم إلى المكان  
الذي كانوا فيه، فكتب أهل الأندلس إلى خير الدين<sup>(2)</sup> يعلمونه بما تم من  
النصارى من هذه المحن ويتضرعون لإنقاذهم مما هم فيه. فوصل إليه  
كتابهم في الاستغاثة بالمسلمين ودخلته حمية الإسلام والغيرة على الدين  
المحمدي فعند ذلك جهز إليهم ستة وثلاثين جفنا؛ فلما رأهم الأندلسيون  
خرجوا إلى ذلك الجبل المتقدم فتحرك في طلبهم النصارى. فلما وصلوا  
إلى الجبل رجع إليهم أهل الأجفان من المسلمين وأتوهم من ورائهم ووقع  
بينهم قتال عظيم، فنصر الله المسلمين عليهم، فأخذ الكفار في الفرار  
وتبعهم المسلمون في إثرهم حتى أبعدوا عن مكانهم؛ ثم إنهم رجعوا، ولما  
رأى أهل الجبل من أهل الأندلس ما منح الله عسكر المسلمين من النصر  
نزلوا إليهم من الجبل وسلموا عليهم واستبشروا بقدومهم، وذهبوا بهم  
إلى مدينتهم فحملوا نساءهم وأبناءهم وما قدروا عليه من أموالهم  
وأثاثهم فأتوا به إلى الأجفان وأوسقوها بذلك، وركب فيها عدد كبير منهم  
ورجعوا إلى الجزائر بعدما خلفوا ألف مقاتل من العسكر يحرسون جماعة  
المسلمين الباقين في الأندلس خوفا عليهم من غائلة النصارى لعنهم الله.  
فلما وصلت الأجفان إلى الجزائر تركوا ما حملوا من الأندلسيين بها  
ورجعوا إلى ذلك الجبل لحمل بقية المسلمين، فتكرر ذلك منهم سبع مرّات

1. أعتقد أن صاحب المخطوط أخطأ في تسمية الجبل لأن المصادر التي اعتنت بثورات المورسكيين تحدثنا  
عن ثوراتهم التي كانت شرارتها الأولى من جبال «البشاراته شمال شرق غرناطة والتي تعرف تسميتها  
بالإسبانية Las Alpujarras وتوالت ثورات المورسكيين من 1500 و1568 و1570 وما بعدها... أنظر د.  
عبد الله حمادي: المورسكيون ومحاكم التفتيش في الأندلس... ص: 130 - 131.  
2. إلى حد الآن لم نعر على هذه المراسلات التي كانت بين المورسكيين وخير الدين من أجل نجدهم.

فكان جملة ما حملوه سبعين ألفاً<sup>(1)</sup>، وبقيت عادة أجفان الجزائر أنهم في كل سفرة يُسافرونها برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل بلاد الأندلس ويعودون بجماعة المسلمين منها.

## سبب سفر خير الدين إلى السلطان سليمان خان ؟

ذكر سفر خير الدين إلى حضرة السلطان سليمان خان ؛ كان السلطان سليمان رحمه الله<sup>(2)</sup> لما استولى على أنكرس قرّ صاحِبها منه ففرق في بعض المروج يُقال له مرج الفضّة فأوتي به إلى السلطان فأمر بحمله إلى مقبرة آبائه ببغراد، ورجع السلطان بعد ذلك إلى حضرة "أسطنبول" فعزم على السّفر بسائر عسكره إلى إقليم إسبانيا للاستيلاء عليه، وظهر للسلطان سليمان خان أنّه لا بُدّ له من رجل يعتمد عليه في تلك البلاد ويكون عارفاً بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرف من شجاعته وإقدامه وكثرة غزواته وما فتحه من بلاد العرب بنفسه، وكيف أقرّ دعوة بني عثمان في المغرب ؟ فوجّه إليه كتاباً يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره بإسناد الأمر لمن يظهر له بالجزائر من بعده، وإن لم يجد له ذلك بعث إليه السلطان من عنده نائباً، ورسم له في ذلك الكتاب أن لا يترك الجزائر من غير

1. هذا المخطوط يقدّم لنا العدد الأوّل من المرحّلين من الأندلس أيام خير الدين إلى الجزائر وهم الذين استوطنوا مدينة الجزائر ومن أشهر أحيائهم حي «تاغارا» Taghara وتعني هذه العبارة «التوريين» وهم الأندلسيون الذين كانوا يسكنون التّغور المحاذية للأعداء الإسبان أو المتاخمة لهم حتّى أنّ كثيراً من النّدلسيين أصبحوا يكونون بالتّوريين.

2. - يذكر هنا صاحب المخطوط السلطان سليمان ويقول رحمه الله وهو ما يدلّ على أنّ تاريخ ترجمة هذا المخطوط أو كانت كتابته بعد تاريخ وفاة السلطان المذكور أي بعد 1566 وهو ما يتناسب وما سبق ذكره من كون ترجمة الكتاب كان أيام مولاي حسن بن خير الدين، وبعد وفاة خير الدين عام 1546، وكذلك بعد وفاة السلطان العثماني عام 1566 كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

نائب وأرسل الكتاب مع رجل من خُدّامه يُقال له سنان جاوش، فوصل إلى الجزائر وحضر بدار الإمارة ووصل كتاب السلطان إلى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه ؛ ولَمَّا قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانا عظيما وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان أهل البلاد وقرأ عليهم كتاب السلطان الذي وُجّه إليه وأعلمهم أنّه لا يمكن التخلف عن أمره، وأنّه أخذ في السفر إليه وعيّن لهم رجلا يقيمه نائبا عنه إلى حين رُجوعه من خدمة السلطان، وقال لهم: «إني قد أوصيته عليكم وأمرته بالعدل فيكم فاستوصوا أنتم به خيرا»<sup>(1)</sup>.

ولَمَّا سمع اللّعين أندري دوريا بما عزم السلطان عليه من فتح إقليم إسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك أراد أن يشغل خير الدين عن سفره إلى حضرة السلطان فأحتال لذلك بحيلة وهي أنّه جهّز جفنا إلى الجزائر فيه متاع ما قدره ستّة آلاف دينار وأودع فيها سبعين أسيرا من المسلمين برسم الفداء وبعثه إلى الجزائر برسم التجارة والمُفاداة<sup>(2)</sup>، وأمر النّصاري من أهل الأجناس أن يُشيعوا في الجزائر أن سلطان إسبانيا أخذ في الحركة إليها عازم على غزوها بنفسه. فلَمَّا وصلوا إلى الجزائر اشترى منهم خير الدين تلك السِّلَع وأعطاهم فدية المسلمين الذين قُدِمُوا بهم، وأشاع النّصاري بالجزائر تلك المقالة التي أمرهم بها أندري فسمِعها خير الدين فَعَلِمَ أنّها مكيدة، ولكنه أمر بتحصين الجزائر ونصب المدافع على حُصونها فرجع راييس الجفن إلى أندري وأخبره بما شهد من حزم خير الدين وتحصينه البلاد واستعدادِه للحرب وأخذ أهيبته.

1. كان هذا الحدث التاريخي الهام في حياة المجاهد خير الدين سنة 1533 والذي سيجعل منه أمير الأسطول العثماني.

2. المُفاداة هي El Rescate.

وفي أثناء هذه المدة كانت بعض أجفان خير الدين مُسافرة فننموا أربعة أجفان صغار للنصارى كان فيهم عشرون رايسا من رؤسائهم، وكان فيهم مائة وأربعون من كُبرائهم الذين يجعلون المناويل في أعناقهم<sup>(1)</sup> لم تهرم الشمس قط لتيهمهم وترفهم وفيهم فتى من ملوك رودس<sup>(2)</sup>، فرجعوا بهم إلى الجزائر فحزن النصارى لذلك حزنا شديدا وأقاموا في الكنائس ثمانية أيام ينوحون على رؤسائهم، ثم اتفق رأيهم على فدائهم من يد المسلمين وبعثوا إلى خير الدين بذلك وبذلوا لهم في الفتى الذي هو من أبناء ملوك رودس<sup>(3)</sup> وزنه مالا فامتنع خير الدين من فدائه وسد أذانه عن سماع ذلك وقال لمن حضر من أعيان البلاد إن هؤلاء الكلاب لا ينسون ثأرهم فإذا وصلوا إلى بلادهم عمّروا الأجفان في طلبنا فاستصوبوا رأيه وقالوا لمن قديم إليهم من النصارى برسم الفداء: «أميرنا لا يقبل فيهم فداء ونحن على مثل رأيه؟» فرجعوا إلى بلادهم خائبين، فتضاعف حزن النصارى لذلك وشدّدوا على أسارى المسلمين الذين في أيديهم وضاعفوا عليهم العذاب، وراجع خير الدين رأيه في السفر إلى إقليم الروم وقال: «إن

1. هذه صفات تدل على أنهم من النبلاء .

2. روطس أو رودس هي جزيرة في البحر الأبيض المتوسط يشكل موقعها حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر. يشق اسمها من لفظة (رودون) اليونانية ومعناها الورد، فتحها السلطان سليمان الأول الغازي سنة 1522 ولم تزل تابعة للدولة العثمانية، وكان بها تمثال عظيم الجنة يقال إن ارتفاعه كان يبلغ ثلاثة وثلاثين مترا هدمته الزلازل في القرن الثالث قبل المسيح .

3. يكذب شوفالييه هذه الرواية ويقول: «... إن ابن قائد السفن الإسبانية (الذي قالت عنه غزوات خير الدين خطأ بأنه ابن أحد قضاة جزيرة رودس) هو جون دوبور تونتو الذي كان قد أسر خير الدين أثناء معركة حيث أسر معه في نفس الوقت أربعة سفن حربية، قد نظم مؤامرة هو ومرافقوه في التكية هدفها استعادة سيادة المدينة أو إغتيال أنفسهم بالسلام واكتشف خير الدين خطتهم بواسطة إنذار أو رشاية رأها في حلم وهو نائم وقد حصل على أدلة عن هذه المؤامرة بواسطة اللجوء إلى الحيلة والمخادعة وفي ديسمبر 1531 أذهل الجنادة المذبذبين وقطع رؤوس عشرين من بين هؤلاء المسيحيين الذين ظهروا له بأنهم الأكثر ذنبا وأرسل الآخرين إلى السجن المخصص للأسرى. ص: 61 .

ذهبت وتركت الأسارى من النصارى بالجزائر أخشى على الجزائر من غائلتهم، وإن سافرت بهم معي أخاف من أمور البحر فربما تخلصوا إلى بلادهم وضاعفوا على أسرى المسلمين ما هم فيه من العذاب والمحن». وكان خير الدين سمع بما فعله النصارى من التضيق على أسرى المسلمين فزاد هو في التضيق على أسرى النصارى الذين عنده، فسمع بذلك الروم فنفسوا على أسرى المسلمين، فنفس هو على أسرارهم أيضا. وكان عدد الأسارى بالجزائر سبعة آلاف أسيرا، ولما نفسوا من النداء والتخلص من يد خير الدين اتفق رأيهم على الثورة بالجزائر فأبوا بها والأهربوا؛ وكان خير الدين قد وكل عليهم أحد ثقاته من أهل بلاده مدلي. وكان النصارى قد عزموا على قتله حين أرادوا الثورة، فرأى خير الدين في علم التوم كأن دار هذا الموكل في مدينة مدلي أرادت أن تسقط منها أسطوانة فأقامها خير الدين بيده فتأول هذه الرؤيا أن حادثا بهذا الموكل يخلصه منه خير الدين. فلما كان صباح هذه الرؤيا أرسل إلى الموكل فلما حضر بين يديه أعلمه بما رآه وبما تأوله، وأمره خير الدين أن يشكو إلى النصارى منه لعدم الإحسان إليه ويكثر من شكواه في ذلك ليطلع على ما في ضمائرهم من الوقوع في خير الدين وإقضاء بعض أسرارهم في ذلك، وهذا من شدة حذره رحمه الله، فذهب الموكل من عنده وهو كائن مغضب فلقى بعض من كان يخدم النصارى منهم ويدخل ويخرج إليهم وجعل يشتم خير الدين بحضرته ويقول: «كم لي في خدمة هذا الرجل ولم أر منه خيرا قط وهو مع ذلك يُمَنِّني دائما ويتوعدني بلا سبب فرط مني إليه ٩»؛ وجعل يردد مثل هذا الكلام، فجعل بعض كبراء النصارى المحبوسين يقول لجماعته اسمعوا ما يتكلم هذا الرجل، ودخل الموكل إليهم بعد ذلك يذم ويوقع في خير الدين

بالكلام القبيح ويقول في جملة كلامه: «كم لي في خدمته ونُصحه وما كفاني على ذلك سوى أن جعلني في هذا المقام؟»، وكنت أظنُّ أنَّه يقدِّمني على بعض التواحي من عمالته أكون عليها أamina من قبله وما أراه صنع الإحسان إلا مع الأجانب، وأما الأقارب مثلي فلم يروا خيرا، وكلُّ ما أرفعه عليكم وأسعفه لجانيكم وأردُّ عزمه على التضييق عليكم يزداد علي غضبا ويسمعني من الكلام على ذلك القبيح ما لا أقدر على التعبير عليه؟»، ومن جملة المكاييد التي نصبتها هذا الموكلُّ أنَّه ردَّ وجهه إلى الفتى الذي هو من أبناء ملوك رودس وقال له بلسان الروم: «أي شنيور<sup>(1)</sup> مثلي يكون حاكما عليكم وكلِّ واحد منكم كان حاكما على مدينة خصوصا أنت فإنَّ أباك كان ملك رودس، وأنا من مدينة مدللى الغربية وفيها قد صنع أبوك معي خيرا كثيرا لا أقدر على مكافأته وأن لا أقدر أن أرفع طريفي أمامكم حياء منكم ولو قدرت على الفرار من هذه المدينة لفررتُ منها، وأنا أترقب وقتا لذلك، ولم يزل يردِّد إليهم هذا الكلام وأمثاله حتى أطمأنوا وركنوا إليه، فعند ذلك قالوا: إنَّا قد دبّرنا أمرا يكون فيه خلاصنا إن شاء الله من يد هذا الرجل، فإنَّ أنت ساعدتنا عليه وبذلت مجهودك معنا فيه ترى ما نقابلك عليه من الجميل وحسن المكافآت». فقال لهم: «أيُّها الرؤساء وأبناء الرؤساء أي شيء اتفقتم عليه ودبّرتموه لخلاصكم فإنَّ يدي وبكم في ذلك يدا واحدة واستروا ما أفعل من الاجتهاد في خلاصكم فدبّروا لأنفسكم واحتالوا بأي حيلة ترونها؟» فأروه كتابا كتبوه إلى الوالي ببجاية، وكانت تلك بيد النصارى كما تقدّم ذكره في حصار عروج وخير الدين إياها، ولم تنزل في يد النصارى الجنويز<sup>(2)</sup>

1. - نعم يا Senor باللغة الإسبانية ،أي يا سيد .

2. أي الجنويون نسبة إلى جنوة وبالتالي لم تكن بجاية تحت السيطرة الإسبانية .



حتى فتحها المرحوم صالح باشا<sup>(1)</sup> كما سيأتي ذكره في أخباره إنشاء الله تعالى، ومُضمّن هذا الكتاب الذي كتبه النصاري التأكيد على والي بجاية أن يرسل إليهم بعض الأجفان إلى تمنفوست وأعلموه في ذلك الكتاب أنهم عزموا على القيام في الجزائر بثورة مع أهلها فإذا تم لهم ذلك فروا إلى ناحية تمنفوست وركبوا البحر إلى بجاية وأكّدوا عليه في ذلك وشكّوا إليه ما هم فيه من الضيق وأنواع العذاب، وطلبوا منه أن يردّ لهم الجواب ويعين اليوم الذي يقدم فيه جفنه إلى ذلك المحلّ المذكور؛ ثمّ إنهم قالوا لهذا الموكل كم لهذا الكتاب من يوم حين كتبناه، ولم نجد مع من نوجه؛ لأننا في الموكل كم لهذا الكتاب من يوم حين كتبناه، ولم نجد مع من نوجه؛ لأننا في هذا المحلّ، كما تعلم، من الحبس والتضييق حتى منّ المسيح بك علينا وقد كنّا عزمنا على قتلك؟ فعند ذلك علّم هذا الموكل أنّ هذه كرامة صدرت من خير الدين لأجل الرؤيا المتقدمة التي رآها. فقال لهم: «إذا سأطلب من خير الدين أن يجعلني واليا على بعض النواحي الغربية من بجاية فإذا وصلت إليها بعثت الكتاب إلى واليها؛ فعند ذلك بعث إليه الكتاب فأوصله إلى خير الدين وقبّل يديه وقال: «يا مولانا الآن تحققت من ولايتك»<sup>(2)</sup> وأراه الكتاب الذي معه. فلما قرأه خير الدين وعلم ما فيه قال له: «سرّ به أنت إلى بجاية ومكّنه من يد واليها». فلما وصل إلى بجاية ورآه أهلها من النصاري قالوا: «هذا تركي وصل إلينا» فذهبوا به إلى الوالي فدفّع إليه الكتاب، فلما قرأه، قال: نعم أبعث إليهم ما طلبوه ولكن أخاف أن يقطن به بريروس؟ وجعل هذا الرجل يرى سيكّ بجاية وأسارى المسلمين الذين

1. هنا يتأكد أنّ المخطوط الذي معنا تنقصه كلمة وهي التي أشار إليها المترجم في آخر هذا المخطوط والتي وعد فيها بذكر مؤلف المخطوط الحقيقي والتعريف به وكذلك الاعتراف الضمني بأنه ليس مؤلف هذا المخطوط.

2. بقصد كراماته كولي من أولياء الله الصالحين.

هنالك يسبّونه ويصقون على وجهه لما علّموا أنّه أتى رسولا من النصارى الذين في الجزائر، ويقولون لبعضهم بعضا كم أحسن إليه خير الدين، وكم نعمة أسناها إليه ومع ذلك غدره وصار عينا للنصارى وجاسوسا لهم يوصل كتابهم إلى عدوّه يحملهم منه إليهم؟ وهم مع ذلك لا يعرفون حقيقة الأمر، ولا المكيدة التي كادهم بها خير الدين. وأقام ببجاية إلى أن كتبوا إليه كتابا إلى النصارى بالجزائر يُعين لهم فيه اليوم الذي يرسلون إليهم الجفن إلى المحلّ المعهود بينهم، ورجع هذا الرّجل بالكتاب. فلما كان يقرب الجزائر وجهه إليه خير الدين بعض خدامه فأوثقوه ومعه الكتاب ودخلوا به إلى خير الدين على هذه الحال. فقال له: «يا خائن يا غدار تكون من جملة خدّامي وخواص حاشيتي ومع ذلك أنت جاسوسا لهم تحمل كتابهم إلى أهل بجاية وتأتي به إليهم؟» ثمّ إنّ أمر بتفتيشه فوجد معه الكتاب الذي وجهه والي بجاية إلى نصارى الجزائر فأخذه منه وأمر بحبسه مع النصارى في المحلّ الذي كانوا فيه، فحين اجتمع بهم قال لهم: «أنظروا ما حلّ بي من ألكم، ذهبْتُ أنا بنفسي إلى بجاية وأوصلت الكتاب إني واليها ورجعت بالجواب منه إليكم فقطن بربروس ففعل بي ما ترون؟» وما هو إلا شيطان من شياطين التّرك والله يخلّصنا جميعا من هذه المحنة فصاروا ( ) (1)

لحالهم ويعضّون أيديهم من التّدامة على توجيه الكتاب، ولما قُرب وقت مجيء الجفن من بجاية بعث خير الدين أحد أصفانه ليرصدونه هنالك، وجعل فيه جماعة من المُقاتلة الذين كان يستعملهم في المهمّات، فأقاموا في ذلك الجفن يترصدون الجفن البجائي؛ وكان والي بجاية جهّز جفنا وجعل فيه مائة وعشرين رجلا من رجال البحر، فحين وصل إلى جوار تمنفوست

١. كلمة غير منهومة وقد تلمي برارون، المخطوط، ص 79.

رأى جفن خير الدين هنالك فعلم أنه جفن الترك، فعزم على الفرار منه فلم يملكه ذلك وأدركه الجفن واستولى عليه فدخل به إلى الجزائر فاستبشر بذلك خير الدين وحصل لأهل الجزائر بذلك سرورا عظيما، وعند ذلك أحضر خير الدين النصاري المأسورين في الجفن ورؤساء النصاري الأسرى عنده وأراهم الكتاب الذي وجهه والي بجاية إليهم فبهتوا وأخروا عن الجواب، وقال لهم: «قد عوضني الله منكم بمائة وعشرين من أبناء ملتكم وأمر بضرب رقاب العشرين، وأمر بحمل النصاري من أهل بجاية إلى الحبس المعد لهم».

### ذهاب خير الدين باشا<sup>(1)</sup> إلى إسطنبول الحضرة السلطانية تصره الله

ولما تمّ لخير الدين ما تمّ من هذا الغرض وآمن على الجزائر من العدو ركب البحر متوجّها إلى حضرة السلطان سليمان كما رسم له في الكتاب الذي وجهه إليه مع سنان جاوش، بعدما جعل على الجزائر نائبا يتوب عنه في غيبته، وأوصاه بأهل الجزائر خيرا؛ وكان سفر خير الدين في أربع وأربعين جفّنا، فكان لا يبقى جفنا من أجفان العدو إلا واستولى عليه حتى حصل على غنائم كثيرة، وذهب إلى سواحل جنوة فعات فيها وتركها خاوية

1. - يعلق صاحب كتاب: Histoire de Barberousse على اللقب التشريفي الذي أحقه صاحب المخطوط

بخير الدين وهو «باشا قاتل»: «ici le traducteur porte dans une note la nomination de Khair-ed-din à la dignité de Pacha à l'année 1521, c'est un erreur; Khair -ed-din fut nommé Pacha en 1534 et immédiatement il eut l'ordre d'aller ravager l'Italie», Gène, et d'attaquer Tunis: vol: 1, p: 309.

لأن خير الدين نال لقب باشا عام 1534 ولعل هذا ما يتناسب مع الأحداث الواردة ذكرها بعد هذا العنوان والتي يمكن أن تكون حدثت بعد هذا التاريخ.

على عروشها، واستولى في نواحي صقلية<sup>(1)</sup> على ثمانية عشر جفنا للكفار  
فحمل الأسرى في أجزائه وأمر بإحراق تلك الأجفان التي استولى عليها،  
وسأل النصارى المأسورين عن اللعين أندري دوريا أين توجه؟ فأخبروه أنه  
في نواحي موره في أربع وعشرين غلياطة<sup>(2)</sup> وستة وعشرين مركبا كبارا.  
ثم إن خير الدين أفلح عن نواحي صقلية وسافر إلى ناحية بروازن برسم  
لقاء أندري فلما أرسى ببروازن استبشر به أهلها لأنهم كانوا خائفين من  
هجوم أندري دوريا عليهم؛ وكان اللعين قد سمع بأن خير الدين في طلبه  
بأربعين مركبا. فابتعد عن خير الدين خوفا منه، وقد كانت عمارة أندري  
قد تبادلت التجارة بين أهل بروازن منذ ستة أيام، وعندما علم خير الدين  
بفرار أندري أرسل خمسة وعشرين جفنا إلى الجزائر وسافر إلى حضرة  
السلطان في تسعة عشر جفنا؛ وكانت الأجفان التي سافرت إلى الجزائر  
صادفت سبعة أجفان للعدو من أهل نابل فاستولوا على اثنين منهم وفرّ  
الباقون فدخلوا إلى الجزائر واستمر خير الدين مسافرا إلى أن دخل وارين  
فصادف هنالك عمارة السلطان سليمان فصنعوا بروزا عظيما من رمي  
المدافع كما هي عادة أهل البحر في ذلك فرحوا بالقادمين عليهم، وخرجوا  
جميعا حتى وصلوا فارون ومن ثم كتب خير الدين كتابا إلى السلطان يعلمه  
بوصوله ويستأذنه في القدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان كتابا  
يستجته في القدوم عليه، فعند ذلك سافر خير الدين من فارون، ولم يزل  
مسافرا حتى وصل إلى إسطنبول حضرة السلطان سليمان<sup>(3)</sup> وأرسى بها

1. هي أكبر جزائر البحر المتوسط وواقعة في طرف إيطاليا وعاصمتها مدينة بالرمو واحتلتها العرب عدة قرون في أيام دولة بني الأغلب والفاطمين بتونس ثم استقلت وهي الآن تابعة لإيطاليا.
2. نوع من الزواقي البحرية التي يقال لها: Galera.
3. يقول صاحب كتاب تاريخ الدولة العلية: «... وفي أوائل سنة 1533 استدعاء السلطان سليمان إلى الأستانة ليقش معه على ما يلزم اتخاذ من الاحتياطات لصعد هجمات الأميرال أندري دوريا الجنوبي أجبر شارلكان

في جملة أجفانه الذين قدموا معه وأطلقوا المدافع كما هي العادة في ذلك، ومثّل خير الدين بين يدي حضرة السلطان وقبّل الأرض واقفا بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه وعين لهم الجرايات الوافرة وأنزله بقصر من قصور الملك، وفوض إليه النظر في دار الصناعة<sup>(1)</sup> وكان الوزير الأعظم إذاً في مدينة حلب فسمع بقدوم خير الدين على حضرة السلطان، وقد كانت أخبار غزواته وفتكاته بالكفار تصل إليه كلّ حين، فاشتاق إلى لقائه، فوجه بكتاب إلى السلطان يَلتمس منه أن يُوجه إليه خير الدين ليتبرّك برويته<sup>(2)</sup>، فأرسل السلطان قائلاً إلى خير الدين: "إنّ خادمنا بحلب طلب منا الاجتماع بك هنالك فهل لك اعتراض على ذلك أم لا؟" فأجابه خير الدين: "حيث ما يأمرني السلطان بالتوجه إلى أيّ عبد من عبيد حضرته يكون ذلك"؛ ثمّ إنّ السلطان جهّزه بجميع ما يحتاج إليه من خيل وسلاح ورجال يقومون بخدمته وسافر متوجّهاً إلى حلب بعدما ركب البحر مدانيّة ومنها سافر في البرّ.

فلما قُرب إلى ناحية حلب وجّه رسولا كان معه من قبّل السلطان إلى الوزير يعلمه بوصول خير الدين، فأهتّر الوزير للقائه، وخرج الديوان إليه

فسافر ببعض المراكب ووصل القسطنطينية بعد سفر الصدر الأعظم إبراهيم باشا لمحاربة العجم بقليل قبله الملك وأحسن وفادته وأمر بالاستعداد وإنشاء المراكب الكافية لفتح إقليم تونس فاشتغل خير الدين باشا طول الشتاء بإنشاء المراكب، ص: 96

1. دار الصناعة في اللغة العربية كانت تعني بالتحديد المكان الذي تصنع فيه السفن وقد دخل هذا المصطلح إلى كافة اللغات الأوروبية تقريباً فصاروا Terrazana أو Arsenal وغيرها في اللغات الأوروبية.
2. يقول شوفالبي: "... وطلب الوزير الكبير إبراهيم باشا الذي اتخذ من حلب مقراً له من السلطان أمن بيعت له خير الدين حتى يمنعه منصب بيلارباي وأن يزوده بالتعليمات والتوجيهات اللازمة للنجاح في الحملة القادمة ورجع القرصان الذي لا يكل ولا يتعب راكباً حصانه ومثبوعاً إلى حارة إبراهيم الذي استقبله باحتفال بهيج وقلده لقب بيلارباي الجزائر وبهذا اللقب يحق له أن يتصدر المجلس الذي يضم كل البلازيات الآخرين ووصل إلى هذه المدينة كتاب من السلطان يقضي بإعطاء قسطن وثلاثة ديول لخير الدين ويأمر رئيس الوزراء بتعيين باي في منصب الباشا. أنظر تفاصيل أكثر، ص: 84، 85.

ومعه الرّايات والطّبول، ودخل إلى حلب في بروز عظيم وأنزلوه في بعض القصور المهيبة؛ ولما كان صباح تلك اللَّيلة التي دخل فيها إلى حلب بعث إليه الوزير أهل الدّيوان فطلبوا به إلى قلعة حلب فحين شهد الوزير سلّم عليه وتصافحا وأمره بالجلوس ثم أوتي بالطعام فأكلوا، وحين فرغ من الطعام نصب الدّيوان، وحين وقفوا لقراءة الأمر الذي ورّد عليه من السلطان أوقف خير الدّين على يمينه، وحين فرغوا من الدّيوان رجع خير الدّين إلى محلّ نزوله، وفي اليوم الثاني من وُصول خير الدّين إلى حلب ورد قاصد من قبل السّلطان ومعه خلعة وأمر مُقتضاه أن خير الدّين وزير من وزراء السلطان ويلبس الخلعة لأجل ذلك<sup>(1)</sup>، فانتصب الدّيوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة وركب على فرس عظيم بسرج مرصّع بأنواع الياقوت، وركاب من الذهب الخالص، ولجام مثله وألبس المجوزة<sup>(2)</sup> وسار الدّيوان أمامه إلى القصر المُعدّ لنزوله. ولما كان اليوم الثالث طلع خير الدّين إلى القلعة وجلس بعزاء الوزير الأعظم في الرجوع إلى إسطنبول فأذن له في ذلك وجّهه بجميع ما يحتاج إليه من آلات السفر وخرج من حلب خروج الملك فدخل إلى مدينة قونية<sup>(3)</sup> وزار بها قبر الملائك<sup>(4)</sup> وزار بها وليا آخر يُقال أمير السلطان وختم عند قبره كلام الله، ثم إنّه سافر إلى مدينة برصه<sup>(5)</sup> ومنها توجّه إلى مدانية ومنها إلى اسطنبول ونزل بقصره المعروف به. ولما علم السّلطان بقدومه أحضر بين يديه فقبل الأرض ووقف مع الوزراء ؛

1. هذا الأمر السلطاني أعلى من شأن خبر الدين إلى رتبة وزير. انظر شوقالييه ص 84، 85.

El-Mudjéwzér est le bonnet de cérémonie des Pachas et des grands (المجوزة هي).  
 digitaires; il se distingue des autres en ce qu'il est haut, cylindrique et recouvert d'une  
 mousseline blanche. Histoire de Barberousse, vol. 1, p. 309.  
 مينة فيند التراب من مملكة الموحدين

3. مدينة قونيه moussline blanche. Histoire de Carabanie, dans le milieu des terres Konleh, ville de la Carabanie, dans le milieu des terres

4. مزارقهر Mollakhum-Kiar.

5. Brousse, ville de l'Anatolie proche de la mer de Marmara.

ثم إنَّ السُّلطان أشار إليه وإلى نائب الوزير الأعظم أن يتقدّما إليه فقبل خير الدين يده ومسح السُّلطان على رأسه وجعل في عمامته سرهوجاً<sup>(1)</sup> من الذهب تنويهاً بشأنه، وخرج من عند السلطان إلى القصر الذي أعدَّ له، واشتغل بالنظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان حتى كملت من الأجفان أربع وثمانون جفناً. فأمر السُّلطان بالسفر، فسافر في جملة تلك الأجفان إلى أرض بها قلعة من قلاع الروم يقال لها أرتيلة<sup>(2)</sup> وشرع في قتالها والتضييق على أهلها فلم يكن للروم بدفعهم طاقة ففروا من قلعته واستولى الغزاة على جميع ما فيها من مخلفات الروم<sup>(3)</sup>. ثم إنَّ خير الدين أقطع عن الجزيرة وانتهى به السفر إلى جون هنالك، وكان وصوله إليه وقت الزوال فأرسل به وأقام بقيّة يومه بذلك الجون<sup>(4)</sup> فلما كان الصباح من ذلك راح مسافراً حتّى انتهى به السفر إلى قلعة من قلاع الروم فشرع في قتالها براً وبحراً فاستولى الغزاة على أطرافها ولجأ الروم إلى داخلها واشتدَّ القتال بينهم وبين المسلمين واستشهد جماعة من الغزاة كتب الله لهم الشّهادة، وجدّ المسلمون في قتالهم. فلما كان وقت العصر يسّر الله لهم فتحها فدخلوها بسيوفهم عُتوة واستولوا على جميع ما فيها من الروم؛ وكان عدد ما فيها من الروم سبعة آلاف وثمانمائة فأمر خير الدين بحرق القلعة.

ولما كان صباح تلك الليلة أقطع عن ذلك الموضع مسافراً إلى ناحية الجنويز<sup>(5)</sup> فوصل إلى بعض سواحلها فوجد بعض القلاع، وبمرسى تلك

1. سرهوج نوع من النقاشين يعلق على العمامة على شكل ريشة.

2. هي في حوزة اليونان وتسمى: Estila.

3. المقصود بالروم هنا الإغريق.

4. يقصد هنا بالجون جزيرة مسخرة كان ينعها الإسبان قبالة الجزائر والمليتيون.

5. المقصود بالجنويز هم الجنويون نسبة إلى جنوة الإيطالية، وجنوة مدينة قديمة جداً يقال إنها أنشئت

القلعة عشرة أجناف فاستولى عليها وأمر بإحراقها وإحراق القلعة وسار  
النصارى الذين على السواحل إلى جبل لهم مَنيع فتحصَّنوا فيه، وعاث  
خير الدين في تلك البلاد تحريقا وتخريبا، ثم ذهب إلى ناحية نابل<sup>(1)</sup>  
فاستولى على بعض القلاع هنالك فكان جُملة النصارى الذين استولى  
عليهم أحد عشر ألف أسير، ثم سافر إلى ناحية سردانية<sup>(2)</sup> فعات أيضا في  
سواحلها تحريقا وتخريبا وأراد الرجوع إلى الجزائر فلم يساعده الريح  
وساقه الريح إلى مرسى بنزرت من ناحية تونس فأرسل بها ولم ير أهل  
المدينة عمارة خير الدين التي أرست بتلك النواحي وصاروا هاربين لا يلو  
أحد منهم على أحد وتحصَّنوا بالقلعة خوفا من هجوم العسكر عليهم،  
فأراد العامل على القلعة أن يفر إلى تونس وجمع أسبابه وعياله وعزم على  
ذلك فلم يساعده أهل القلعة على الفرار منها وقالوا له: نصّر الله السلطان  
سليمان. فبعد جهد ما تخلص منهم إلى تونس بمفرده، فوصل إليها وقت  
صلاة الصبح وأعلم سلطانها الحفصي<sup>(3)</sup> بورود خير الدين ورَّسوه على

سنة 707 قبل الميلاد واستولى عليها الرومانيون سنة 322 قبل الميلاد وظلت تابعة لهم لحين سقوط الدولة  
الرومانية ثم تناوبتها أيدي قبائل المتبربرين المختلفة وأخيرا فتحها شارلمان الفرنسي سنة 814 ميلادية  
واسقطت في القرن العاشر واتخذت التجارة مهنة وناضت جمهوريتي بيشة المسماة الآن بيز والبندقية المسماة  
الآن فنيسيا وفي القرن الثالث عشر حاربت بيشة وتلبت عليها ولاشت تجارتها وأخذت منها جزيرة كورسيكا  
ثم أعطاهم ملوك الروم بالأسنانة قريتي بيرة وغلطة في ضواحي بيزنطة (القسطنطينية) ومدينة (كافا)  
ببلاد القرم ومدينة إزمير وغيرها ومن ثم وقعت المناقصة بينها وبين البنادقة بسبب السيادة على البحار  
وحاربتها وانتصرت عليها مرارا وبقيت سيادة البحار الشرقية إلى أواخر القرن الرابع ثم أخذت في التقهقر  
شيئا فشيئا بسبب عدم انتظام أمورها الداخلية وتفرق كلمة أهلها ففقدت استقلالها وصارت تدخل تارة في  
حس إسبانيا وأخرى في حس فرنسا وطورا ترجع إلى استقلالها إلى أن احتلها الفرنسيون سنة 1769 وشكلوها  
بهيئة جمهورية في السنة التالية وبعد سقوط إمبراطورية نابليون الأول في سنة 1815 ضمت إلى لومباردية  
وأخيرا عادت إلى إيطاليا. أنظر: تاريخ الدولة العلية، ص: 60 .

1. المقصود Naples .

2. Sardaigne .

3. يقول صاحب كتاب تاريخ الدولة العلية «... وفي أوائل صيف سنة 1534 بعد ما سافر السلطان سليمان



بنزرت، وأخبره بأن أهل تلك الناحية دخلوا في طاعة السلطان سليمان فتحير من ذلك ودهش وتشوق أهل تونس لاستيلاء خير الدين عليها لما كان قد سلف من إحسانه إليهم ؛ ثم إن عسكر خير الدين استولوا على بنزرت. فلما سمع بذلك سلطان تونس فرّ في جملة خواصه وأتباعه إلى العرب لما بينه وبين العرب عداوة. وكان أهل المدينة كرهوا دولته لأنه كان ظلوما عسوقا فعند ذلك كتب أهل المدينة كتابا إلى خير الدين يستحثونه في القدوم عليهم، ويقولون في ذلك الكتاب تدارك المدينة قبل أن ينصب عسكرها من يدافع عنهم من بعض بني حفص ؛ وعندما ورد عليه كتابهم سافر بعمارة إلى حلق الواد وأرسل به فعندما شاهده أهل المدينة خرجوا إلى لقاءه في عشرة آلاف من علمائهم ومشايخهم، ودخل المدينة وجلس على سرير المملكة، وكان بقية العسكر الحفصي إذا أمكنتهم الفرصة يقتلون عسكر خير الدين، ويقتلونهم في المخال<sup>(1)</sup> والسكك الخالية فأقنني من ذلك عسكر خير الدين ووقع بينهم وبين عسكر الحفصاء<sup>(2)</sup> قتال خاف منه أهل المدينة على أنفسهم فهربوا إلى جامع الزيتونة وإلى غيره من الجوامع وسائر الزوايا ؛ فعند ذلك ركب خير الدين لإطفاء هذه النائرة

قاصدا مدينة تبريز خرج خير الدين بمرافقه من بوغاز الدردنيل غير قاصد تونس مباشرة بل عرج في طريقه على جزيرة مالطة وبعض موانئ جنوب إيطاليا لغزو مراكبها وأهلها بدون احتلالها حتى لا يعلم قصده الأصلي وهو فتح تونس في أوائل سنة 1535 وأعلن الأهالي أنه أت لعل السلطان مولاي حسن آخر سلاطة بني حفص ؛ وكان الأهالي ناقلين عليه ليله لشارلكان ... والسلاطين الحفصيون أولهم أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص الهنتاني ولي إمارة تونس سنة 618 هجرية وخلفه ابنه زكريا يحيى وفي سنة 647 ملك بعده ابنه أبو عبد الله محمد ولقب بالمستنصر ودعي بأمر المؤمنين واستمرت هذه العائلة مائة على إقليم تونس إلى أن فتحها العثمانيون نهائيا في سنة 981 هجرية فتكون مدة حكمهم 378 سنة . د . عبد الله حمادي : دراسات في الأدب المغربي القديم، ص: 96 .

1. يأخذونهم على غرة، وما زالت عبارة «المخالطة» تستعمل في اللسان العربي الدارج وتعني أخذ الإنسان على حين غفلة أو على غرة .
2. نسبة إلى الحفصيين.

وكفّ عسكره عن القتال، وكان جُملة ما قُتل من عسكر خير الدين ثمانون ومن شيعة الحفصيين أكثر من ثلاثمائة، وكان حين عزموا على القيام بعثوا إلى سلطانهم يستقدمونه ويستعجلونه في الحركة فوصل إلى أحوازها<sup>(1)</sup> في طوائف من العرب عقب هذه الفتنة، تنكّر ودخل إلى المدينة واجتمع بأشباعه وجعلوا يُدبرون في استئصال خير الدين وعسكره وبذلوا في ذلك الأموال الطائلة، فبدأ أهل الفساد يتسلّلون إليه من كلّ ناحية وينسلّون إليه من كلّ حذب، ووعد كل من أعانه إن ظفر بالمدينة بالنوع الذي يجد معه الموت خير من الحياة، فأجتمع له عدد كثير، وكان هذا الأمر أضره في ليلة واحدة وهي ليلة دخوله.

فلما كان صباحها قصد بمن اجتمع معه القسبة وبها خير الدين وعسكره وخرجوا إليه من القسبة ووقع بينهم قتال ظهر فيه عجز جماعة السلطان الحفصي وتبيّن القشل بينهم فأخذوا في الانسلاخ. ولما علم العسكر ذلك فيهم تكالبوا عليهم وجدّوا في قتالهم حتّى انهزموا بين أيديهم فتبعوهم يقتلونهم في كلّ طريق، فلما اشتدّ فيهم القتل نادوا بطاعة السلطان سليمان وطلبوا الأمان من خير الدين واستقرّ على سرير ملكه<sup>(2)</sup>.

وأما السلطان الحفصي فإنه ذهب إلى حال سبيله إلى طوائف العرب. وأما أهل المدينة فإنهم وطّئوا أنفسهم على طاعة خير الدين واشتغلوا ببيعهم وشراهم. ثم إنّ خير الدين وجّه إلى أشياخ العرب بخلع وكتب إليهم يقول لهم: "إنّ من وقع منكم بيده سلطان تونس وأمسه وأتى به فله ثلاثون ألف دينار، ومن آواه وأخفاه فسيرى ما يحلّ به من الانتقام". وبانغ في الوعد والوعيد. فلما وصلت كتبه إلى أشياخ العرب كتبوا إليه يقولون:

1. الحوز هو الضاحية وأحواز المدينة ضواحيها.

2. كان ذلك في 22 أوت 1534.

إِنَّ الملوك من بني حفص كانت لنا عليهم عائدات وجرايات نأخذها منهم وكان ذلك قد تقرر بين أسلافنا وأسلافهم فَإِنَّ التزمنا لنا بها فنحن نخدمك". فكتب إليهم خير الدين يقول: "أنا أجري لكم القانون الذي لكم بشرط أن لا يقع منكم ضرار على الرعية وأن تشتوا بالصحرَاء" وأمرهم أن يبعثوا إليه بالدفاتر التي بأيديهم لينظر فيها كم أخذوا، وكم بقي لهم، وينظر المقدّر لكل واحد منهم فَإِنَّ جميع ذلك مكتوبا عندهم بطابع المخزن. فأمتثلوا لأمر خير الدين ورحلوا إلى الصحرَاء وبعثوا بدفاترهم إليه فوجدهم قد قبضوا المال المقدّر إليهم في تلك السنة فكتب إليهم: "إنه إذا كان فصل الربيع يُقدموا إليه ليأخذوا مَالَهُم المقدّر لكل واحد من الأشياء تسكّرة<sup>(1)</sup> بحاله من المال الذي يأخذه في فصل الربيع وختم عليها بخاتمة"، ورَضِيَ الأشياء بذلك. ثم إِنَّ خير الدين بعث إلى نائبيه بالجزائر<sup>(2)</sup> أن يُوجّه له ثلاثمائة مقاتل من العسكر وأربعمائة من الفرسان. فلَمَّا وصله الكتاب امتثل للأمر وجَهّز إليه جميع ما طلبه. فلَمَّا وصلوا إلى خير الدين ورّعهم على الرعية في استخراج ما عليهم من الوظائف المخزنية وأمرهم بإحصاء جميع ذلك وشملت العافية<sup>(3)</sup> جُملة ذلك الوطن وحَمِدوا دولة خير الدين وأغبطوا فيها. وأخذ خير الدين في تجهيز هدية عظيمة يتوجّه بها إلى السلطان الأعظم سليمان خان ليُحيطه، فطلق الحصر من جُمَلتها ثمانون غَلاما من النصارى فوصلت الهدية إلى الحضرة وكان السلطان غائبا عنها في محاربة قازل باش.

1. - تذكرة أو تسكرة كما تقول العامة  
Teshéré (ture) du mot Zikr qui veut dire mention, teskére; billet. voir l'histoire de Barberousse.

2. حسن آغا.

3. الفرحة والرضا. والهناء ولا يزال يستعمل هذا التعبير بتونس إلى يومنا هذا ليؤكد من خلاله الإنسان أنه على أحسن ما يرام (بعافية) وتعني العافية بتونس «النار».

وكان سلطان تونس دَاخِلَ أشياخ العرب في القيام على خير الدين ووعدهم على ذلك ومنأهم ؛ وكان هؤلاء الأشياخ لا يستقرّون على طاعة ملك فأجابوه إلى ذلك واجتمعوا بالقيروان<sup>(1)</sup> فسمع بذلك خير الدين فكتب إليهم كتابا يقول فيه: "من كان منكم في طاعة السلطان سليمان فليُفارق هذا الجمع وليتجه إلى بيتنا، ومن أبى إلا التّماذي على شقائه فهو أبصر بنفسه". وأخذ خير الدين في الحركة إلى العرب وسلطانهم.

ومن جُملة الغرائب التي تُحكى عنه في هذه الحركة أنّه جعل للحركة التي تحمل المدافع صاريا لكل واحد منها أوجيلا وشرعا منصوبا فكانت العجالة تسير بالريّج كما يسير المركب في البحر وهذا من غرائب ما يُحكى من هندسة هذا الملك<sup>(2)</sup>. ولما توغل في السّفر اعترضه سلطان تونس بعرّبه وتصدّوا لقتاله، ولما رأى العرب مسير هذه العجلة تعجّبوا من ذلك غاية العجب، وعلموا أنّ ذلك الأمر لا يهتمّ إليه أحد. فشرع خير الدين

1. القيروان تسمية فارسية وتعني المسكر وهي مدينة تقع في الجنوب التونسي، وقد أخطأها الفاتح عقبة بن نافع عام 50 هجرية واشتهرت بمسجدها الجامع الذي ظل منارة علم وعرفان ويقول صاحب كتاب معالم الإيمان الدبّاع: "... وقد اتفق لعقبة بن نافع القهري، رحمه الله، حين وضع القيروان كرامات وأجابات مشهورة منها ما رواه علماء أهل التاريخ أنّ عقبة، رضي الله عنه، لما غزا إفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان وذلك سنة 50 هجرية وقتل من كان بها من الروم وأصناف البربر والأفارقة، قال لأصحابه: إنّ إفريقية إذا دخلها أمير التزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر، وإنّي أرى أنّ أتخذ مدينة نجعلها معسكرا وقيروانا يكون عز الإسلام إلى آخر الدهر. واختلف في لغة العرب في لفظ القيروان، فقول هي موضع اجتماع الجيش والناس، وقيل محط أنقال الجيش، وقيل هي الجيش نفسه.. انظر كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدبّاع، تحقيق إبراهيم شبروح، نشر مكتبة الخانجي، مصر 1968، جزء أول، ص: 8.

2. علق كل من مؤلفي كتاب: Histoire de Barberousse تأليف:

Ce fait qui n'a rien d'improbable, et qui peint à merveille le caractère de corsaire guerroyant sur terre, paraît d'autant plus curieux, qu'il prouve l'ancienneté d'une invention que l'une cherche à expliquer en France depuis quelques années, et qui ne s'est pas montrée sans succès dans quelques circonstances. Nous croyons qu'il ne faut pas voir dans la pensée de Kkair-ed-din un moyen de faire marcher son artillerie mais seulement d'aider à sa marche, et par conséquent d'accélérer le mouvement sans donner trop défatigue aux homes ou aux chevaux. Au surplus, son moyen analogue est employé en chine depuis longtemps pour le transport ... Vol: 1 p: 323-324.

في قتالهم وأوصل الرمي إليهم بالمدافع والعرب لا خبرة لهم بهذا القتال  
فراؤا من ذلك ما طاشت به عقولهم خوفا ورعبا فانهزموا وسلطانهم  
معههم ورجع الأشياخ لطاعة خير الدين وكتبوا إليه يلتمسون منه العفو.  
فلما تا ( )<sup>(1)</sup> سياسة ذلك وكتب إليهم كتابا بالأمان فعند ذلك ما إن  
وصلهم الكتاب حتى قدم إليه جميع الأشياخ وباعوه ببينة صدق ولا تصح  
محبة لأن محبته دخلت في قلوبهم اضطرابا لما رأوا من قوه وكرمه.  
فرجع خير الدين إلى تونس واستقر بها. ولما كان السلطان سليمان مشتغلا  
بحصار العجم بتبريز<sup>(2)</sup> كما تقدم، أنهز طاغية إسبانيا<sup>(3)</sup> الفرصة وعزم  
على السير إلى إقليم الروم بجملة غمارته للاستيلاء على تلك السواحل،  
وكان جملة عسكره عشرين ألف مقاتل، فلما سمع سلطان تونس بما عزم  
عليه الطاغية كتب إليه كتابا يقول فيه: «إن رايس الترك بربروس ظلمي  
وأخذ مملكة أبائي وأجدادي من يدي، وكان الحامل له على ذلك ما علمتم  
ما بيني وبينك من الصداقة والموالة، فالجواب عليك أيها الملك أن تعينني  
بهذا العسكر الذي معك على رد مملكتي وإخراج هذا الرجل منها، فإن معي

1. بياض في المخطوط يدل على سقوط نصف كلمة، المخطوط، ص: 85.
2. قصد السلطان سليمان مدينة تبريز لفتحها في صيف 1534 ميلادية. انظر تاريخ الدولة العلية، ص: 96.
3. المقصود بطاغية إسبانيا هنا هو الملك شارلكان، ولد هذا الملك الشهير سنة 1500 وورث ملك إسبانيا عن والدته خوانة الجبونة ابنة فرديناند وإيزابيلا ملوك إسبانيا اللذين أخرج المسلمون في أيامهما من الأندلس في 2 يناير 1492 ميلادية وانتخب أميراً لألمانيا بعد موت جده لأبيه الإمبراطور مكسمليان وقضى أيامه في محاربة فرنسا الأول ملك فرنسا وبعد موت هذا الأخير رجع إلى محاربة الفرنسيين وحاصر مدينة ميتر الشهيرة بدون أن يتمكن من فتحها سنة 1552 وحارب خير الدين باشا أمير البحر العثماني الشهير بربروس وقصد الاستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح واضطهد البروتستانت إلا أنه اضطر أخيراً في سنة 1547 أن يمنحهم الحرية الدينية بعد أن حاربوه وانتصروا عليه. وفي سنة 1556 سُم الملك فتنازل عن ملك إسبانيا لابنه فيليب الثاني وعن ألمانيا لأخيه فرديناند واعتزل في أحد الأديرة التي تعرف باسم Monasterio de Yuste الواقع بمنطقة Extremadura بغرب إسبانيا إلى أن قضى نحبه عام 1558. أنظر: Vera Zuniga, Juan Antonio: Carlos I, Madrid, 1949.

من العسكر ما قدره ستون ألفاً فأحاصرها أنا برّاً وتحاصرها أنت بحراً فإن استولينا عليها تكون البلاد لك وأنا أكون مثل النَّائب عنك فيها»<sup>(1)</sup>

فلما وصل كتابه إلى الطاغية جمع كبراء دولته واستشارهم فيما بعث به سلطان تونس، فأشاروا عليه بتعجيل نُصرته والنهوض إلى إعانته. وقالوا له أيها الملك: "نعم كلامه حقّ وبربروس ما خلعه إلا لأجلك، والمملكة مملكة آبائه وأجداده، وقد ظلمه وأخرجها عنها، والملوك ينتصر بعضهم فآذهب بنا أيها الملك، فعندما يقع الاستيلاء عليها يذهب بنا الملك حيث ما أراد من البلاد؛ فعند ذلك ثنى عزمه إلى قصد البلاد التونسية<sup>(2)</sup> واستخلاصها من يد خير الدين وأقيمت الدّعوة الحفصية بها في خفية إلى أن يدبّر الأمر في كيفية إخراجها من يده كليّة، فأجابه الطاغية بأنهم متوجّهين إلى تونس في أخذ ثأره من خير الدين، وأمره بالاستعداد لحصارها برّاً، وسافر الطاغية<sup>(3)</sup> بنفسه في هذه العمارة فلماً رَسَى بحلق

1. يلاحظ من خلال خطاب السلطان الحفصي مدى تعلقه بشاركان الإسباني وكراهيته لخير الدين وللاترك.
2. يقول صاحب كتاب: تاريخ النوبة العلية: «... ولما وصل الإمبراطور شاركان خبر سقوط تونس في يد خير الدين اتّحد مع رهبنة القديس يوحنا الأورشليمي التي نزلت بجزيرة مالطا بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع تونس وإعادة مولاي حسن إلى تحت ملكه وجّهت عمارة قويّة قادما هو بنفسه ونزل مع أشراف إسبانيا من ثغر برشلونة في 29 ماي 1535 ووصل إلى حلق الوادي في 16 يونيو وحاصرها هي ومدينة تونس مدّة شهر تقريباً وفتحها في 14 يوليو واستولى على ما بقلعتها ونفّرها من المدافع والمراكب، وفي 21 يوليو دخلت جيوش شاركان المدينة وصرّح لهم بنهبها فقتلوا ونهبوا وفسدوا وارتكبوا كلّ أنواع المعزّرات ومدّمو الماسج وحرّقوا ومزّقوا أغلب الكتب النفيسة، وفي أوّل أغسطس دخلها شاركان ... وفي ثمانية أغسطس أمضيت معاهدة بين شاركان ومولاي حسن الذي أعيد إلى ملكه تقضي بإخلاء سبيل الأرقاء المسيحيين والإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس وإقامة شعائرهم بدون معارضة وأن يتنازل لشاركان عن مدن بونة (غناية) وبنزرت وحلق الوادي وأن يدفع له مبلغ اثني عشر ألف دوكا مصاريث الحرب وأن يقدّم له سنوي اثني عشر حصاناً وبقريها المهارة العربية علامة امتنانه بشرط أنه لو خالف إحدى هذه الشروط يدفع مرّة خمسين ألف دوكا وفي الثانية مائة ألف وفي الثالثة يستلم حتّى في الملك ... ص: 96-97.
3. يقول شوقايبه: «... كما أنّ الإمبراطور نفسه كان على رأس الحملة، وقد تواجد أمام تونس 412 سفينة كبيرة و 27.000 رجل؛ إنّه بالنسبة له عدد ضخم في منطقة سكانية منقسمة بسبب الحروب الداخلية وسقطت تونس في يد الإسبان في شهر جويلية سنة 1535، ص: 85.

الوادي بقرب برج يُقال له بُرج العين<sup>(1)</sup> فلم ير للسلطان الحفصي أثرا فتعجب من ذلك وقال: "هل قديم هذا الرجل وذهب أم لم يقدم أصلا؟" ثم شرع في إنزال الآلات الحربية وأنزل عسكريه إلى البر، فعند ذلك خندق أهل ذلك البر عليهم ووجهوا إلى خير الدين رُسُلهم يُعلمونه بوصول عمارة النصارى، فخرج خير الدين إلى قتالهم في اثني عشر ألف مقاتل، فلما وصل إلى البر تحيّر إليه أهله وشرعوا في قتال الروم؛ فكان بينهم قتال عظيم تراجع النصارى في آخره إلى ساحل البحر فتبعهم المسلمون، فلما كادوا أن يخالطوهم ردّتهم المدافع من السفن فتأخروا عنهم، وصنع النصارى بُرجًا من الخشب وأدوّه من البرج فردّهم المسلمون عمّا أرادوا به وأبطلوا حيلتهم في ذلك؛ وكان المسلمون خندقوا على بعض الحصون المقاربة لهذا الحصن ونصبوا على حافة الخندق الموائي إلى الحصن جُملة من المدافع جعلوا فيها قطعًا من السلاسل وقطعا من الحديد، وجُملة من البناء الواقى. فلما قرب النصارى من ذلك الحصن رمى عليهم المسلمون بتلك المدافع فتمزقت أشلاؤهم؛ فكان جُملة القتلى منهم ستة آلاف سوى من أنقطعت يداه أو رجلاه. وأمّا المسلمون فإنهم دخلوا مَنَارِس النصارى ثلاث مرّات وقطعوا رايِس المَنَارِس في بعض تلك المَرّات من دُخُولهم حتّى وصلوا إلى أخبية سلطانهم فلما علم بذلك بعث إلى بلاده مُتوجّها إلى الأمراء فأنتّه في أقرب مدّة، فنصب على متوسّة<sup>(2)</sup> تجاه الحصن مائة وعشرين مدفعا ومن تجاهه ثمانون وأخذ في القتل فبقي على ذلك اثنين

1 - يقول صاحب كتاب: Histoire de Barberousse (عن برج العين): Bourdj-ul-oïoun veut dire en turc château des sources; c'est cette forteresse si connue sous le nom de la Goulette, qui placée à l'entrée de l'étang qui mène à Tunis, forme la principale défense de cette place. Vol: I, p: 327.

هذا غير صحيح فبرج العين ليس كلمة تركية.  
2. كلمة غير منهومة وجاءت في المخطوط هكذا، المخطوط، ص: 86.

وثلاثين يوماً، فعند تمام هذه المدة تقدّم إلى البرج بجملّة مدافعه وعطّل على المسلمين مدافعهم فلم يقدروا على الرمي بها فعند ذلك قرّ المسلمون من ذلك الحصن واستولى عليه عدوّ الدّين وانحاز خير الدّين وعسكره إلى المدينة.

ولما سمع سلطان تونس باستيلاء الطّاغية<sup>(1)</sup> على هذا الحصن قدّم إليه في رهط من خيله وعندما وصل إليه قبل يده<sup>(2)</sup> على ما زعموا ووضعها على جبهته فرّق له الطّاغية وأشفق بحاله. ولما انحاز خير الدّين إلى المدينة ورأى أهلها ما حلّ بهم من هذه الدّاهية وقع بينهم اضطراب كثير؛ فبعضهم تمسّك بطاعة خير الدّين، وبعضهم جنح إلى طاعة النّصارى، فبعث خير الدّين إلى كبار المدينة وأشياخها ولما حضروا بين يديه، استشارهم في أمر النّصارى وقال لهم: "كيف يكون العمل؟ إنّ النّصارى في قوّة زائدة وأنّهم الأمراء من سائر بلادهم والمسلمون قد ضعّفوا عن قتالهم، فما ترون هل نصلحهم أم نستمرّ في قتالهم؟" فأكثروا الكلام في ذلك، وجعل كل واحد يتكلّم بما ظهر له؛ ولما علّم خير الدّين ما هم فيه من الاختلاف قال: "أنا أذهب وأقاتل بمن معي من العسكر". فقالوا له: "أيّها الأمير إنّنا لا نتخلّف عنك، بل نقاتل معك جميعاً، فاجتمع من أهل البلاد تسعة آلاف وتسعمائة، ومن العسكر ستّة آلاف وأربع مائة، وخرج

1. صفّة الطّاغية التي يردّها باستمرار صاحب هذا المخطوط أزعجت كثيراً مؤلف كتاب تاريخ باربروس، والطّاغية المقصود هنا هو شارلكان أو كارلوس الخامس وهو:

«Carlos I de Espana, fue emperador del sacro Imperio Romano germanico con el nombre de Carlos V (1519-1556) y rey de Espana como Carlos I (1516-1556), el primero que unio en su persona a las coronas de Castilla y Aragon. Heredo los Países Bajos y mantuvo guerras con Francia, a la vez que con los movimientos comuneros de Castilla. Véase M Vera Zuniga, Juan Antioio de, Carlos I, Madrid, 1949 !

2. يعكس مظهرها من مظاهر ضعف الإمارات الإسلامية آنذاك سواء بتونس أو بتمسان أو بالمغرب الأقصى.



الجميع إلى القتال ؛ فكان اللقاء بينهم وبين النصارى. في هذا اليوم ورد  
 لخير الدين المدد من الجزائر احتوى على عدد يسير من العرب والترك،  
 وشرع خير الدين في قتال النصارى وعرف ذلك اليوم أكثر من مائة ألف  
 ينظرون إلى قتال خير الدين مع النصارى، فلما رأوا العزيمة كادت تقدّم  
 على الكفار دخلوا في عسكر خير الدين مموّهين بإعانتهم ؛ ثم انهزموا بين  
 يدي الكفار لينهزم بانهمزاهم العسكر، فردّهم خير الدين عن الهزيمة  
 فلم يقدر على ذلك وحصلت للنصارى قوّة عظيمة بما فعله العرب وبعثوا  
 إلى سقنتهم في توجيه العسكر، واستمرّ القتال بينهم، فظهر في العدو  
 الفشل وترجعوا عن المسلمين إلى ساحل البحر ؛ فعند ذلك قويّ المسلمون  
 عليهم واجتهدوا في قتالهم حتّى ألبأ وهم إلى البحر، وأرادوا الهجوم  
 عليهم فردّتهم عنهم مدافع السفن ؛ فعند ذلك رجع خير الدين إلى تونس  
 ودخل إلى القصبة وبقي عسكره خارج المدينة وبقي الكفار، وقد ظهر  
 منهم الملل ووقع فيهم مرض كثير فعزموا على الرجوع إلى بلادهم، ووصل  
 الخبر إلى خير الدين، ووصله خبر آخر بأنهم قدموا إلى المدينة، فخرج  
 بعسكره إليهم، وعندما خرج سمع في المدينة لفظاً وأصواتاً عالية تقول  
 إن سبب ذلك أنّ خير الدين لما خرج من المدينة ظهر لأهلها أنّه خارج قار  
 من النصارى، وأسلم المدينة إليهم فخرجوا فارّين بأنفسهم من المدينة  
 وتركوها خاوية على عروشها ؟ فرجع خير الدين إليها في بعض خاصّته  
 وعندما دخلها رأى النصارى قد أغلقوا باباً من أبوابها، فقال في نفسه :  
 يا عجبا من أين هؤلاء النصارى، وظنّهم من نصارى العدو ؟ وكان أولئك  
 النصارى من الأسرى الذين تحت حوطته، وكان عددهم أحد عشر ألفا  
 كما تقدّم ؛ وسبب ذلك أنّ الأسرى لما رأوا المدينة قد خلت من أهلها، وأنّه

ه وعطل  
 المسلمون  
 عسكره

م إليه  
 وضعها

ن إلى  
 كثير؛

سارى،  
 يديه،

سارى  
 ! عن

كلام  
 م فيه

له :  
 أهل

فخرج  
 بوس.

«C  
 con  
 155  
 He  
 mo  
 Ca

لا مانع يمنهم ثاروا وأحكموا قبضتهم عليها. فلما دخل عليهم خير الدين وقعت هيئته في قلوبهم، فرجع كثير منهم إلى محبسه، وبقي بعضهم في القسبة وغلّقوا عليهم الباب الداخلي. فلما وصل إليها خير الدين وجد بابها قد أغلّق في وجهه ولم يكن معه من العسكر سوى مائتين. فلما رأى ذلك ذهب في إثر أهلها ليردّهم إليها؛ وكان السلطان الحفصي بنواحي البلد في طائفة من الخيل، فقصد أهل المدينة ناحية من غير قصد فأدركهم خير الدين وجعل يردهم على المدينة ويؤيخهم على الفرار خوفاً من صاحب تونس إذ يدفعهم. ولما أرجع خير الدين من خرج من المدينة إليها ذهب بعض الأشقياء إلى الطاغية وأعلموه بأن خير الدين قد فر منها فارتاب في خبره، ثم قدم إليه بعض النصارى التجار بالمدينة فأخبروه بفراره أيضاً، فعند ذلك تحرّك النصارى بجيوشهم إلى المدينة ولقيه العرب مستبشرين بقدومه فأغار عليهم جيشه فأوقعوا بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وقال: "إني لا آمن هؤلاء القوم، ولا أثق بمخالطتهم" (1) الله لخير الدين منهم حيث جرّوا الهزيمة على عسكره كما قدّمنا.

ودخل الطاغية إلى مدينة تونس واستولى على قصبته وأدان أهلها بالطاعة (2). فذهب عند ذلك خير الدين ومن معه من عسكره إلى بلاد العنّاب (3) فدخلها بعد خمسة أيام من هذه الواقعة، وكان بها خمسة

1. هناك بياض في المخطوط مقدار كلمة، المخطوط، ص: 89.

2. يقول ابن دينار في كتابه المؤنس: "... وفي تلك الأيام أمين المسجد الأعظم ونهبت خزائن الكتب التي به، وديست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبددت في الشوارع حتى قيل أن المار من شرقي الجامع حيث النواوريين الآن إنما يمر على الكتب المطروحة هناك، وضربت النواقيس في الحضرة..." أنظر د. عبدالله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، نشر دار البعث بقسنطينة / الجزائر، 1986، ص: 108، 109.

3. تسمّى خير الدين ومن معه إلى مدينة عنّابة التي تعرف أيضاً باسم بونة والتي تقع في الساحل الشرقي من بلاد الجزائر.

عشر جفنا من أجفانه، فسمع به الطاغية فوجه إليه ثلاثين جفنا برسم الاستيلاء عليها فلما قربوا بلاد الغناب نصب خير الدين المدافع للرمي عليهم، فمنعهم من الوصول إلى أجفانه، فرجعوا إلى حال سبيلهم. فأراد الطاغية أن يوجه العمارة إلى بلاد الغناب ثم توقف عن ذلك خشية من خير الدين.

### رجوع خير الدين إلى بلاد الجزائر

وعندنا من خير الدين على نفسه ببلاد بونة ركب البحر إلى الجزائر، فلما وصلها واستقر بدار إمارتها جعل أهل المدينة يدخلون إليه أفواجا أفواجا مسلمين عليه ومستبشرين بقُدومه ؛ وكانت له منزلة عظيمة في قلوبهم، وكانت أجفان الجزائر قبل قدوم خير الدين تسعة أجفان، وحين استقر بها أنشأ ثمانية أجفان، وعدد أجفانه التي قدم فيها خمسة عشر فصار الجميع اثنين وثلاثين جفنا، فركب البحر مسافرا في هذه الأجفان برسم الغزو<sup>(1)</sup>. فلما قرب من ناحية ميورقة<sup>(2)</sup> أرسى على ثلاثين ميلا منها فسمع أصوات المدافع من مدينة ميورقة حتى تراءى كالرعد العاصف، فذهب به الفكر كل مذهب وكذلك جماعة الغزاة ؛ يقال إنما قتلوا هذا فرحا باستيلائهم على تونس، وبعضهم يقول إنما ذلك لأجل إرساء سفن البرتغاليين بها حين انفصلوا من إعانة الطاغية والعودة إلى بلادهم، وبعضهم يقول غير ذلك ؟ وأما سبب ذلك في الحقيقة أن أهل ميورقة طال عليهم الأمد في وصول الخبر من الطاغية إليهم حين أخذ في حصار

1. يقول شوقا لله : « ... وفي نهاية سنة 1535 تم إعادة بناء الأسطول واستطلع خير الدين أن يعود إلى البحر على رأس 32 سفينة مدفوعة بقوته الجديدة (أليس هو كابودان باشا ؟) إنه من الآن قصادا سيسود على البحر المتوسط، ص: 86.

2. جزيرة في عرض المتوسط قبالة سواحل إسبانيا الشرقية سيق التعريف بها.

تونس، فكثرت الإرجاف فيهم واضطرب رأيهم وصاروا لا يسمعون للوالي بها قولاً ولا يمثلون لأمره، فعند ذلك استعمل اللعين حيلة وأشاع أن طاغيتهم دخل تونس وتمكن من بربروس وما هو قد بعثه إلينا لنحرقه. فتصب أربعة من الصوّاري وجعل على كل صارية ( <sup>1</sup> ) من زينة؛ وكان عنده أحد الزرّاع محبوساً فصوّروا صورة خير الدين في جلد أو يقاربه وحبس إياه بحيث أن كل من نظره لا يرتاب فيه أنّه خير الدين؛ والنصارى لهم قدرة على التصوير وإظهار أنواع التشكيل ( <sup>2</sup> ) وألبسوه ثوباً أسود وعمّموه بعمامة سوداء ( <sup>3</sup> ) وأوثقوه بالقيود والأغلال وألقوه بين تلك الصوّاري وأمر بالنداء في نواحي ميورقة: من أراد الفرجة على إحراق بربروس فليأتي إلى ميورقة ( <sup>4</sup> ) ، فقدم النصارى أفواجا أفواجا حتّى ضاق بهم المكان، وكان هنالك قدر ثلاثمائة أسير من البرّك فأحضروهم وقالوا لهم: "أنظروا إلى سلطانكم ما نفعلُ به؟" وموّهوا عليهم بتلك الصّورة فاعتقدوا صحّة ذلك وجعلوا يبكون وينظرون إليه ويقولون: "كُنّا ننتظرك لخلّصنا وبك رقابنا ممّا نحن فيه، فما نحن نراك الآن على مثل هذه الحالة فإنّ لله وإنّ إليه راجعون "؛ ثمّ إنهم أضرموا النّار في تلك الرّفات فاشتدّ لهيبها، واحترق النّصراني المموّه به واعتقد النصارى لغباوة عقلهم أن ذلك حقاً.

وأما خير الدين فإنّه لما أقطع عن المرسى الذي كان بها بقي أجفانا للطاغية فيهم بعض الأسرى من أهل تونس، كان وجهه بهم إلى بلاده،

1. كلمة غير مفهومة (داقا) ويبدو أنّ الأصحّ هي «دمية» أو «زاعة» المخطوط، ص: 90.

2. الثقات ذكّوه من صاحب المخطوط يقرّ من خلالها بالخصوصية الفنيّة التي تميّز بها الأوروبيون في عالم الفنون التشكيلية.

3. يطرّ أنّ خير الدين بربروس كان يتعمّم بعمامة سوداء مع لباس أسود ولحية صهباء.

4. هكذا استطاع حاكم ميورقة أن يخرج على السكان بهذه الحيلة ليقطع الشكّ باليقين كما يقال ويطمئنّ العامة بالخبر السعيد الذي يبرجوه كافّة المسيحيين وهو قتل بربروس.

فاستولى عليهم خير الدين، فأنقذ المسلمين ممّا كانوا فيه وجعل القيود التي كانت في أرجلهم على أرجل النصارى وأحرق الأجفان واستمرّ مسافرا إلى ناحية ميورقة.

### دخول خير الدين برط-ماؤون واستيلائه على الحصن الذي فيه

وكان هنالك بعض المراسي يُقال لها برط-ماؤون<sup>(1)</sup> تجتمع فيه سائر أجفان النصارى لأنّه مرسى مأمون، كبير الساحل يسع نحو الخمسمائة من الأجفان وياب المرسى صغير لا يسع في الدخول إلا ثلاثة أجفان؛ وحين ورد خير الدين على هذه المرسى كان خارجها جفنان للبرتغاليين<sup>(2)</sup> فحين ظهرت لهما عمارة خير الدين نصب شرعيهما على الفرار، لكن خير الدين لم يطلبهما، وأمر جماعة الغزاة أن ينزعوا عمائمهم من على رؤوسهم تمويهها على النصارى بذلك. ودخل إلى ذلك المرسى في جملة أجفانهم؛ فحين دخلها اعتقد أهلها أنّه أندري<sup>(3)</sup> André فنزلوا إلى ساحل البحر لأجل البيع والشراء مع أهل العمارة؛ وقد كان خير الدين أنزل عسكره وركنهم في بعض المواضع هناك، فبينما النصارى يتشوّفون إلى نزول أهل الأجفان إليهم إذ هجم عليهم جماعة الغزاة من خلفهم وشدّوا وثاقهم وحملوهم إلى الأجفان؛ ولما رأى الجفنان اللذان هربا من خير الدين أنّه دخل إلى تلك المرسى التي لا تدخلها إلا أجفان النصارى، ولا تقدر أجفان المسلمين أن تطيق الدخول اعتقدوا أنّه أندري André فدخلا على إثره وأرسيا.

1. هو اسم مرسى يقال له: Port-Mahon.

2. يكتب صاحب المخطوط «البرطغيز» ويعني البرتغاليين.

3. المصنود القرصان الجنوبي وأجير شارل كان أندري دوريا.

فاستولى عليهم خير الدين، فأنقذ المسلمين ممّا كانوا فيه وجعل القيودَ التي كانت في أرجلهم على أرجل النصارى وأحرق الأجفان واستمرّ مسافراً إلى ناحية ميورقة.

### دخول خير الدين برط-ماؤون واستيلائه على الحصن الذي فيه

وكان هنالك بعض المراسي يُقال لها برط-ماؤون<sup>(1)</sup> تجتمع فيه سائر أجفان النصارى لأنّه مرسى مأمون، كبير السّاحل يسعُ نحو الخمسمائة من الأجفان وباب المرسى صغير لا يسع في الدخول إلا ثلاثة أجفان؛ وحين ورد خير الدين على هذه المرسى كان خارجها جفنان للبرتغاليين<sup>(2)</sup> فحين ظهرت لهما عمارة خير الدين نصب شرّاعيهما على الفرار، لكن خير الدين لم يطلبهما، وأمر جماعة الغزاة أن ينزعوا عماثمهم من على رؤوسهم تمويهاً على النصارى بذلك. ودخل إلى ذلك المرسى في جملة أجفانهم؛ فحين دخلها اعتقدوا أهلها أنّه أندري<sup>(3)</sup> فنزلوا إلى ساحل البحر لأجل البيع والشراء مع أهل العمارة؛ وقد كان خير الدين أنزل عسكره وركنهم في بعض المواضع هناك، فبينما النصارى يتشوّفون إلى نزول أهل الأجفان إليهم إذ هجم عليهم جماعة الغزاة من خلفهم وشدّوا وثاقهم وحملوهم إلى الأجفان؛ ولما رأى الجفنان اللذان هربا من خير الدين أنّه دخل إلى تلك المرسى التي لا تدخلها إلا أجفان النصارى، ولا تقدر أجفان المسلمين أن تطيق الدخول اعتقدوا أنّه أندري André فدخلوا على إثره وأرسيّا.

1. هو اسم مرسى يقال له: Port-Mahon.

2. يكتب صاحب المخطوط «البرتغيز» ويعني البرتغاليين.

3. المقصود القرصان الجنوبي وأجير شارل كان أندري دوريا.

أوصى النّصاري أن لا يُقاتلوا بربروس لأنّه لا يتوجّه إلى ناحية إلّا ويظفر بها فيكون المُقاتل له ساعيا في هلاك نفسه<sup>(1)</sup>، ففتحوا له الحصن فدخله فوجد فيه خمسة آلاف وسبعمائة من النّصاري، وخلف فيه ثمانمائة من الحرّاس ورجع إلى الجزائر فدخلها في السادس يوم من إقلاعه عن هذا الحصن<sup>(2)</sup>؛ وكان يوم دخوله يوما مشهودا.

وكان النّصاري من أهل ميورقة قد تقدّم أنّ واليهم مَوْه عليهم بإحراق خير الدين وصدّقوا بذلك، وأظهر لهم لغاوة عقولهم وبلادة طباعهم ذلك، فبينما هم على ذلك إذ ركب إليهم البحر بعض من خلفه خير الدين من الجرحى فوصلوا إلى ميورقة وأخبروا أهلها بما تمّ على أهل الحصن من خير الدين، وكيف استولى على نصاري برتغاليين بالحيلة التي احتال عليهم وعلى الجفنين اللذين أرسيا بتلك المرسى، فظهر لهم عند ذلك كذب واليهم وتمويهه عليهم وبسطوا أسنتهم فيه بالقبيح، ولو أرادوا أن يكتثوا على أسارى المسلمين ما فعله خير الدين «ببرط ماؤون» ونواحيه من الفعّال المتقدمة لئلا يسبقوا<sup>(3)</sup> منهم بالكلام الذي يتصفون به ويستدلّون به على كذبهم، وهيهات أن تخفى شمس النهار على الناظرين إليها! وحين سمع أسرى المسلمين ما حدث لخير الدين من هذا الفتح العظيم توجهوا إلى الكفّار قائلين لهم: «أنتم فعلتم ببربروس ما فعلتم، ومن فعل هذه الفعّال ببرط ماؤون ونواحيه، بربروس آخر ١٩٩ وجعلوا يُسمعونهم مثل هذا الكلام.

١. لم نثر على هذه الفتوى للبابا في المصادر الأوروبية التي عدنا إليها ويظهر أنّها من تأليف العامة ولذلك صاغها مؤلف المخطوط بعبارة زعموا التي تحتمل الصدق والكذب.

٢. بهذه السرعة الكبيرة استطاع خير الدين قطع المسافة الرابطة بين ميورقة والجزائر في ستة أيام.

٣. هكذا وردت الصياغة في المخطوط، المخطوط، ص: ٩٢.

وكان الطاغية لما استولى على مدينة تونس ورجع إلى بلاده سافر إلى البابا للقاءه ؛ فحين وصل إليه حكى إليه كيف استولى على مدينة تونس، وأنه قد مَحَا أثر خير الدين بحيث إنه لم يبق له ذكر، واستنجز وعده في إلباسه التاج على عادة آبائه ممن تقدّموا ؛ وقد كان طلبه قبل ذلك في إلباسه التاج ( ) <sup>(1)</sup> البابا على قتل خير الدين وإراحة النصارى من شره، فعندما يتم هذا الغرض يلبسه التاج، فاستمهله البابا سبعة أيام يتحقق في صحّة ما قاله الملك. فبينما هو كذلك إذ ورد عليه جماعة من أهل الحصن الذي استولى عليه خير الدين بنواحي «بُرت ماوون» شاكين إليه ما نزل بهم من خير الدين وعسكره الغزاة فأغلظ عند ذلك للطاغية وقال له: كيف تدعي أنك ظفرت بخير الدين وأرحت النصارى منه، وهاهم رَعَيْتُكَ قد وصلوا إليّ شاكين ممّا فعل بهم؟ أمّا تعلم أن الكذب قبيح وخصوصا من الملك؟ فكيف واجهتني بالكذب أمّا خفت أن يسخط عليك المسيح؟ فعند ذلك قبل الطاغية يده ورجله وطلب منه المغفرة على مقتضى دينه، وقال له: «أيها الأب ؛ هكذا أخبرني من عاينه من قتال خير الدين. فقال له البابا: إنه لا يخفُّ غرمك ولا يرضى عنك المسيح إلا بأن تتوجه إلى الجزائر وتأخذها من يد خير الدين، فإذا انتزعتها منه لم يبق لأهل إسبانيا ولا لغيرهم عدوٌ يخافونه؟ وحرّضه على أخذها غاية التحريض فأقسم له الطاغية بالمسيح ومثله وجميع ما يعتقدونه من ديانته أنه يستمر عن ساق الجد وينهض إلى الجزائر نهضة من لا يُقْلَع عنها حتى يستولي عليها<sup>(2)</sup>. فعند ذلك أنعم له بالمغفرة ورضي عنه.

1. كلمة غير مفهومة في المخطوط لكنها تبدو من خلال سياق الكلام أنّ البابا قرّن حدث التتويج بشرط وهو قتل خير الدين أو الإتيان به مقبداً. المخطوط، ص: 92.

2. وقد صدق في ذلك فكانت حملته الشهيرة التي سيأتي ذكرها والتي تعود إلى شهر أكتوبر 1541.



## سفر خير الدين إلى حضرة السلطان

ثم إن خير الدين عزم على السفر إلى حضرة السلطان فأخذ في تجهيز نفسه، فلما تم له ذلك ركب هو وأهله وحاشيته ومن أراد أن يكون معه من العسكر، وسافر فسمع بسفره أندري André فسافر في طلب خير الدين في أربعين جفنا حربية وأتى إلى نواحي جيجل يرصد خير الدين من الجزائر، فاجتاز عليه خير الدين ولم يره. وأمّا أندري André فإنه رآه وتغافل عنه. وأمّا خير الدين فاستمر فسافر إلى حضرة السلطان فاهتزّ لقدميه، واستبشر به السلطان سليمان وأنزله في المحل الذي كان أعده له أولاً، ووضع له الجراية ونوّه بقدره تنويها عظيما.

## سفر خير الدين في مراكب السلطان الأعظم إلى يولية

وقد كان السلطان أمر بتجهيز مائتي جفنا برسم السفر إلى يولية<sup>(1)</sup> فلم يتهيأ من ذلك العدد إلا ثلاثون فركب فيها خير الدين وسافر إلى ناحية يولية ونزل على حصن وأخذ في قتاله حتى فتحه وأخذ ما فيه من الأسرى. وكان فصل الشتاء قريب فرجع إلى إسلام بول<sup>(2)</sup>. ولما دخل فصل الربيع وكملت عمارة الأجضان المذكورة، مع ثمانين جفنا أرسى بها برسم السلطان القبطان باشا<sup>(3)</sup> وكان اسمه لطف أن يسافر هو وخير الدين في هذه العمارة إلى ناحية أولونيه. وأمّا السلطان فإنه نهض إليها بزأ بجمله عساكره وعات في أطرافها ونواحيها حتى استولى عليها الخراب وصارت

1. يولية أو أولونية Avlone, Valona, en Albanie, Olonia

2. اسم إسطنبول وصاحب المخطوط دائما يكتبها هكذا ..

3. قبطان L'Amiral

أثرا بعد عين. وقد كان السلطان وجه إلى مصر عشرين مركبا برسم حمل البشماط إلى العسكر فتحوّف عليهم خير الدين أن يطرقهم حادث من النصارى في رجوعهم ففارق لطف باشا وسافر إلى ناحية مصر لحماية مراكب السلطان من العدو؛ وكان عدد أجفانه ستين جفنا وقد كان في جفون يُقال له: الكرفاز عدّة أجفان للعدو وحرية بندقية<sup>(1)</sup>. فلما رأوه مُقبلا ناحيتهم قالوا: "هذا بربروس جاء من إسطنبول إلى نواحي مصر فأبتعدوا عن طريقه خوفا منه فصادفوا عمارة لطف باشا فاستولى على جفنين وأغرق آخرين وذهب بقية الأجفان إلى الكرفاز مرة أخرى، ثم رجع لطف باشا إلى أولونه وقد كان خرج منها وأقام بها ينتظر قدوم خير الدين عليه.

وأما خير الدين فإنه لقي السفن التي وردت من مصر بالبشماط<sup>(2)</sup> فرجع بها إلى أولونية ولقي في مرساها لطف باشا، ثم إنهما سافرا إلى ناحية الكرفاز فعثا في أطرافه تخريبا وتحريقا ولم يبق إلا الحصار. فرجع لطف باشا إلى إسطنبول واستأذنه خير الدين في استمراره على

1. نسبة إلى البندقية الواقعة على البحر الأدرياتيكي وهي أهم الثغور التجارية فازت في مسابقة جمهورية بيضة ولم تقو على مجازاة جنوة إلا لما استولى عليها الاختلال وصارت سيدة البحار إلى أن اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح بطرف إفريقيا الجنوبي الموصول إلى الهند واكتشفت قارة أمريكا فتحوّلت التجارة إلى هذا الطريق الجديد وضعفت البندقية واشتهرت هذه الجمهورية بمعاربة العثمانيين الذين جردوها من جميع أملاكها شيئا فشيئا فأخذ منها السلطان محمد الفاتح جزائر اليونان وما كان لها بلاد مورة وفي سنة 1571 استولى السلطان سليم الثاني على جزيرة قبرص وفي سنة 1696 فتح السلطان محمد الرابع جزيرة كريد وكانت تابعة لها وفي سنة 1779 احتلها الفرنسيون ثم ضمت إلى النمسا وفي سنة 1805 ضمت إلى إيطاليا وفي سنة 1815 عادت إلى النمسا وفي سنة 1884 نارت عليها وتشكلت بهيئة جمهورية وفي المائة التالية أخضعها النمسا ثانية لسلطانها وفي سنة 1859 تنازلت عنها النمسا إلى نابليون الثالث إمبراطور فرنسا وهو تنازل عنها إلى فكتور إمانويل ملك ميمونتي الذي صار فيما بعد ملك إيطاليا ولم تزل تابعة لإيطاليا حتى الآن.. تاريخ الدولة العلية، ص: 64.

2. البشماط المؤونة العامة عندنا بالجزائر من كبار السن ما تزال إلى يومنا هذا تقول للغيز اليابس البشماط.

السفر فأذن له فسافر في ستين جفنا إلى ناحية برور<sup>(1)</sup> وكانت بها قلعة محكمة البناء فنزل العسكر في البر وأخذوا في حصارها ففتحوها في اليوم الرابع ؛ وكان عدد نصارى هذه القلعة الذين استولوا عليهم أربعة آلاف وثمانمائة ؛ ثم إنه نزل قلعة أخرى يقال لها قلعة مرتد<sup>(2)</sup> فاستولى عليها، وكان عدد النصارى بها ألفين ومائتين وأحرق أجفانا كانت بها<sup>(3)</sup>، ثم إنه نزل جزيرة خزنة الغنى<sup>(4)</sup>، لم يُصادف خير الدين في محاربته للقالام مثل هذه الجزيرة فبقي في قتالها أربعة عشر يوما، ثم إن الله أنزل نصره على طائفة المسلمين ففتحوا تلك الجزيرة واستولوا على ما فيها من الكفار ؛ فكان عددهم أحد عشر ألفا، وكان بتلك النواحي جزيرة يتحكم صاحبها في ستة جزر<sup>(5)</sup> وكانت نية خير الدين أن ينزل العسكر بها فأخلاها الكفار وذهبوا، فأرسل إليهم خير الدين أن يرجعوا إلى جزيرتهم ويعاونوا بإعطاء الجزية إلى السلطان، فرضي بذلك حاكم الجزيرة<sup>(6)</sup> وأرسل هدية كبيرة إلى خير الدين وتوافقوا على خمسة آلاف دينار كل سنة، وكذلك الست جزر التي تحت حكمه تعطي خمسة آلاف دينار فأبى أهلها ذلك فنزل لهم خير الدين واستولى على جملة من قلاعهم وفعل بهم أفاعيل عظيمة، ووجد في تلك المراسي سيوفا للجنوز<sup>(7)</sup> موسوقة بالملف<sup>(8)</sup> وسائر السلع فأخذها وأرسلها إلى إسطنبول وبقي مدة مسافرا في تلك النواحي، ثم

1. Les Cotes de Prouvazen. سواحل بروفازن.

2. قلعة مرتد (Château de Renégat).

3. كل هذه الأماكن توجد بسواحل ألبانيا.

4. - جزيرة خزنة الغنى (Khasnath-el-ghina (le trésor des Richesses)  
5. - L'une des Iles Tonniennes.

6. حاكم الجزيرة الدوق Le Duc.

7. يتقصد للجنوزين.

8. نوع من التماش الشاعم يلبسه عليه القوم.

وأما بقية الأجفان التي خلفها بإسطمبول فإن الوزراء جهّزوها إليه برجال ليعتدّ بهم في خدمتها، فلحقت الأجفان بإشكانوس<sup>(1)</sup>؛ ولما وصلت إليه الأجفان ورأى ما فيها من الرجال انكسف باله لذلك فأخذ اثني عشر جفنا منها وجعل فيها من لم ير تضامن رجالها وأرسل بها إلى كليولية<sup>(2)</sup> ووجّه إلى أكريبوز<sup>(3)</sup> سبعة عشر جفنا مشحونة برجال مقاتلين، فشرعوا في قتال الحصن، وكان أهله<sup>(4)</sup> قد استعدّوا له فتعذّر عليهم فتحه، فسمع بذلك خير الدين فتوجّه إليه بنفسه فلما سمع أهل الحصن بقدومه ألقى الله الرعب في قلوبهم وطلبوا منه الأمان فقبل لهم بشرط أن يقدموا للسلطان مائة غلام منهم، ومائة جارية وخمسة آلاف دينار لأهل الأجفان التي حاربتهم أولاً؛ فلم يزلوا يتضرّعون إليه إلى أن قرّر عليهم خمسين غلاماً ومثلها جوارٍ وثلاثة آلاف دينار فرضي بذلك وسافر عنهم إلى استنديل<sup>(5)</sup> وكان بها خليط من الروم<sup>(6)</sup> والكريد<sup>(7)</sup>؛ وكان في هذه الجزيرة صنفٌ يُقال لهم: "فرنك"؛ وكان الروم بهذه الجزيرة يؤدّون الجزية إلى السلطان فطلبوا الأمان من خير الدين بسبب ذلك، فقال لهم: لا أعطيك الأمان حتّى تعطوني الفرنك الذين عندكم في هذه الجزيرة؛ فلما علموا أنّهم إن لم يُمكّنوه منهم هلكوا بسببهم دفعوهم إليه، فأعطى عند ذلك

1. إشكانوس Eschkanous.

2. كليولية La Pouille.

3. أكريبوز Egripoz.

4. من الإغريق.

5. استنديل Standel.

6. المتصود بالروم هنا الإغريق.

7. نسبة إلى سكّان جزيرة كريد وهي جزيرة مشهورة بالبحر المتوسط ذات موقع حربي من الأهمية على جانب عظيم لوجودها عند مدخل أرخبيل اليونان بحيث يكون المحتل لها كالقابض على بؤغاز الدردنيل، احتلّها العرب مدّة من الزمان ثم استرجعها الروم سنة 961 ميلادية، وفي سنة 1204 أخذها البنادقة لنا فتح الصليبيون مدينة الأستانة، وفتحها العثمانيون فيما بعد. أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 97.

الأمان للروم وقدّر عليهم الجزية في كلّ سنة ألف دينار ؛ ثمّ إنّّه سافر إلى جزيرة يُقال لها سبلة فأرسي بها ، فلمّا سمع حاكمها من النّصارى حمل إليه عددا من أسرى المسلمين كانوا عنده وقدّر عليه ألف دينار كلّ سنة ؛ ثمّ إنّّه سافر إلى جزيرة غيريت<sup>(1)</sup> ، وكان بها ثلاث قلاع للنّصارى وكثير من قُراهم فأستولى على تلك القلاع والقرى جميعا ، وكان عدد الأسرى من هذه الجزيرة ما يتنفّ على خمسة عشر ألفا ؛ ثمّ إنّّه سافر إلى جزيرة بقربها فصالح أهلها على ألف دينار يؤدونها كلّ سنة ، فكانت جملة الجزر التي استولى عليها خير الدين في هذه السّفرة خمسة وعشرين جزيرة فرض على اثني عشر منها الجزية وخرّب ثلاثة عشر منها. ثمّ إن خير الدين ذهب إلى أكریوز لتجديد البشماط<sup>(2)</sup> للسكر لأنّه قد فرغ عليهم .

وكانت عمارة النّصارى من الصّبنيول<sup>(3)</sup> والبنادقه قد وصلت إلى بالكرفاز<sup>(4)</sup> . وعزموا على الاستيلاء على بروفازن<sup>(5)</sup> فسمع بذلك خير الدين فبعث إليها عدّة من أجنانه يحرسونها ، فرأوا هنالك أربعين جفنا للكفّار فرجعوا إلى خير الدين يخبرونه بذلك ، ورجعت أجنان الكفّار إلى العمارة بالكرفاز يخبرونهم بذلك أيضا فقالوا : “ إنّ عمارة بربروس بقربنا فأنكسروا بسبب ذلك عمّا عزموا عليه من الاستيلاء على بروفازن ” ، فسافر إليها برسم حمايتها ، فلمّا أرسى بها بعث أجنانه

1. جزيرة غيريت Sciri, Skiro, dans l'archipel, L'Ile de Ghirit.

2. البشماط كلمة تركية مدلولها هي مأونة الجيش وما يزال كبار السنّ عندنا بتسنطينة يسمون الخبز اليابس البشماط...

3. هكذا وردت في المخطوط وتعني الإسبانيين .

4. الكرفاز هو Carfou .

5. بروفازن Prouvazen .

للتجسس على عمارة النصارى فأخذوا بعض القوارب وسألوا أهلها عن  
العمارة فأخبروهم أنها بالكرفاز، وأنها متوجهة إلى براون فرجعوا بهم  
إلى خير الدين، وأخبروه أيضا بحديث العمارة، فبعث أهل هذه القوارب  
إلى السلطان المستقر إذاك في أذرفة. ومُرَاد خير الدين بتوجيهه لهؤلاء  
النصارى إليه ليخبروه بخبر العمارة فيدعوا إليه بالنصر والظفر؛ ولما  
سمعت عمارة النصارى بأن خير الدين وصل إلى براون تردّد رأيهم في  
السفر إليها والرجوع إلى بلادهم؛ ثم استقرّ رأيهم على السفر إليها  
فوصلوها وقت العصر وأرسوا وراء جون هنالك؛ ولما علم خير الدين  
بقُدوم العمارة أمر بإنزال المدافع إلى البرّ ونصبها وراء سفنه لتردّ عنها  
عمارة النصارى إن قصدتها؛ وكان سنان راييس وجماعة من الرؤساء  
دخلهم الرعب لما رأوا من كثرة أجنان العدو، فعملوا بفكرٍ في الأمر  
فظهر لهم أن يحملوا المدافع إلى ذلك الجون الذي أرسى به النصارى  
يمنعونهم بذلك من النزول؛ لأنّهم اعتقدوا أنّ النصارى يحاربونهم في  
البرّ، فذهبوا إلى خير الدين يأخذون رأيه في ذلك فوجده أنزل المدافع  
لحماية السفن كما تقدّم ذكره، ويكون الرمي متواصلا على النصارى  
براً وبحراً، فاستأذنه الرؤساء في حمل المدافع إلى ذلك الجون على  
حَسَب ما ظهر لهم من الرأى فلم يُعجبه رأيهم وقال لهم: "تذهبون  
إلى ذلك الجون وليس لكم هنالك محلّ تستترون به من مدافعهم؛ لأنّه  
فضاء واسع وكذلك تبقى أجناسنا هنا خالية من العسكر فربّما هجم  
عليها العدو فاستولى عليها لأنّهم في أحد عشر مائة واثنين وستين جفنا  
ما بين صغار وكبار، والرأى عندي أن نجلس في مكاننا هذا فإذا نزلوا  
بذلك الجون واشتغلوا برمي المدافع على عادتهم في ذلك هجمنا على



فلما كان الصّباح ظهر للنّصارى أنّ عسكر المسلمين كلّه في ذلك الجون فأدخلوا أجفانهم إلى البرّ وجعلوا يرمون بالمدافع على العسكر؛ وكان ذلك الموضع فضاء واسعا وكانت الكور<sup>(1)</sup> تنزل على العسكر، وظهر لهم ما قال لهم خير الدين من تقبيح رأيهم واعتراضه عليهم فيما اختاروه من النّزول بذلك الجون؛ ولما رأى مراد باشا ما فعل جفن العدو سار إليه وشرع في قتاله ولحق بهم جماعة من الرّؤساء في أجفانهم، فعند ذلك رجع جفن العدو للعمارة وانعكس الكرب عن العسكر الذين في البرّ فعند ذلك رجع مراد باشا ومن معه إلى عمارة المسلمين، ولما رأى خير الدين أنّ عمارة العدو قصدوا لطلب أجفانهم حين خرجوا إلى ذلك الجفن الذي كان يرمي على المسلمين في البرّ ورجوعه منهزما إلى العمارة. مرّ أجفان المسلمين قرب أقدامه وأدركته الحميّة كما هو المعهود منه في تلك المواطن، فأمر بضرب الطّبُول ونصب الألوية وأجهر بالتكبير، وكان عدد أجفانه مائة وثلاثين جفنا فأمرهم أن يرموا بمدافعهم دفعة واحدة فحصل بذلك ضجة عظيمة لا يمكن التعبير عنها، فسكن الرّعب قلب أندري André وانكسر عن ملاقات المسلمين فأمر بإقلاع أجفانه عن ذلك الجون<sup>(2)</sup> وسافر إلى حال سبيله، وكان ذلك كلّه ببركة خير الدين وحسن رأيه، ثمّ سار أجفان المسلمين في طلب أجفان العدو، ثمّ إنهم رجعوا إلى محلّهم ورجع العسكر الذي كان في ذلك الجون إلى العمارة وأمرهم خير الدين بالاستعداد لئلاّ تهجم عليهم أجفان العدو على حين غفلة.

1. الكور هي قذائف المدافع.

2. كلّ ما يحجب البصر مثل صخرة أو هضبة.

قلعة بخت فصمّم عزمه على طلبها وأقلع عن ذلك المرسى متوجّها إليها. ولما اجتازت عمارة النّصاري على هذه المرسى الذي كان بها خير الدين صعد بعض النّصاري إلى الصّاري الأعظم ونظروا يمينا وشمالا فلاح له عمارة خير الدين على بُعد، فنزل وأعلم أندري André بذلك، فعلم اللّعين أنّ خير الدين لا يترك طلبه ولا يتخلّى عنه فاتّفق رأيه ورأي أصحابه على طلب خير الدين فسافروا متوجّهين في طلبه فصادفوا حين خرجوا من ذلك المرسى أنّه في طلبهم فاستبقت أجفان العدو لقتاله وخربت بعض أجفان المسلمين؛ وكانت أجفان الكفار وعدد ما فيها من المقاتلة بحيث لو قولت بأجفان المسلمين ومن فيها من العدد لكانت ضعفها ثلاث مرّات، وكان عسكر الغزاة خامرهم رعب من العدو لكثرت وكثرة أجفانه، ثمّ إنهم أخلصوا نيّتهم لله عزّ وجلّ وصمّموا على اللقاء، وكان البحر ذلك اليوم مضطربا كثير التموج؛ فيقال إنّ خير الدين رسّم بعض الآيات الكريمة في جانبي جفنه فسكن البحر بقدرة الله تعالى وهدأت أمواجه فتفاهل بذلك المسلمون وعلموا أنّ ذلك علامة النّصر؛ ولم تزل عمارة المسلمين تدنو من عمارة النّصاري حتّى قربوا منها وأخذ الفريقان في القتال؛ وكان النّصاري يزعمون أن كلّ جفن من أجفانهم يقابل خمسين جفنا، وعدد أجفان المسلمين مائة جفن، فيكون جفنان في مُقاتلتها والباقي من أجفانهم لا يحتاج إلى قتال معتمدين في ذلك على قوّتهم وكثرة عدّتهم وما عندهم من الآلات الحربية التي لا يحيط بها الحصر. وقد قيل في المثل: "ولو كلّ ما يتمناه الإنسان يحصل عليه لصار كلّ واحد سلطانا" (1) ثمّ إن جفنا من أجفان الكفار تقدّم إلى أجفان المسلمين وأخذ يرمي عليهم بالمدافع ورجع إلى العمارة فحمي عند



ذلك القتال من الجانبين وهلك فيها جماعة من الفريقين، وغرقت عدة أجفان من العمارتين، ثم إن أغربة العدو ظهر عليهم الفشل فتترسوا<sup>(1)</sup> بالسفن الكبار وصاروا يرمون دفعة على عمارة المسلمين حتى أظلم الجو من كثرة الدخان وصارت أصوات المدافع كالصواعق تتوالى فيقال: إن الكور تتصادم مع بعضها بحيث تشتعل النار من تصادم الكورتين.

وهجم خير الدين على أغربة النصارى ثلاث مرّات عن اليمين والشمال قاصداً بذلك أن يقطعهم فجعلوا يُراوغون أمامه كالشعالب ويتترسون بالسفن؛ ثم إن خير الدين شرع في الدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى في (2) النصارى على المسلمين، وألقى الله الرعب في قلوب الكفار ولاصقوا أجفان العدو فانحرق بعضا؛ ثم إن النصارى كادوا للمسلمين بمكيدة فأنقسموا إلى قسمين وجعلوا طريق عمارة المسلمين في وسطهما ظناً منهم أن المسلمين قد استولوا على بعض أجفانهم وانشفلوا بنهبها فجهموا على عمارتهم وأخذوها دفعة واحدة.

ولما دخل خير الدين بعمارته بين الصّفين لم يشتغل سوى بالقتال وتفريق أجفان العدو ولم يلتفت المسلمون إلى نهب ولا أخذ شيء من أسباب الكفار؛ وكان بعض أجفان العدو إذا أغرقها خير الدين وسقطت في البحر ذهب بعضهم إلى عمارة النصارى وبعضهم إلى عمارة المسلمين يلتمسون منهم أن يحملوهم معهم وكان المسلمون يعرضون عنهم ويتركونهم في البحر ولم يزل القتال بين الفريقين إلى وقت العصر.

1. يحملون منها متارس تقيهم الهجمات وكور المدافع.

2. كلمة غير منهومة. المخطوط، ص: 100.

ولما رأى النصارى ما حلّ بأجفانهم من خير الدين من التعريق والاستيلاء علموا أنهم لا طاقة لهم به فأخذوا في الفرار بين يديه، وحين رأى خير الدين ذلك منهم أخذ في أتباعهم واستولى على جفنين منهم فعد ذلك غشيبهم الليل؛ وكانت تلك الليلة مطيرة ذات رعد وبرق فتتير البحر واضطربت أمواجه فرجع خير الدين إلى الموضع الذي كان فيه؛ وكان قد استولى من عمارة النصارى على أسياح كثيرة وأكابَر منهم من جعلتهم رايسان عظيمان فوجه بالجميع إلى حضرة السلطان وكتب له بجميع ما وقع له مع النصارى؛ ثم إنه رجع إلى إسطنبول في جميع عمارته مؤيِّداً منصوراً.

وأما عمارة النصارى لما انهزمت بين يدي خير الدين قصدت بعض القلاع يُقال لها «قوية» وكانت للمسلمين يعلم خير الدين، فتصدّم مسافرا لحمايتها، فرأى على بُعد جفنا من عمارة النصارى يتجسّس عليه ورآه الجفن أيضا فذهب إلى العمارة يخبرهم بخبره؛ فلما سمعوا بخبره علموا أنه قاصدا إلى تلك الناحية التي هم بها فصرفوا وجوههم إذاك إلى أولونية؛ وكان خير الدين لما رآه الجفن المتجسّس عليه علم أن أندري André بعمارته في تلك الناحية فأراد المسير إليهم فصرفه عن ذلك ريح واضطراب البحر فصرف وجهه إلى أولونية فوصلها، ولما سكن البحر وهدأت أمواجه علموا أن خير الدين صرفه الرّيح عن ناحيتهم فصرفوا وجهتهم إلى قلعة نوقية<sup>(1)</sup>؛ فلما أرسوا بها نزلت مقاتلتهم إلى البرّ وشرعوا في قتالها، ولم يزالوا يقاتلونها إلى أن استولوا عليها وقرّ من كان فيها من المسلمين، فإنّ لله وإنا إليه راجعون، وجعلوا فيها سئة آلاف

1. قلعة نوقية Niviat en Albanie, Castel Niva.

من النصاري؛ ولما سمع بذلك خير الدين علم أن الوقت لا يسعه إلى السفر إليها لإدراك فصل الشتاء فأخّر ذلك إلى الوقت المعهود إلى السفر. ورجع إلى الحضرة ولما سمع برجوعه أندري دوريا رجع هو إلى بلاده أيضا، ولما وصل خير الدين إلى حضرة السلطان وجّه إليه هدية عظيمة وخلع عليه السلطان خلعة سنّية واشتغل في خدمته المقرّرة له، ولما دخل فصل الربيع وطاب الركوب في البحر جهّز خير الدين مائة وخمسين جفنا بما تحتاج إليه فسافر فيها برسم الجهاد فأرسل على نوفية، وقد تقدّم خبر استيلاء النصاري عليها فأنزل خير الدين عسكر الغزاة إلى البرّ وأنزل جملة من المدافع نصبها على القلعة وشرع في قتالها برّا وبحرا، فبقي في قتالها اثنين وعشرين يوما؛ وكان جملة ما رمى عليها من المدافع ثمانية آلاف ومائتين وسبع وعشرين مدفعا، وكان بها حصنان استولى عليهما قبل القلعة، ولم يزل في قتالها بعد ما أحاط بها من كلّ ناحية حتّى استولى عليها وعلى ما فيها من النصاري ورجع إلى الحضرة مؤيدا منصورا؛ ولما سمع السلطان باستيلاء خير الدين على قلعة نوفية<sup>(1)</sup> وعلى ما فيها من النصاري حزنوا عليهم حزنا عظيما، ولما كانت سنة أربعين وتسعمائة (940/ 1533)<sup>(2)</sup> عزّم السلطان سليمان على غزو بودون<sup>(3)</sup> فسافر إليها وفتحها، وخرج خير الدين

1. قلعة نوفية Neviat.

2. في كتاب : Histoire de Barberousse جاء سنة 1540/947.

3. هي مدينة Bude وهي مدينة قديمة على نهر الطونة في مقابل مدينة بوست وتبعد عن مدينة ويانة نحو مائتي كيلومتر وكان بينها وبين بوست جسر أقيم على عدة مراكب ثم أنشئ مكانه جسر حديد على الطراز الجديد وهي تعتبر قاعدة مملكة المجر، أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 86. وجاء في تاريخ بربروس: «...Bude; Suliman il s'empara de cette ville en 1526 Ferdinand d'Autriche la ruprit durant la même année. Suliman s'en rendit de nouveau maitre en 1529 et la donna à Jean Zapot-Vaivoude de Transilvania; mais celui-ci étant mort en 1541, Suliman y établit un pacha d'après les faits exposés ici a voit que le recit de la délivrance de Bude et de la mort de Kerondos coïncident parfaitement avec ce que nous venons de dire au sujet de Jean Zapot. Nous ferons encore un remarque; c'est la seul fois dans le courant de cette chronique qu'une femme est mise en scène. vol: 2, p: 46 .

بسبعين جفنا يجاهد فيها وهي المعبر عنها بالغليظة<sup>(1)</sup> فاستولى على قلاع كثيرة للنصارى وعاث في تلك النواحي تحريقا وتخريبا ؛ وكان السلطان لما فتح بودون<sup>(2)</sup> وترك حاكمها من النصارى<sup>(3)</sup> فيها ؛ وكان هذا الحاكم اسمه بلسان الروم أكراندوس<sup>(4)</sup> فبقي بها مدة يؤدي الجزية إلى السلطان، فلما مات وعلم بموته سلطان الألمان من الكفار تحرك إلى بودون في عسكره برسم أخذها ؛ وكان الحاكم لها لما توفي قامت زوجته مقامه في النظر على تلك البلاد<sup>(5)</sup> تنتظر ما يأمر به السلطان في شأن بودون، وحصنت البلاد لما سمعت بسلطان الألمان قد قدم إليها ؛ فلما وصل إلى بودون ورأى المرأة قد حصنت البلاد منه وعزمت على قتاله بعث إليها بلومها ويقول لها :  
 كيف بك تجنحين إلى سلطان الترك وتمنعين البلاد مني، والحال أن ديننا واحد فاخرجي من البلاد وأنا أعوضك عنها ناحية من نواحي ؟ فأبت ذلك وقالت لا أخون أمانتي لأن هذه البلاد فتحها السلطان سليمان وبنا له بإعطاء الجزية وبقينا على ذلك إلى أن توفي زوجي فقمت أنا مقامه حتى يبعث السلطان إليها حاكما من قبله ؟ والسلطان سليمان إذا سمع بموت أكراندوس لا بد أن يوجه إليها حاكما فإذا أعطيتك هذه القلعة بموت الحاكم من قبل السلطان سليمان فما يكون جوابي له ؟ وقد أكد

1. جاء في كتاب تاريخ بربروس : 2, p: 47. «... qu'on nomme vulgairement Galiotes vol: 2, p: 47.

2. جاء في تاريخ بربروس: «L'an de l'Hegire 947 le Sultan Suliman s'en alla faire la guerre en Hongrie, et chassa les Allemands qui faisaient le siège de Boudoun. vol: 2, p: 46.

دخلها السلطان سليمان فاتحا في 3 ذي الحجة سنة 932 الموافق 10 سبتمبر سنة 1526. أنظر تفاصيل أكثر في كتاب تاريخ الدولة العلية، ص: 86 - 87.

3. يقول مؤرخ الدولة العلية : «... وبعد دخول السلطان إلى مدينة بود جمع أعيان القوم وأمرهم ووعدهم بأن يعين جان زابولي أمير ترانسلفانيا ملكا عليهم ثم عاد إلى مقر الخلافة مستصعبا معه كثيرا من نفائس البلاد وأهمها الكتب التي كانت موجودة في خزائن ميثاس كورفن»... ص: 86.

4. - Kerandos.

5. المقصود بتلك البلاد المجر.

عليّ أكراندوس الوصيّة عند حضور أجله بأنّ هذه القلعة أمانة في يدي  
 فإذا متّ فأحفظها حتّى تؤدّيها إلى يد صاحبها وإن خنت هذه الأمانة  
 فأطالبك بذلك يوم القيامة<sup>١</sup> ومن جملة ما دار بينهما من الخطاب،  
 قالت المرأة له: "إنّ هذه القلعة لا يصلها أحد حتّى يصلها حافظ من قبل  
 السلطان، وأنت إن قدرت على أخذها من يدي فدونك وإياها، ولما يئس  
 هذا السلطان الكافر من أخذ هذه القلعة من يد المرأة شرع في قتالها؛  
 ولما عجزت المرأة عن مدافعتها وجّهت للسلطان رسولا من قبلها فتوجّه  
 السلطان إليها بنفسه.

ولما سمع طاغية إسبانيا<sup>(١)</sup> بموت حاكم بودون<sup>(٢)</sup> ومحاصرة سلطان  
 الألمان<sup>(٣)</sup> إليها وجّه لنصرته عسكريا في البرّ وسبعين جفنا في البحر فيها من  
 المقاتلة اثني عشر ألفا، وعندما سمع أنّ السلطان توجّه إليها أمر برجع  
 العسكر الذين له وظهر له أن يجهّز عمارة كبيرة يوجّهها إلى إقليم الروم  
 ينتهز بذلك الفرصة في غيبة السلطان سليمان؛ وكانت أجفانه السبعون  
 قد دخلت الكرفاز<sup>(٤)</sup> وسافرت منه إلى إقليم الروم فاستولت على بعض  
 القلاع به فأطاعوه ذلك حتّى شرع في تجهيز العمارة التي أشرت إليها؛  
 ولما تمّ ما أراده من هذه العمارة سافر قاصدا إلى بلاد السلطان سليمان،  
 وكان الطاغية في أثناء سفره سمع بأنّ خيرالدين سافر بعمارة السلطان  
 عازما على الغزو فخشي الطاغية على عمارته منه فأمرها بالرجوع؛  
 ولما رجعت عمارته عزم على التوجّه بها إلى الجزائر فضاعف في عدد

1. الملك شارلكان.

2. هنا يكتبها صاحب المخطوط صحيحة بحرف النون في آخرها بعدما كان يكتبها فيما سبق بالميم في آخرها.

3. يكتب صاحب المخطوط دائما الألمان هكذا «اليمان». المخطوط، ص: 102.

الأجفان والرجال والآلة الحربية ؛ وقد تقدّم أنّ هذا الطاغية والذي قبله<sup>(5)</sup> تجرّعا غصصا كثيرة من غزوات خير الدين وفتكاته بأجفانهما في البحر واستيلائه على الحصن المجاور للجزائر<sup>(6)</sup>، وقد تقدّم جميع ذلك مُستوفى.

وكان خير الدين لما سافر من الجزائر إلى إسطنبول ترك بها نائبا عنه، وكان اسمه علي آغا<sup>(7)</sup> ؛ وكان رجلا عاقلا حازما سديد الرأي جيّد التدبير، وكان له حظّ من العلم والصلاح، كريم النفس سخيا بالمال باذلا للمعروف، يُراعي العلماء والصّالحاء وأهل الخير، مع العدل الشامل والاهتمام بأحوال الرعيّة ولذلك تفرّس فيه خير الدين وجعله نائبا عنه لما احتوى عليه من هذه المناقب العظيمة فصارت له بذلك محبة عظيمة في قلوب أهل البلاد ؛ وكان أنشأ إحدى وثلاثين غليطة<sup>(8)</sup> بعد انتقال خير الدين من الجزائر فاشتدّت بذلك وطأته على أهل إسبانيا واحتوى على الكثير من أجفانهم وعاث في أطراف سواحلهم، وفعل بهم ما كان يفعله بهم خير الدين وأكثر، فرأى الطاغية أن يتوجّه إلى الجزائر يتك العمارّة التي أسلفنا ذكرها وأخفى هذا الخبر مكيدة منهم، وهي عادة باقية عندهم إلى الآن<sup>(9)</sup> إذا وجّهوا عمارّة إلى ساحل من السواحل فإنهم

5. يقصد شارلكان ومن قبله فارديناند .

6. يقصد حصن «البنيون» El Penon أي الصخرة الذي هدمه خير الدين سنة 1529 .

7. يظهر أنّه خطأ من قبل صاحب المخطوط فهو احسن آغا وليس علي آغا، ونجد في صفحة 301 من Histoire de Barberousse المخطوط يتدارك الخطأ ويذكر احسن آغا بدل علي آغا ومن هنا يتّفق مع كتابه:

الذي جاء فيه التعريف بحسن آغا كالآتي:  
«Hassan-Aga avait été enlevé, encore enfant, sur les cotes de Sardaigne, pendant qu'il gardait les moutons. Eunuque et renégat, il s'était avancé dans les hommes grâces rites particulières de Khaïre-ed-din. Les Arabes lui attribuent la prise de Biscura, de Mostaganem et de Tlemcen ... Vol.2, p. 52.

8. سبق التعريف بها .

9. هذه إشارة تدلّ أنّ صاحب المخطوط قريب العهد بتلك الأحداث .

كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكذلك هذه النوبة إن شاء الله، ومع ذلك: “يا أهل الجزائر فقد تعيّن الجهاد علينا معشر المسلمين كفرض الحياة الدّنيا بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل درجة الشهادة: فقد قال تعالى: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصّابرين»<sup>(1)</sup> وقد وعد الله تعالى بإحدى الحسنين: إمّا الظّفر وإمّا الشهادة، وقد كتب الله علينا الموت وكتب علينا البقاء فلا بدّ يموت الإنسان مجاهدا صابرا قانعا بنفسه من الله خيرا من أن يموت حتف أنفه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الجنة تحت ظلال السيوف»<sup>(2)</sup>، وقد ورد أن سيوف المجاهدين معلقة في العرش ويا لها من كرامة، وقد ساق الله إلى بلادنا وأكرمنا الله بهذه الكرامة العظمى فهنيئا لمن سقاه الله كأس الشهادة وختم له بشرابها، وإن هذه المدينة منعناها من الكفار سابقا وكذلك نمنعها لاحقا إن شاء الله تعالى، فلا يتمّ للكفرة فيها غرض بحول الله وقوته، وغاية ما يتأتى لهم أن يطاولونا ونطاولهم وتأتينا في خلال ذلك نصرة سلطاننا الأعظم<sup>(3)</sup> أو من خير الدين باشا ”؛ فحصلت لأهل الجزائر قوّة عظيمة بكلام احسن آغا ووطنوا نفوسهم على جهاد العدو فعند ذلك فتح خزائن السلاح ووزّعه على أهل المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرصاص، فعند ذلك أخذوا في الدّعاء إلى الله تبارك وتعالى والتضرّع إليه في نصرهم على عدوّ الدّين، وجعل احسن آغا في كلّ برج من أبراج الجزائر الطبول والأنفارة<sup>(4)</sup>

1. من قوله تعالى: «فلما فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنه منّي إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاعة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصّابرين، سورة البقر، آية 249 .

2. حديث نبوي صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم الحديث: 1012 .

3. المقصود السلطان العثماني سليمان القانوني .

4. جمع نفير وهي نوع من المزامير تراقق دقّ طبول الحرب .

فهدرت تلك الطبول وزعقت تلك الأنفورة حتى عمّت آفاق الجزائر، ونصب أوليته المظفورة على تلك الأبراج وعلى أسوار المدينة.

وأما النصراري فإنهم شرعوا في النزول إلى البر وأنزلوا جميع آلاتهم الحربية وصنعوا متراسا هائلا ؛ وحين رأى الطاغية استعداد صاحب البلد لقتاله استضعف عقله وقال لخواصّه : “ أنظروا إلى صاحب الجزائر كيف حدّثه نفسه بقتالنا ومدافعتنا على أخذ البلد، وهل هي إلاّ جولة وتكون تحت أيدينا، فكيف يقاتلني هذا الرّجل مع كثرة عسكري، وهل هؤلاء الشردمة القليلة من الأتراك، وطائفة من أهل البلاد لا خبرة لهم بالقتال، كان من حقّ هذا الرّجل أن يطلب الأمان لنفسه ولن معه من أبناء جنسه ويخلّي بيني وبين البلد ؟ وأقسم اللّعين بما يفتقده من دينه أنّه لا بدّ أن يستولي على الجزائر ويخربها حجرا حجرا ويمحو أثر الإسلام منها ؛ وكتب في أثناء ذلك كتابا إلى احسن آغا يقول فيه: «أيّها الرّجل أنت خادم من خدام بربروس، وأنا ملك إسبانيا بأسرها، وجميع بلاد النصراري تحت طاعتي فكيف تدّك نفسك بمقابلتي، أما تعرف أنّي استوليت على مدينة تونس وأزحت منها بربروس وهو لا يصدّق النّجاة بنفسه<sup>(1)</sup>، وهي أعظم من الجزائر شأنًا وأحصن بنيانا، وما أقمت عليها إلاّ مدّة قليلة حتّى دخلتها عنوة بسييفي وخرج عنها سيّدك هاربا فتحقّق إنّ هذه المدينة سأملكها كما ملكت مدينة تونس، كيف وقد قدمت إليها بنفسي، أيمن أن أرجع إلى بلادي ولم أحصل على الجزائر، وإن لم يمكن أخذها في هذه الدّفعة سأطيل حصارها شتاء هذه السنة فمعي من الرّاد والمال ما يكفي هذا العسكر الذي معي وإن احتجت إلى المراد فيبلادي قريبة فكّل ما احتاج إليه يصلني في أقرب مدّة، وقد بذلت لك الأمان هذه المرّة فإن قبلته فيها،

1. على هذه الشاكلة جاءت صياغة الجملة في المخطوط، ص: 104.



وإن لم تقبله وشرعت في الدفاع عن المدينة ورهانك قتالنا عن أن تطلب الأمان منا فإننا لا نبذله لك، فانظر لنفسك ودبر على من معك فإنك إن عاندت ورفعت رأسك ولم تصل إلى ما دعوتك إليه أمرت العسكر بهجمون على المدينة هجمة واحدة ويقلعونها حجرا حجرا ويقتلوا كل من فيها من كبير وصغير وها أنا قد أعددت إليك<sup>١</sup>.”

قالوا: وأتى رسول اللعين بهذا الكتاب ظاهرا في نخوة زائدة وآتية عظيمة لقوة مُرسله، فوصل إلى احسن آغا ودفع له كتاب الطاغية فلما قرأه أمر أن يكتب إليه كتابا يقول فيه: «يا كلب النصرانية كيف حدثت نفسك أنك ملك من الملوك، وأنت في مقام السلاطين العظام الذين دانت لهم الدنيا، وهل أنت إلا كلب من كلاب النصارى أضعف ما في بلاد البربرية<sup>(١)</sup> من القلاع لا تقدر على أخذها فكيف بمدينة الجزائر، ولو سمع بك سيدنا السلطان الأعظم لأرسل إليك عبدا من عبيده بشر ذمة من عسكره يستأصلك ومن معك، ومع ذلك فإن في عسكر الجزائر ما يقابلك وسترى عاقبة أمرك، فاجتهد جهدك غير موفق ولا مسدد، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار، وقد استدلتنا بكتابك على قلة عقلك بأن الإنسان لا يفتخر بشيء حتى يفعله، وقد أتيتم إلى هذه المدينة مرتين: مرة في مدة عروج راييس، ومرة في مدة خير الدين وقد سود الله وجوهكم في المرتين، وهذه المرة كذلك إن شاء الله. وختم الكتاب، وأعطاه للرؤمي الذي وجهه به الطاغية.

فلما وصل به للطاغية، وكان الكتاب بلسان الترك<sup>(٢)</sup> فأمر أن يترجم له، وحين فهمه استشاط اللعين غيظا، وقام وقعد لهذا الكتاب وأمر بإنزال المدافع، وعند ذلك دبر احسن آغا مع أهل المدينة بأن يخرج للنصارى

١. مثل هذه التعابير تؤكد أن الكتاب مترجم من لغة أجنبية.

٢. هذه إشارة هامة تدل على أن المراسلات الرسمية تعتمد اللغة التركية.

أبلا ويهجم عليهم في محلّ نزولهم لينتھز بذلك فيهم فرصة ويكسر شوكتهم بذلك، فصوّب العسكر وأهل المدينة راية وانتخب من عسكره ستة مائة مقاتل من الرّجال المعدودين لمثل هذا اليوم، وجعل معهم ألف فارس أمثالهم في النّخوة.

فلما كان الرّبع الأخير من اللّيل فتحوا أبواب المدينة وخرجوا إلى النصارى من ناحية واحدة ؛ فلما قربوهم كبّروا بصوت عال ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة ؛ وكان الكفّار بين نائم وسكران وناعس فاعتقد النصارى، لعنهم الله، أنّ المسلمين خالطوهم فأخذوا سلاحهم وجعلوا يقتلون بعضهم بعضا والمسلمون على بعد يواصلون الرّمي عليهم ؛ ولم يزل ذلك إلى أن انبج صباح هذه اللّيلة، فعند ذلك رجع المسلمون إلى المدينة وافتقد الكفّار من الصّبيحة التي وقعت لهم في اللّيل فوجدوا عدد المقتولين أكثر من ثلاثة آلاف فانكسروا لذلك، وحصل لهم حزن عظيم بسبب من قتل منهم، وحصل للطاغية من ذلك تغيّر عظيم ؛ فعند ذلك هاج اللّعين واشتد غضبه وأمر بنصب المدافع على المدينة وكان عدّتها مائتي مدفع، وشرعوا في الرّمي على المدينة من المحلّ الذي يُعرف بكُدّية الصّابون<sup>(1)</sup> وبقي على ذلك أيّاما وأهل المدينة يقاتلونهم على الأسوار ؛ ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قد أدرك أهل الجزائر بلطفه الخفيّ فهاجت الرّياح وسافت السحاب مثل الجبال وأمطرت السماء بمطر كالطوفان، وهاج البحر وتحركت أمواجه واشتدّ اضطرابه بما لم يعهده مثله فجعلت سفنهم تنكف يمينا وشمالا، هذا والبحر في الزّيادة والأمواج تتراكم كالجبال ففرق كثير من سفنهم وعُطب

1. كدية الصابون:

«La coline de savon; c'est la hauteur où se trouve aujourd'hui le Fort d'Empereur qui tire son nom, comme chacun sait, du choix que fit Charles-Quint de ce lieu pour y faire camper son armée. Les indigènes le nomment Sultan-kal-aci, chateau de sultan ... Vol: 2; p: 62 .

على الساحل سفن كثيرة فعند ذلك دهش الكفار وتحيروا خصوصا من نزل في البر منهم فإنه خيّل لهم أن القيامة قد قامت من كثرة الرياح والأمطار والصواعق والرعود فلم يقدرُوا على الرمي بمدفع واحد ولا بمكحلة<sup>(1)</sup>؛ وحين رأى احسن آغا ما هيأه الله لأهل الجزائر من نصرتة خرج في جملة عسكره وأهل المدينة طالبين النصارى فوقع بينهم قتال عظيم ودافع النصارى عن أنفسهم دفاعا قويا ؛ وكان مع الطاغية لعنه الله عشرين ألفا لحمايته لم يباشروا قتالا فهم المسلمون عليهم وقتلواهم قتالا عظيما مقدار ساعتين، وتأخر المسلمون قليلا إلى المدينة بعد ما وقوا ذلك اليوم حقّه من جهاد الكفار؛ فدخلوا المدينة وألوية النصر تخفق عليهم، ومات في هذا اليوم من الكفار قتلى أزيد من أربعة آلاف واستشهد مائتين من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة.

ولما رأى الكفار ما حلّ بهم في هذا اليوم من سيوف المسلمين<sup>(2)</sup>، مع ما هم فيه من شدة البرد وتراكم المطر الغزير، وعطب مراكبهم تضاعف حزنهم واشتد قلقهم وعلموا أنهم وقعوا في ورطة عظيمة؛ وكانوا حين نزلوا إلى البر لم ينزلوا معهم من الزاد إلا ما يكفيهم مدة قليلة ظنّوا منهم أنهم لا يحول بينهم وبين سفنهم حائل، ولما نزل بهم هذا الطوفان، وهاج البحر ذلك الهيجان الذي عطبت به مراكبهم حال بينهم وبين سفنهم<sup>(3)</sup> الزاد فبقوا ثلاثة أيام في البر في جوع عظيم حتى آل بهم الأمر إلى أن ذبحوا خيلهم وأكلوها، وكانت عدّة ما غرق من أجفانهم المعدّة للحرب، ومجمل الزاد والآلات الحربية مائة وثلاثين جفنا، ودخل أربعة منهم إلى المرسى وخلص

1. بندقية.

2. أنظر وصف هذه المعركة المصيرية في كتاب شوقالبه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر.

3. ترجمة جمال حمادة، من صفحة 91 إلى 98.

3. يكتب صاحب المخطوط، سفونهم حسب النطق الجزائري، المخطوط، ص: 107.

*[Faint handwritten notes]*

[illegible]

$\frac{1}{n} \sum_{i=1}^n x_i = \bar{x}$

وأما الرسول الذي توجه إلى السلطان فإنه وصل الإنعام لهم الجوائز والبشارات<sup>(1)</sup> وسافر إلى مدينة الجزائر فوصلوها واجتمع باحسن آغا قنصب ديوانا عظيما قرأ فيه أمرية السلطان الذي بعث وأبىس الخلعة<sup>(2)</sup> التي أتت إليه، وكذلك أبىس أعيان الجزائر الخلع التي وصلت إليهم، فدعوا للسلطان بطول البقاء، وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار، ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة.

انتهى ما وجد والحمد لله.

### يقال إن سبب قدوم الانبلا دور<sup>(3)</sup> إلى الجزائر<sup>(4)</sup>

إنه عمر<sup>(5)</sup> مركبا من مراكبه وأوسقه بالمال والسُّلعة وبعثها إلى وهران<sup>(6)</sup> فأخذها راييس من رؤساء الجزائر من الترك يقال له: كجك علي، ودخل بها إلى الجزائر بعد ما وقع بينهما حرب، فوجد من جملة الرؤساء، ودخل

القانوني .سلطان السلامين وبرهان الخواقين متوج الملوك ظل الله في الأرضين. سلطان البحر الأبيض والأسود والأناضول والرومي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة ... أنظر تاريخ الدولة العلية، ص: 85 .

1. هكذا وردت صياغة هذه الجملة في المخطوط، ص: 108 .

2. - من هذه العبارة التي هي من أصل عربي دخلت إلى اللغات الأوروبية وصارت تعني GALA يعني خلعة التي تلبس في المناسبات الرسمية .

3. يقصد الإمبراطور شارلكان ملك النمسا وفي آن واحد ملكا لإسبانيا والبلاد المنخفضة (هولندا) وإمبراطورا لألمانيا وحاكما لجزء عظيم من إيطاليا الجنوبية وكانت جمهوريتا جنوة وقلونسا تابعتين إليه وجمهورية البنادقة طوع أمره ومدينة وهران بإقليم الجزائر تابعة له وكذلك جزيرة مينورقة وجزيرة صقلية فكانت أملاكه محيطة بمملكة فرنسا من جميع الجهات إلا من جهة البحر . أنظر كتاب: تاريخ الدولة العلية، ص: 84 .

4. هذه الإضافة غير موجودة في المخطوط الذي اعتمده المترجم فونير دوباردي ولا وجود لها في «غزوات خير الدين الذي نشره أحمد بن عبد القادر سنة 1934 .

5. - ملأ .

6. - مدينة تقع على الساحل الغربي الجزائري. احتلها المكان الكاثوليكاني إيزابيلا وفرناندو عام 1505 .

في شهرة عظيمة ؛ ثم إن كجك علي أحضر هذا الرئيس إلى احسن آغا فقبل يده وكشف عن رأسه وبقي داهشا من هيئته فسأله احسن آغا عن أخبار بلاد النصارى، فقال له الرئيس : “ يا سيدي إن سفينة تركتها تريد القدوم إلى بجاية<sup>(1)</sup>، فعند ذلك أمر احسن آغا أن تجهز له أغربة<sup>(2)</sup> تطير في البحر كالأغربة<sup>(3)</sup> فصار في طلبها إلى نواحي بجاية وكنوا لها بموضع يقال له: العش أو المنقار ؛ وكان في جملة رؤساء الجزائر كجك علي المتقدم الذكر فطلعت لهم تلك السفينة ذاهبة إلى بجاية فقتروا منها وشرعوا في قتالها ؛ وكانت هذه السفينة في غاية الاستعداد للقتال فلم تزل مع أجفان المسلمين في أخذ وردّ إلى أن وقعت كورة في الحديد من دفّ من أجفان الكفار فاشتعلت النار فيه والتهبت في أطراف السفينة فعجز الكفار عن إطفائها وألقوا بأنفسهم في الماء فالتقطهم المسلمون من البحر وأطفأوا النار، فعند ذلك رجع الرئيسان إلى الجزائر وهما كجك علي<sup>(4)</sup> بهذا الجفن ودخل إلى الجزائر في شهرة كبيرة وفرح بها احسن آغا غاية الفرح، وأمرهم بإنزال الغنيمة، فأنزلوا الكفار وأحضرهم بين يديه ومعهم رايسهم ؛ وكانوا في حال طلوعهم إلى دار الإمارة تصفّف لهم النساء والصبيان ليتفرّجوا عليهم ؛ فلما وصلوا إلى احسن آغا أمر بهم إلى المحبس المعدّ للكفار.

ولما سمع اللعين صاحب إسبانيا بما تمّ لهذين الجفنين ؛ وكان أهل طاعته قد ضجّوا إليه بالشكوى بما يفعله أهل الجزائر بهم خصوصا أهل السواحل منهم بحيث أنهم قالوا للطاغية : “ إمّا أن تكفينّا أمر الجزائر

1 - مدينة تقع على الساحل الشرقي من أرض الجزائر .

2. الأغربة هي السفن.

3. أي كالفرسان أو الغرابيب.

4. بياض في المخطوط يدل على إسقاط الاسم الثاني الذي ربما هو حيدرة كما جاء في المخطوط ص: 109 .

وإمّا نعطي الطّاعة لصاحبها؟ فشرع في الحركة إلى الجزائر وأطلق النّداء في سائر أقطاره بذلك ( )<sup>(1)</sup> إليه جيوشه أفواجا أفواجا وزحرت إليه عساكره أفواجا أفواجا فوصل خبره إلى احسن آغا خليفة خير الدين فصدّق بذلك ولم يكذّبه، ثمّ أخذ في عرس حافل

و ( )<sup>(2)</sup> عظيم ( )<sup>(3)</sup> يقال إنّه خرج من يده مال عظيم بسبب هذا العرس<sup>(4)</sup> كسا فيه وشيع وأرضى كلّ من أتاه ؛ وصار خبر هذا العرس في كلّ ناحية، ويقال إنّه من جملة ما فعل فيه من الفرجات أن نصب صار في باب الوادي وطلاه بالشّحم بحيث إنّه يلصق عليه الزرّ في جامورة شقة من الملف بفيضية ومعها صرّة من الذهب وأباحها لمن صعد إليها، فجاء فتى من الأتراك صغير السنّ فلم يزل يلتصق شيئا فشيئا حتّى وصل إليها ونزل بها فتعجّب النّاس ممّا شهدوا منه، ولمّا تمّ هذا العرس صار مثلاً سائرا ونزهة من نزه الدّنيا إذ روّجه إلى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو ؛ فبنا أسوار المدينة وأصلح ما انهدم منها، ونصب عليها المدافع، وعلى سائر الأبراج، وعيّن أربعة مائة أسير من الكفّار لهذا البناء ؛ ثمّ إنّه بعث إلى شيخ المدينة وأمره أن يرفع إليه حساب رجال كلّ حومة<sup>(5)</sup> من الجزائر ففعل ذلك شيخ المدينة، وفي الوقت ذاته تتوارد أخبار العمارة كلّ حين على أهل الجزائر، فأمر احسن آغا بقطع أشجار البساتين كلّها خوفا من النصارى أن يتستروا بها عند القتال، وأوّل ما

1. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 109 .

2. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 109 .

3. كلمة غير مفهومة، المخطوط، ص: 109 .

4. يقول شوقالبه : ... ويمتد أمام باب الوادي أيضا ساحة حيث تجري فيها الأفراح والتسليات في أيام الأعياد (وخاصة عيد الفطر) وفي ذلك الوقت كانوا يمارسون ألعابا من كل الأنواع مثل ألعاب الإنكشاريين، المراجيح، لعبة صاري الحلوى .. وعندما تمّ ختان ابن احسن آغا سنة 1541 أقام حفلات لهو وتسلية رائعة ...، ص: 80، 81 .

5. هي الحي أو الحارة .

بدأ به هو بستانه فلم يترك به شجرة، وبينما هو جالس في يوم من الأيام بدار الإمارة دخل عليه حارس البحر الذي يقال له: صاحب الناظر<sup>(1)</sup> وأخبره بأن عمارة النصارى على ما يبدو، وهي عمارة كبيرة أخذت وجه الماء كله وسترتة وشرعت في عداثها فتشوش ناظري من ذلك لكثرتها ؛ فعند ذلك عين احسن آغا جملة من الخيل لتسير إلى جبل بوزريعة<sup>(2)</sup> ليأتوه بحقيقة عدد العمارة، فرجعت إليه وكل واحد يقول له: لم أقدر على إحصاء ما رأيت فالعدد كثير لا يحصى؛ ولإدراك ذلك أمر احسن آغا سيدي سعيد الشريف، وكان شيخ المدينة المذكور أن يوجه خصوصا من أهل المدينة إلى الأبراج والأسوار برسم (3) ومقاتلة العدو منها، فنهض شيخ المدينة المذكور وعين الرجال للأبراج والأسوار ونصبت الرايات الإسلامية عليها، ووجه احسن آغا رجاله إلى أبواب المدينة في طوائف من العسكر ؛ فعين لباب عزون<sup>(4)</sup> رجلا من أعيان المدينة اسمه الحاج مام ؛ وكان مذكورا في الشجاعة والإقدام، فقام بما عين له أتم قيام ؛ وأما احسن آغا فأقام في حصن من حصون الجزائر تصل مدافعه إلى العدو بحرا وبرّا، ومعه جماعة من العسكر وطبوله تصدع أصواتها إلى الجون<sup>(5)</sup>، وألويته المنصوبة تخفق على رأسه.

1. الناظر هو المكان المرتفع أو البرج العالي المد للمرافقة ويقال له الناظر أيضا. ومنها جاء قول المتنبي: نامت نواظير مصر عن لمالها ... أي نام حراس مصر.
2. يقع جبل بوزريعة في أعالي العاصمة الجزائرية بالناحية الغربية ولا يزال هذا الاسم إلى يومنا هذا.
3. كلمة غير مفهومة كتبت هكذا «مرستها»، المخطوط، ص: 110.
4. - هذا أحد أبواب الجزائر والمطل حاليا على ساحة الشهداء. جاء في كتاب: Histoire de Barberousse - أن أشاء اقتحام جيش الملك الإسباني شارلكان الجزائر العاصمة تقدم أحد المسيحيين المتصبيين إلى باب عزون وغرن خنجره فيه كما تقول الرواية: «Lorsque Savignac, tenant d'une main l'etendard de la religion, elle ficher son poignard dans la Porte de Bab-Azoun. Quelques heures après, frappé d'un coup mortel, il expirait sur la plage enveloppé dans sa bannière ... Vol, 1 p: 1»
5. المقصود يصل صوتها إلى الصخرة المعروفة باسم «البنيون» El Penon والتي تعني الصخرة.



وجعل على باب هذا الحصن مدفعا عظيما يصعق الأدمي عند صيحته وتزهق النفس من دفعته، وجعل من هذا الحصن إلى القصبه قائدا ومعه طائفة من العسكر واسمه القايد احسن<sup>(1)</sup>، وعين لحراسته باب الوادي رجلا اسمه قايد يوسف ومعه جماعة من العسكر، وعين معه ثلاثة من القيايد اسم أحدهم سافير، وجعله في برج من الأبراج، وقائد آخر اسمه أصلان عينه لقاع الصور، والقائد الثالث اسمه رمضان أقامه قريبا منه في بعض النواحي، وأمّا كجك علي وحيدرة فإنهما أقاما بباب الجزيرة<sup>(2)</sup> ومعهما قبطان السفن اسمه خضر، وجملة رؤساء البحر.

وأما أهل الجزائر من العسكر والأندلسيين<sup>(3)</sup> والبلدية<sup>(4)</sup> فإنهم داروا بأسوارها بالمكاكل والسيوف والرماح والنشاب<sup>(5)</sup>. وأمّا عمارة النصارى وكان ظهورها يوم الأربعاء الثالث ليالي باقين من من جمادى الثانية وأربعين وتسعمائة (940 هـ) يوم الخميس وقت العصر بجون تمنفوست الموالي للجزائر؛ فيقال إنهم لما أرسوا سقط بعض ألويتهم في البحر والمسلمون ينظرون إليهم فحصل لهم تفاؤل وعلموا أنّ الله تعالى ينصرهم عليهم؛ وكان نزول العدو إلى البر يوم الأحد، وكان سلطان إسبانيا دارت حوله عساكره، ويقال<sup>(6)</sup> إن عدتهم تناهز تسعين ألفا، فأراد المسلمون أن

1. ربما هذا القائد هو الذي حامت حوله شبهات التعاون مع المسيحيين كما أشار إلى ذلك بعض الدارسين ونسبوا أمر الخيانة هذه إلى احسن آغا خليفة بربروس وهو ما تكذبه كل القرائن التاريخية. أنظر القضية في كتاب شوقا ليه، ص: 87

2. باب الجزيرة الذي تقول له العامة اليوم «باب ذيرة». وهو ناتج على العمل الذي استحدثه خير الدين سابقا. ويؤكد الأسير الإسباني الدكتور أنطونيو صوصا في مذكراته: طوبوغرافيا تاريخ الجزائر العام وأن مدينة الجزائر كان لها تسعة أبواب بدل من خمسة أبواب المعروفة، أنظر د. عبدالله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص: 62.

3. يقول في المخطوط: والأندلس. المخطوط، ص: 110.

4. يقول في المخطوط «البلدية». بكسر الباء، ويعني بهم السكان الأصليين لمدينة الجزائر، المخطوط، ص: 110.

5. النشاب: النبال.

6. أكثر صاحب هذا المستدرك على المخطوط من استعمال الأفعال المبنيّة للمجهول ممّا يدلّ على أخذه لهذه

يمنعوه من النزول إلى البرّ بالحامة<sup>(1)</sup> قرب البلد<sup>(2)</sup> ؛ وكان زعيم<sup>(3)</sup> من زعماء الترك يقال له الحاج باشا عزم أن يضرب على العدو ليلا ففتح له باب المدينة وأخذ الرّاية بيده وخرج معه جملة وافرة من المسلمين ؛ وكان خروجه من المدينة لما بقي الربع الأخير من الليل فلم يشعر العدوّ وهو في منزله الذي نزل به ، وكان الفصل شاتيا لأنهم وصلوا في شهر أكتوبر من الأشهر العجمية ، والمسلمون قد خالطوهم ورموا عليهم بالمداغ دفعة واحدة ورشقوهم بالسّهام فحصلت فيهم رغبة عظيمة وانتبه مالكهم مدحورا من قومه ، وصاح برجاله وخواصّه ووزرائه وقال لهم : “ أهؤلاء الذين أخبرتموني عنهم أنّهم لا يقدمون لحربنا ؟ أنظروا ما عملوا بنا هذه الليلة ” ؟ ثم إن المسلمين رجعوا إلى البلد ، فعندها قتلوا منهم مقتلة عظيمة .

فلما كان يوم الاثنين تحرّكت النصارى إلى المدينة ومعهم الطّاغية حتّى قربوا الأسوار وهم يزعمون بأنفرتهم ، وألويتهم منصوبة عليهم فخيّل لأهل الجزائر أنّه قد ملئ الفضاء ؛ وكان فيهم من الفرسان أربعة ألف فارس فشّرع في قتالهم من الأسوار بالمداغ وبنادق الرصاص والسّهام ؛ وكان في ذلك اليوم تقدّم رجال من الأتراك إلى القتال وظهرت منهم شجاعة عظيمة ؛ رجل اسمه الحاج باشا وآخر اسمه الحاج مام وآخر يقال له القايد وآخر يقال له الحاج بكير ( 4 ) لأسوار المدينة قد جاوزوا المحلّ المعروف براس تافورة<sup>(5)</sup> وأنزلوا محلّتهم فأخذت تلك الوعور

المعلومات عن طريق الرواية المتواترة في زمانه والقرية العهد من الأحداث حسب تسلسلها .

1. الحامة هي منطقة تفصل ما بين الحراش ومدينة الجزائر ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم إلى يومنا هذا ، وتقع في الجانب الشرقي من مدينة الجزائر .

2. المقصود بالبلد هي مدينة الجزائر وقد اعتاد الجزائريون على تسمية المدينة بالبلاد إلى يومنا هذا .

3. - يقصد بالزعيم القائد .

4. - يباين في المخطوط بدل على أنّ هناك كلاما محذوفا ، المخطوط ، ص: 111 .

5. لا يزال هذا المكان يحمل اسم تافورة ويقع أسفل البريد المركزي قرب محطة القطار بمدينة الجزائر .

كلّها وشرعوا، كما ذكرنا، في قتال المدينة<sup>(1)</sup>، وهبّت عليهم مدافع المدينة بكور الحديد فمات كثير من العدوّ وعلموا أنّ لأهل الجزائر قوّة ودفاعاً؛ ولما حصل لهم ما حصل من دفاع المسلمين، وخاب رجائهم من المدينة، صعدوا ألويتهم منشورة إلى الكدية<sup>(2)</sup> المعروفة بكدية الصّابون وشرعوا في رمي البلاد من هذا وأهل الجزائر يرمون بالمدافع على العدوّ من كلّ ناحية بأصوات كأصوات الصّواعق النّازلة من السماء، وربّما وصل الرّمي إلى أجفانهم التي في البحر؛ هذا ما وقع لهم من الحرب من الاثنين، وهذا اليوم الأوّل الذي تحرّكوا فيه إلى المدينة؛ فلمّا كان اليوم الثالث أرسل الله في آخر الليل ريحا عاصفا فقطعت حبال أجفانهم ونشروا صواريخهم خوفا من الهلاك، وتمّت هذه الرّيح في الزّيادة فتشوّش الجنار<sup>(3)</sup> من ذلك واسمه أندري<sup>(4)</sup> وكذلك كل من كان معه في الأجفان، وسأقت هذه الرّيح العظيمة التي أرسلها الله عليهم جملة من أجفانهم إلى البرّ فغطبت على السّاحل وخرج منها أسرى المسلمين، ومالت عرب أهل الجزائر على تلك الأجفان من الكفرة فاستأصلوهم قتلا.

فلما رأى الطّاغية ما حصل لأجفانه من الفرق والعطب انكسرت شوكته وأخذت ناره في الخمود، وظهرت عليه مخايل الذلّ، فخرج أهل

1. بحسب هذا التحديد الدّقيق كان هجومهم من النّاحية الشرقية بحيث عسكروا في الحامّة ثمّ تقدّموا إلى راس تافورة ومنها إلى وسط المدينة القديمة التي تقع في القصبة الحالية.

2. الكدية تعني الرّيوّة أو الهضبة.

3. أي الأميرال. ويعني به أجبر شارلكان الجنوي أندري دوريا الذي شارك في هذه المعركة المصيرية.

4. هو الأميرال الشهير أندري دوريا

Andrea Doria: Almirante genouv. Estuvo al servicio de diversos principes italianos, entre ellos el Papa y Alfonso 2 de Nàples. Después de que Carlos 8 de Francia se apoderarse de Nàpoles, se puso al servicio de los Sforzza de Milan. De vuelta a Génova, reponquisto Corcega y derroto a los turcos en la batalla de Planosa, en 1519 Carlos V, al cual le entrego Génova, de donde fue gobernador. Véase Lengua, Paolo, Andrea Doria: principe e pirate nell'Italia del 500. Milàn, 1984.

المدينة صبيحة يوم الثلاثاء لقتاله في اجتهد وعزم قوي، وعلموا أن الله تعالى بهم حقيق فخالطوهم في أنبيتهم وقاتلوهم في تلك الأوعار، فأتى وجوهاء العسكر إلى السلطان وقالوا: "أيها الملك قم بنفسك إلى الحرب فإن المحلة على وشك الأخذ"؛ فعند ذلك خرج الطاغية ولتقت عليه عساكره وأخذوا في القتال فتقهقر المسلمون عنهم نازلين إلى راس تافورة، وجدّ الكفار في قتالهم، وتكالبوا عليهم فتقهقروا أيضا إلى ملعب الكورة<sup>(1)</sup>؛ ثم إلى قطرة الأفران<sup>(2)</sup>، ولما رأى الكفار ذلك منهم تراكت جيوشهم عليهم كالبحار الزاخرة، وصاحوا عليهم من كل ناحية وطلبوهم من كل دانية وقاصية فتقهقر المسلمون ناحية سيدي أبي التقى<sup>(3)</sup>؛ فعند ذلك خرج المسلمون في وجوه الكفار واصلوا عليهم الرمي بالحجارة والنشاب؛ وكان ذلك اليوم يسيل فيه المطر كأفواه القرب فرجع المسلمون وحملوا على الكفار من كل ناحية فردوهم على أعقابهم إلى المحلة ورجع المسلمون إلى المدينة.

ولما كان صباح يوم الأربعاء ظهر للعين أنه لا طمع له في الجزائر، وأن الغنيمة أن ينجو بنفسه منها، وقربت أجفانه إلى البر ونزل الجنار<sup>(4)</sup> أندري دوريا منها حزينا فوصل إلى الطاغية بمحلته فقيل يده وقال له: "أيها الملك ألم أحذرك من السفر إلى الجزائر فانظر عاقبة الأمر الذي كنت حذرتك منه، الآن قم واطلب النجاة لنفسك فإن جل أجفانك قد عطب على الساحل، فكيف يكون رجوع هذا العسكر إلى بلادهم، فما أنا أيها الملك

1. ملعب الكورة، لابد أن يكون ملعبا لنوع من الكرة الخاصة آنذاك، وهو الملعب المشار إليه سابقا والتي أقيمت فيه احتفالات احسن آغا.

2. هكذا وردت مكتوبة في المخطوط وبالتالي هناك قطرة الأفران وملعب الكورة.

3. لا بد أن يكون أحد أضحية أولياء الله الصالحين.

4. الجنار يقصد الأميرال.

# الفهارس

## أسماء الأعلام والقبائل والكنى

### - أ -

- أحمد بن القاضي، 78-79، 87، 104، 109-110، 116-121، 127، 128، 131-137، 140، 147.  
إسحاق، 48، 57، 84، 92، 93، 95، 98، 109، 114، 147.  
إسكندر، 94.  
الإسكندر باشا بسطانجي، 60.  
أصلان، 224.  
أعلاج، 192.  
الإفرنج، 76، 153.  
أكراندوس، 209.  
الأيان، 209، 210.  
إلياس، 48، 83.  
أمير السلطان، 176.  
الأميرال، 97، 99، 100، 101، 102، 103، 105، 113، 114، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229.  
الأنديسين، 67، 68، 89، 103، 113، 131، 146، 151، 164، 165، 224.  
أهل الأندلس، 103، 131، 146، 151، 164، 165.  
أهل البلاد، 115، 167، 186، 211، 214.  
أهل المدينة، 74، 86، 99، 105، 114، 115، 116، 122، 123، 124، 125، 152، 178، 179، 223، 227.

### - ب -

- البايا، 67، 68، 192، 194.  
البرابرة، 79، 85، 149.  
البربر، 78، 97، 80، 114، 182.  
بربروس، 47، 48، 49، 51، 54، 67، 80، 81، 82، 87، 98، 102، 109، 110، 130، 135، 147، 148.  
149، 160، 171، 172، 183، 184، 190، 192، 193، 196، 200، 203، 204، 214، 224.

## التعريف بمحقق الكتاب

هو الدكتور عبد الله حمادي خريج جامعة مدريد المركزية (Complutense) بإسبانيا، متخصص في الأدب الإسباني واللاتينو-أمريكي، يعمل أستاذا للمادة الأدب بجامعة منتوري قسنطينة، ويتولى حاليا رئاسة مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، أحرز على جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري المخصصة لأفضل ديوان في الشعر العربي وذلك في دورة أكتوبر 2002 على ديوانه الشعري «البرزخ والسكين»، رئيس سابق لاتحاد الكتاب الجزائريين، ومدير سابق للمركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954...

شاعر ومترجم وباحث أنجز العديد من الدراسات الأكاديمية المتنوعة والمنشورة في دور النشر الجزائرية والعربية والدولية نذكر منها :

### - الدواوين الشعرية :

1 - الهجرة إلى مدن الجنوب ؛ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

SNED الجزائر، 1981.

2 - قصائد غجرية ؛ نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، ENAL الجزائر

1983



- 13 - مساءلات في الفكر والأدب ؛ نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994.
- 14 - الحركة الطلابية الجزائرية 1871 - 1962 منشورات الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين 1994 وطبعة ثانية منقحة ومزودة نشر المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1996.
- 15 - تحفة الإخوان في تحريم الدخان لعبد القادر الراشدي القسنطيني؛ دراسة وتحقيق، نشر دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان 1997.
- 16 - أصوات من الأدب الجزائري الحديث ؛ نشر جامعة قسنطينة 2000 وطبعة ثانية نشر دار البعث بقسنطينة، الجزائر 2001.
- 17 - الشعرية العربية بين الاتباع والإبتداع منشورات جامعة قسنطينة 2001 وطبعة ثانية نشر اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر 2002.
- 18 - مختارات من الشعر الجزائري الحديث ؛ منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإيداع الشعري، الكويت 2001.
- 19 - أندلسيات (غرناطة والشعر) ؛ نشر دار البعث قسنطينة، الجزائر 2004.
- 20 - الأندلس بين الحلم والحقيقة، منشورات مخبر الترجمة طبع دار الهدى عين مليلة، الجزائر 2004.
- 21 - الشعر في مملكة غرناطة ( La Poesia en el Reino Nazari de Granada ) 1232 - 1492 (باللغة الإسبانية) نشر مؤسسة سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2004.
- 22 - فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار لابن هذيل الغرناطي تحقيق وتقديم وتعليق، نشر مؤسسة سعود البابطين للإبداع

الشعري، الكويت 2004.

23 - ديوان أحمد الغوالي ؛ تحقيق وتقديم، نشر وزارة الثقافة

الجزائرية، الجزائر 2005.

24 - تَفَنَسَتْ، رواية، نشر المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر 2006.

25 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي

الزاهري؛ إعداد وتقديم في جزأين، نشر دار بهاء الدين، قسنطينة  
الجزائر 2007.

26 - نَفَاضَةُ الْجِرَاب (تأملات في الأدب والسياسة) ؛ نشر ديوان

المطبوعات الجامعية، الجزائر 2008.



## فهرس موضوعات الكتاب

- 5..... حياة المجاهد خير الدين بربروس 1483 - 1546 .....
- 23..... محتوى مخطوط سيرة المجاهد خير الدين بربروس .....
- 31..... محتوى المخطوط .....
- قراءة شكلية في مخطوط «سيرة
- 34..... المجاهد خير الدين رحمه الله .....
- 59..... دخول عروج إلى مدينة تونس .....
- 65..... خبر عروج .....
- 66..... خبر غزو خير الدين لبجاية .....
- 74..... رجوع خير الدين إلى جزيرة مدلي .....
- 82..... علماء الجزائر يكتبون عروج .....
- إرسال خير الدين الهدية إلى السلطان وصرفها
- 106..... لخطبة إليه والسكة باسمه في بلاد الجزائر .....
- 116..... خبر صاحب تونس .....
- 118..... قدوم ابن القاضي إلى الجزائر .....
- 121..... قيام أهل الجزائر على خير الدين وأصحابه .....
- 127..... خروج خير الدين من الجزائر إلى مدينة جيجل .....
- 136..... قدوم خير الدين إلى شرشال لمحاربة قارة حسن .....

- 140 ..... هجوم خير الدين على برج الفنار أو برج تمنفوست
- 147 ..... بعوث الهدية للسلطان الأعظم من خير الدين
- إعداد الطّاغية إلى مولاي عبد الله صاحب تلمسان
- 161 ..... على خير الدين رحمه الله
- 166 ..... سبب سفر خير الدين إلى السلطان سليمان خان ؟
- ذهاب خير الدين باشا إلى إسطنبول الحضرة
- 173 ..... السلطانية نصره الله
- 189 ..... رجوع خير الدين إلى بلاد الجزائر
- دخول خير الدين برطماؤون واستيلائه
- 191 ..... على الحصن الذي فيه
- 195 ..... سفر خير الدين إلى حضرة السلطان
- 195 ..... سفر خير الدين في مراكب السلطان الأعظم إلى يولية
- 220 ..... يقال إنّ سبب قدوم الانبلا دور إلى الجزائر
- 229 ..... الفهارس
- 229 ..... أسماء الأعلام والقبائل والكنى
- 233 ..... فهرس الأماكن والمدن
- 238 ..... فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية





# عبد الله حمادي

## سيرة المجاهد خير الدين بربروس

إنّ هذا المخطوط المجهول المؤلف الذي يتعرّض صاحبه لسرد حياة المجاهد خير الدين بربروس، هو وثيقة نادرة تدلّ على أنّ مؤلفه كان على صلة بالأحداث التي عاشها خير الدين وإخوته، لكن ما يجعل مجال التخمين مفتوحاً على مصراعيه هو غياب اسم مؤلفه والذي وعد ناسخ هذا المخطوط في آخره بأنه سيُمكنُ القراء من معرفته حين قال في آخر صفحة من المخطوط " ... انتهى ما وجد مقيداً والحمد لله، وسوف أذكر تاريخ الكتاب، وأذكر فيه أصل الكاتب بعد هذا إنشاء الله "، لكن لسوء الطالع يبقى هذا الأمل المرجو في حكم الغياب إلى يومنا هذا، وهو ما يجعلنا نلجأ إلى بعض القرائن والتّخمينات التي يمكن من خلالها معرفة المرحلة التي وضع فيها هذا المصنّف الهام والنادر...

... يأتي هذا المخطوط النادر، ليرسم سيرة أحد المشاهير في عالم البحار في القرن السادس عشر الميلادي، ويؤكد على أنّ الأخوين بربروس هما حقيقة تاريخية كانت فاعلة في أحداث عصرها، ويفرد هذا المخطوط لسيرة خير الدين وجهاده الحيز الأكبر؛ فالكتاب جاء على شكل كتاب تكريمي لصانع الانتصارات المبهرة طوال أربعين سنة من حياته، كلّها فتوحات، وكلّها عمل واجتهاد توجت بإنشاء دولة الجزائر التي صارت تمتع في الحوليات التاريخية « بدار الجهاد » و « بعشّ لصوص البحر » من طرف أعدائها، أو « المدينة الدّولة » التي انكسرت على صخرتها الأساطيل الإسبانية وأطماع القراصنة الجنوبيين وغيرهم، أو (الجزائر المحروسة) المتغلغلة في المخيال الشعبي لسكان الجزائر منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا.

الدكتور عبد الله حمادي، خريج جامعة مدريد المركزية (Complutense) بإسبانيا، متخصص في الأدب الإسباني واللاتينو أمريكي، يعمل أستاذاً لمادة الأدب بجامعة منتوري، قسنطينة، ويتولّى حالياً رئاسة مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات. أحرز على جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري المخصّصة لأفضل ديوان في الشعر العربي وذلك في دورة أكتوبر 2002 على ديوانه الشعري البرزخ والسكين، رئيس سابق لاتحاد الكتاب الجزائريين، ومدير سابق للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ... شاعر ومترجم وباحث، أنجز العديد من الدراسات الأكاديمية المتنوعة والمنشورة في دور النشر الجزائرية والعربية والدولية.

صدر هذا الكتاب  
بدعم من وزارة الثقافة

ردمك: 9-817-64-9961-978



9 789961 648179

دار الفصحة للنشر